طفلةٌ
على ناصيةِ حُلُم

نورا عبد الغني عيتاني

طفلةٌ على ناصيةِ حُلُم

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2018م – 1440 هـ

ردمك 978-614-01-2629-9

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

إلى روحي وريْحاني،

إذا ما الأرواحُ جفّت واضمحلّت..

إلى ضيا قلبي وبستاني،

إذا ما العتمةُ سطعت في عينيّ..

إلى بناتي حبيباتي،

مريم

أروى

ورهف

ولكلِّ طفلٍ بريءٍ كسروا جناحيه..

أهدي هذا الكتاب/الحلم،

وما زالت أحلامي معكم كلَّ يومٍ تتجدّد...

قِفْ ؛ على ناصيةِ الحُلمِ وقاتلْ . .

محمود درويش

وصوتٌ في المدى يصدح..
أنّي أنا حلُمُ الطفولة؛
فدثّروني...

الفصلُ الأوّل

أحلامٌ تدورُ

(دون أدنى جدوى)..

آمنة.. أمّي

حدّثتني أمي، ذات ليلة... حذّرتني، قبل أن ترحل مضرّجةً بدمائها، مسحوقةً تحت ركام الصمت: "لا تركني لهم يا صغيرتي، إنّهم يقتلون أجملَ ما فينا، إنّهم يسلبوننا حلم الطفولة؛ لكي نكبر.. لكي نموت... لا تموتي يا رهف.. لا تستسلمي يا ابنتي.. كوني أقوى منهم.. ضمّي حلمك، خبّئيه بين ذراعيك.. وامضي به إلى مكانٍ حيث يزهر الحلم وينمو بدفءٍ وأمان، ثم عودي ودثّري به أحلام الطفولة".

لم أجبها، لم أقل أيّ شيء،.. لم أفهم شيئًا ممّا كانت تعنيه، فقط شعرتُ بحرقة الألم الذي كانت تحاول أن تخفيه عنّي.. شعرتُ بقسوة الأيّام التي مسّت جبينها الصامت، المنقوش بحفرٍ من شظايا الزمن.. شعرتُ بطعناتِ الوجع التي تلقّتها برحابة صدرٍ لكي تفديني، لكي تحميني، لكي تبقيني طفلة. لكنّي لم أفهم حينها ماذا كانت تعني بأن أظلّ طفلة! ماذا كانت تعني بأن أدثّر الحلم!

فهمتُ فقط حزنها، وجعها، تعبها.. لون وجهها الذي كان يقطر بالدماء، زهرة عينيها التي كانت تغمض ببطءٍ هذه المرة ولا تعود لتتفتّحَ في عينيّ من جديد.. فهمتُ فقط أنّها ماتت ولن تعود، لن تعود إليّ بعد اليوم... أمّي التي غابت و لم تقل لي شيئًا أكثر، علّمتني ألاّ أكبر..

وكبرتُ، وحيدةً كما تعوّدتُ، لكنّ وحدتي توسّعت أكثر.. كيف لا؟ وأنا اليتيمة التي كانت أمّها تعني لها العالم بأسره؟!! كيف لا تتوسّع وحدتي، وأنا التي اعتدتُ على الوحدة إلى أن ضاقت عليَّ وحدتي واختلطت بأجزائي واندمجنا.. كيف لا تنفلقُ وحدتي وتتوسّع وتتفجّر وأنا اليوم أفقد جزئيَ الأكبر، جزئيَ الدافئ الحنون، جزئيَ الذي لا أعرفُ السير دونه!... فأمّي كانت قلبي، وقلبي فارق الحياة، فكيف أعيش، وبماذا أعيش، ولماذا أعيش؟

كانت أمّي تعلم، بلا شكّ، ما تعنيه بالنسبة لي، كنتُ دائمًا أقول لها: "لا أستطيع العيش دونك"، وكانت دائمًا في محاولةٍ مستمرّةٍ لجعلي أتعوّدُ على فكرة رحيلها، وأنا آبى.

- "هكذا هي الدنيا يا رهف، لا أحد فينا مخلّد، كلّنا راحلون، عليكِ الاعتياد على العيش دوني منذُ الآن، عليك أن تكوني قويّةً كما عهدتك دومًا".
- "لكن، بالله عليك أمّي، لِمَ تكرّرين الموضوع نفسه كلّ مرة؟ لماذا تصرّين على إخافتي؟ أنتِ تخيفينني حقًّا بهذا الكلام!".
- "لا تخافي يا حبيبتي، الموتُ لا يخيف، ما يخيف حقًّا هو أن نحيا حياةً تشبه الموتَ ولا نموت".

كم أوجعتني كلماتك تلك أمي، كم أشعرتني بتعبك، بالحمل الذي كنت تحملينه وحدك ولا تقبلين أن تشاركيني إيّاه.. كنتِ دائمًا تريدينني أن أكونَ قويّة.. كنتِ تواجهين قسوةَ الحياةِ وحدكِ، تتلقّين الضربات والطعنات وحدكِ، وتنتظرين منّي أن أكونَ قويّة! كنتُ

أظنُّ أنّي سأموتُ لو حدثَ لكِ أيّ مكروه.. لم أمت، لكنّي عشتُ حياةً تشبهُ الموت، كتلكَ التي حدّثتِني عنها!

أتذكرين؟ يوم كنا نتمشّى ذات يومٍ على الشاطئ، يوم سمعنا صوتَ الفتاة المذهولة تصرخُ من بعيد...

- (يمّاا، يابا... يا الله!.. إيش أعمل وحدي؟ لمين تركتوني؟ خدوني معاكم...).

تصرخ رعبًا، تصرخُ ألمًا، تصرخُ غربةً، تصرخُ من حدّةِ الموت.. تصرخُ لأنّ الموت نسيَها، أخذ منها كلّ شيءٍ ثم ودّعها مبتسمًا شامتًا وكأنّ شيئًا لم يكن..

قلتِ لي حينها: "أرأيتِ تلك الفتاة، لقد قتلوها دون أن يقتلوها.. أماتوا طفولتها قبل أن تكبر، رضعت على حافّة الحلم، ثم فُطمت عنه عنوةً ورُميت جثّتها خارج دائرة الأحلام.. لن أسمح لهم بأن يقتلوكِ مثلها.. لن تموتي".

- أمّي، تقولين دائمًا أشياء مبهمة، لا أفهمها..

لماذا تتكلّمين بالرموز؟ لماذا دائمًا يقطن الغموض كلماتك ويغشّيها؟ لماذا يا تُرى؟ أتُراك تستشفّين ما تخبّئه لنا الأيّام وترين ما لا يراه أحدٌ سواكِ؟".

كنتِ دائمًا تجيبينني: "هذه سنّةُ الحياة، وهذه قسمتنا التي قسم الله لنا وقضاؤه الذي رضينا به وحكمته التي ستفهمينها غدا وتعينها.. غدا تفهمين كلّ شيء، غدا تعين ما أقول".

كنتِ تظنّين حينها أنّني ما زلتُ طفلة، تقفُ على ناصيةِ الحلم بشجاعة، وتستعدُّ للقتال والمواجهة.. وكنتِ تقدّمين ليَ الذخيرة وتجمعين ليَ الحطب لأشعله وأتدفّأ به في غيابك..

كنتِ تثقين بقدرتي على الانتصار، وبسالتي في الهروب بحلمي والتجذيف به وحدي، بعيدًا عنكِ..

لم تدركي حينها أنّني كنتُ قد بدأتُ أكبر منذ زمن، زمنٍ بعيد، قبل أن ترحلي حتى وتودّعيني..

كلّ يومٍ كان يمرُّ بنا، كان يحفرُ فيَّ حفرةً جديدةً من حفر الزمن، وكنتُ أكبر عامًا جديدًا كلَّ يوم، وأنتِ تخالينني طفلةً صغيرةً ما زالت تحلم..

فارقتُ الطفولةَ يا أمي، ودّعتُها منذ قتلوا أبي أمام عينَيّ، يوم سرقوه منّي وأنا ما زلتُ ابنةَ ستّ سنوات.. حين دخلوا بيتنا، وحطّموا رأسه بالعصيّ والحديد أمام ناظرينا، واهالوا عليه ضربًا حتى فارق الحياة ونطق الشهادة..

كبرتُ يومها عشرين عامًا على الأقلّ.. ظننتِ أنّي لم أكن واعيةً حينها، لأنّي لم أتكلّم..

لأنّي بكيتُ أمامكِ مرّةً واحدةً فقط، ثمّ نسيت.. هكذا كنتِ تظنّين، أنّي نسيت...

لم تعلمي يومًا أنّني كنتُ كلّ يومٍ أبكي في خفاءٍ قبل أن أنام، أبكي خلسةً ولا تسمعينني..

أعصرُ قلبي كي أنام، لا أنامُ لئلاّ أصحو...

لم تعلمي يومًا أنّني ما عدتُ طفلة.. أنّني قد صرتُ ربّما أكبرَ منكِ بأعوام، وأصغرَ منكِ بأحلام..

كبرتُ كثيرًا يا أمّي، وصغرت أحلامي الكبيرة، أحلامي التي ظننتِ يومًا أنّها ما زالت تكبر، تقلّصت وانكمشت حتّى قبل أن تتفتّح.. ماتت قبل أن تولد...

هرمتُ كثيرًا بعد موتك... لم أتقبّل غيابكِ لحظة، لم أعتد على الفكرة، رغم أنّك حاولتِ كثيرًا تعويدي عليها، ولم تنجحي... نجحتِ فقط في جعلي أفهمُ معنى أن يعيشَ المرءُ حياةً بلا حياة، وحاولتِ جاهدةً ألاّ تدعيني أعيشها؛ لكنّكِ لم تنجحي.. لم تنجحي بجعلي أحيا حياةً حقيقيّة، كما يعيشُ الأطفال الطبيعيّون؛ لأنّكِ – ببساطة – لم تعيشي مثلهم.. نعم، فاقدُ الشيء لا يعطيه؛ لكنّهُ قد يحلمُ بإعطائه..

قد يبذلُ جهدًا وأحيانًا حياة.. وأحيانًا كثيرة قد تباغتُه الحياة، وتخطفه قبلَ أن يكمل الحلم...

حلمتُ بك مرّةً، رأيتكِ في طفولتك، التي لم تحدّثيني عنها، حزينةً كما لم أعهدك من قبل.. رأيتكِ تبكين ألمًا، وتبحثين عن حضنٍ ما، عن تراب تتوسّدينه..

ناديتِني باسمي مرّتين، مرّتين فقط، ثمّ اختفيتِ.. لم تقولي شيئًا آخر..

وكأنّكِ كنتِ فقط تريدين إيقاظي..

استيقظتُ حينها وفتّشتُ عنك؛ لكي أضمّكِ.. فتّشتُ عنكِ كثيرًا ولم أجدكِ إلاّ في زاويةِ ذاكرتي التي كانت تنزفُ وتَئنّ...

ومع أنّي كنتُ أراك كلّ يومٍ في منامي، كلّ يوم.. لا أدري لِمَ بقي هذا الحلم وحدَه عالقًا في مخيّلتي، متشبّثًا بها...

حاولتُ تحليل الحلم، وقراءة فحوى الرسالة.. وبرغم كلّ الألم، علمتُ أنّكِ لا تزالين حيّة، بالأمل تنبضين؛ لتعيدي لي حلم الطفولة، الذي لم تكمليه.

أنتِ يا أمّي سرّ هذا التغيّر كلّه. أنتِ السلاحُ الذي قاتلتُ بـــه، وحييتُ لأجله مرّةً أخرى حياةً جديدة.. أنتِ الحلمُ الذي ناضـــلتُ لأجله.. طفولتي التي وُلدت من جديد على يديكِ الغائبتين، أيقظـــت أحلامًا كثيرة، وطفولاتٍ لانهائيّة... طفولتكِ الغائبة تلـــك، الـــتي لم تعيشيها في حياتك، والتي رأيتُها في منامي مرّةً واحـــدة ثم ودّعَـــتني، وُلدَت بعد موتك؛ لتوقظ حلمي من جديد، فاستفاق الحلم رغمًـــا عنهم.

ورجعتُ عشرين عامًا إلى الوراء.. أستكشفُ الوجود، وأتذوّقُ طعم الحياة التي غابت عنّي.. أبحثُ عن طفولاتٍ أخرى ترثيني، عـــن أحلامٍ أدثّرُها فتحييني..

الشهرُ الأوّل

هناك في مخيم الشتات، رأيتُ وجهي في وجوه كلّ الأطفال.. رأيتُ دموعي المخفيّة، وضحكاتي الادّعائيّة.. رأيتُ الألمَ يمحو صفحات براءتهم، والرعبَ ينهشُ في أمانيهم نهشَ الوحوش..

رأيتُ خطوطَ الوجعِ تخطُّ على جبينهم تجاعيد الجراح، وتجعلهم أكبر بكثيرٍ ممّا يبدون.

عيونُهم كانت تطاردني، تلاحقني أينما ذهبت، وتعيدني لمأساتي، لأيّام الحرب التي عايشتُها طيلةَ أيّامي الغابرة.. تلك الحرب التي لم تفارقني منذُ ولادتي، كانت كالهواء الذي أُجبرتُ على تنفّسه، والذي كلّما جرّبتُ أن أتحرّرَ منه اختنقت؛ لأنّهم ببساطة كانوا يحتكرون كلّ هواءٍ آخر غيره!

أُجبرتُ على تنفّس الحرب بكلّ أنسجتي، بأوردةٍ كانت تتقطّعُ كلَّ يومٍ ببطءٍ وألمٍ شديدين..

اعتدتُ على الألم إلى أن صار طعمه مألوفًا مستساغًا، والخوفُ صار رفيقيَ الدائم.

الغريب، أنّي كنتُ في كلِّ مرّةٍ أحاولُ التسلّلَ خارجَ نفسي والتغلغلَ في نفوسِ الآخرين، الصغارِ بشكلٍ خاصّ، كنتُ أجدني فيهم، في أعماقهم وأفئدتهم، في نظراتهم وشرودهم وقُصاصات

أحلامهم الضائعة. كنتُ أجدُني في عيونهم، حين تحدّقُ ناحيةَ المجهول، وتسافرُ من غير محطّة..

طفلٌ في الناحيةِ الأبعد، يشبهني حدّ التماهي، رأيت فيه ما لم تريه فيَّ يومًا، أو ربّما ما لم تريدي رؤيته.. ما عصبتِ عيناك عن رؤيتِهِ وامتنعتِ عن قبوله.

في أمجد وعيون أمجد قرأتُ كلّ حكايتي...

كان يجلسُ بعيدًا، أبعدَ من كلّ الأطفال، وحيدًا بلا صحبة. يراقبُهم يلعبون، يصرخون بلا توقّف.

شيءٌ ما في عينيه شدّني، تلك النظرة التي لا تُروى.. تلك النظرة التي تفسّرُ نفسَها بنفسِها.

اقتربتُ منه، وددتُ فقط تأمّل عينيه الذابلتين، وددتُ لو أسقيهما بيديّ.. لكنّه كان منزعجًا من اقترابي، على ما كان يبدو، حيث استدار إلى الناحية الأخرى؛ فتراجعتُ.. لم أشأ أن أزعجه أكثر، اعتذرتُ بهدوء، ثمّ انسحبت، وفي قلبي عليه لهفةٌ تشبهُ لهفتكِ عليّ.

في اليوم التالي، كنّا نصوّرُ مقطعًا وثائقيًّا، أثّر فيّ إلى أقصى حدّ. كنتُ أسألُ كلّ طفلٍ على حدة: "ما هو أكثر شيء تحلم به الآن؟ وماذا تفتقد؟"..

وجاءت الإجابات بسيطةً عفويّة، بريئةً كأصحابها..

لو عرفتِ أحلامهم يا أمّي، لبكيتِ.. أحلامُهم صغيرةٌ إلى أبعد مدى؛ لكنّها كانت كفيلةً بإسعادهم وإرضاء طفولتهم المُغتَصبة.

رمزي كان يحلم بدفء الشتاء، بموقدٍ أو كانون لا ينطفئ أبدًا، يدفئ عليه يديه الصغيرتين، ويغفو بقربه وهو نائم؛ فيأمن البرد القارس

وهو يحلم ليلاً بانتهاء البرد، وذوبان الثلج الذي ما عاد يحبّه..

يارا، ابنة السبع سنوات، كانت شاردة، ظننتُها لم تفهم سؤالي.. كرّرتُ لها السؤال أكثر من مرّة.. فأجابت أخيرًا بعد طول انتظار: "أتمنّى أن يصير عندي سيّارة".

سألتها: "هل تحبّين القيادة؟".

فأجابت: "لا، بل أريد أن أعطيها لأبي ليعيدني إلى بيتنا؛ لأنّهُ قالَ لي أنّنا نحتاج سيّارةً كي نتمكّن من العودة"..

المسكينة، كانت لا تزال تعتقد أنّ العودة إلى بلادها ممكنة، وأنّه ما زال بانتظارها بيتٌ وحياة.. ما كانت تدرك أنّ الحياة توقّفت حينها، منذ حكموا على طفولتها بالتشرّد والضياع...

هدى، الطفلةُ المتحدّثة، ابنة العشر سنوات، كانت تتكلّم بلغة الكبار وعفويّة الصغار... كانت تتحدّث بنبرةٍ متعَبةٍ مؤلِمة، مُثقَلةً بعاطفة الأمومة وأحمالها المرميّة على عاتقها باكرًا.

كانت تحكي بحرقةٍ عن معاناتها وما لاقتهُ من صعوباتٍ أيّام الحرب.

قالت لي وقد ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ ساخرة: "أحلم؟!.. ولماذا أحلم، وماذا أتمنّى؟ لم يعد لنا شيء يُذكر.. أمّي ماتت في الحرب، وإخوتي أحدهم انخرط في سلك المقاتلين، والآخر لا نعرف عنه شيئًا منذ اختطفوه من أمام باب البيت.. حتّى الباب لم يعد موجودًا.. البيتُ تهدّم، وأبي فقد يده ورجليه.. بقيتُ أنا وأختي الصغيرة الرضيعة، لا أحد يكترث لنا.. هنا في المخيّم الحياة أصعب من الموت، والبرد قارس، والحليب لا يكفي لإطعام الصغار. أنا أعتني بأختي، أحاول أن أعوّضها عن فقدان أمّي..

أبـــي لا يتكلّم، كأنّه فقد صوته في الحرب؛ لكنه أحيانًا يهذي ببعض الكلمات وهو نائم.. لا أفهم سوى جملةً واحدة ممّا يقـــول، حيث ينادي أمّي باسمها وهو يصيح: (فاطمة.. عودي إلينا). مسكينٌ أبـــي، لا يدري أنّها لن تعود بعد اليوم...".

أوّاهُ يا أمّي لو تدركين كم آلمتني تلك الكلمات التي تفوّهت بها تلك الطفلة، كم أثّرت فيَّ وأشعرتني بـــالخواء.. وكـــأنّ مشـــاعرها تجمّدت، وكأنّها اعتادت على الألم إلى أن صـــارت ترويـــه دون أن تتحسّسه.. كأنّها قبل أن تضمّد الجرح أغلقته بيديها الـــداميتين، ثم استدارت وأكملت الطريق وكأنّ شيئًا لم يكن!!...

أمّا مروة، فحكاية وجعٍ آخر.. قالت لي واليأس يعصر صـــوتها: "لم نكن نأكل شيئًا، كدنا نموت من الجوع.. يومها تمنّيـــتُ شـــيئًا واحدًا فقط قبل أمنيتي بالهرب إلى هنا، إلى لبنان. تمنّيتُ أن أتـــذوّق قطعةً صغيرةً من اللحم، ولو حتّى قضمة.. كنـــتُ أحلـــم بتـــذوّق الفرّوج الذي كان يحضره أبـــي لنا مساء حين يرجع من العمـــل في آخر الشهر، ويوقظنا بعد أن تكون أمّي قد قدّمت لنا العشاء. كانت أمّي تقول له: (الأولاد تعشّوا يا رجل)، لكنّه كان يأبى إلاّ أن يوقظنا ويصرّ على إطعامنا بيديه.. وكانت تلك جَمعـــةُ العائلـــة الســـعيدةِ الأخيرة... فالحربُ غيّرت كلّ شيء، كلّ شيء...

ما عدنا نأكل الفرّوج، ما عاد أبـــي يعمل أصلاً.. وبعد ذلـــك مات أبـــي برصاصة قنّاص وهو يحاول قطع الشارع لإحضار ربطةٍ من الخبز تسدّ رمقنا.. قديمًا كنتُ أحلم بأبـــي يحمل الفرّوج مـــرّةً أوّل كلّ شهر، أمّا اليوم، فأنا أحلم فقط بعودة أبـــي، برؤية وجهـــه ولو مرّةً واحدة، مرّةً واحدة فقط في العمر..".

كانت مروة تبلغُ الثالثة عشرة من العمر؛ لكنّها على ما بدا عليها من اليأس والحزن والحسرة، توحي لمن يراها بأنّها قد شارفت على بلوغ العشرين وربّما أكثر، بالرغم من قصر قامتها ونحافتها الزائدة التي كانت تُظهر عظام قفصها الصدري كفرّوج تم نهشه للتوّ!...

سألتُها: "وماذا أيضًا؟".

ابتسمت بخجل، وطأطأت رأسها وعينيها ثمّ قالت بارتباك: "بس هيك".

أمّا نغم، فكانت تسرد وتطيل، تحكي ثمّ تتوقّف.. تصمت لتقول بعينيها.. الحزن يغلّف شفتيها، تبسم والغلاف يئنّ.

- "أفتقد سنبل، هرّنا الشقيّ..".
- "وما حكاية سنبل؟ حدّثيني عنه".

تخفض رأسها، تسترجع ما لا يفارقها، ثم تنظر إليّ من جديد:

- "سنبل تربّى عندنا، كبر معنا وكبرنا معه.. اعتدنا عليه واعتاد على انتظارنا لنطعمه صباح كلّ يوم، ظهر كلّ يوم، ومساء كلّ يوم..".

كانت تصرّ على تكرار كلمة يوم، وتلحّ على ذكرها لتعاقب الأوقات.. وكأنّها كانت تريد أن تؤكّد على ارتباط سنبل بذاكرة أيّامها.. على تخلّله كلّ جزء من أجزاء طفولتها الضائعة التي مضت بسرعة...

- "كنّا نطعمه دائمًا، يوم كان الطعام متوفّرًا. لكن، فيما بعد انقطع الطعام، حتى الماء صار قليلاً، حتى أنّه لم يكن نظيفًا.. صار علينا أن نهمل سنبل؛ لنطعم أنفسنا.. حتّى أنفسنا لم يعد بوسعنا إطعامَها..".

- "وكيف كنتم تأكلون؟".
- "أحيانًا لم نكن نأكلُ شيئًا.. كنّا ننام ونحن نتضوّر من الجوع.. وأحيانًا أخرى كنّا نأكل البازيلاّء المتعفّنة، وبقايا الخبز البائت... كانت الدار مؤخّرًا قد امتلأت بالفئران، أربعون فأرا داهمت دارنا؛ فقام عمّي بإطلاق سنبل عليها، ليأكلها كلّها دفعةً واحدة.. فجأةً سمن سنبل وصار له كرشٌ كبير.. ضحكنا عليه جميعًا، ما عدا أمي التي كانت تبكي بغزارة ونحن لا ندرك السبب.. سألتها أختي الصغيرة: (ماما ليش عمتبكي؟) فصمتت ولم تجبها، قامت فقط باحتضانها بقوّة، وهي تبكي وتئنّ، ثم احتضنتني أيضًا واحتضنت عمر أخي الأكبر، وبعد ذلك جاء أبي واحتضن أمّي وبكى هو أيضًا..".
- "وهل عرفتِ لماذا كانا يبكيان؟".
- "ظننتُ في البداية أنّهما يبكيان خوفًا علينا من الحرب.. خفتُ كثيرًا.. لم أخف يومًا أكثر من ذلك اليوم.. أبي ما كان يبكي أمامنا أبدًا.. كان ذلك اليوم الأوّل الذي أرى فيه الدموع تنهمر من عينيه بهذا الشكل، كان يشهق ويغطّي وجهه بيديه.. في المساء جاء عمّي، ليخبرنا أنا وإخوتي وأبناء عمّي بأننا سنأكل اللحمة هذه الليلة.. كدنا نطير من الفرح! أكلنا بنهم، كنّا جائعين كثيرًا، ولم نتذوّق طعم اللحمة منذ أشهر... بعد انتهاء العشاء، اقتربتُ من أمّي، كانت لا تزال حزينة، همستُ لها: "لا داعي للحزن بعد اليوم يا ماما، لا تبكي مجدّدًا؛ فكلُّ شيءٍ على ما يُرام، لقد

صار بإمكاننا أن نأكل **اللحم**.. لعلّ الحرب أوشكت على الانتهاء؛ فعمّي دائمًا يقول أنّنا في الحرب لا نحلم حتّى بتناول **اللحم**!"..

عادت أمّي للبكاء والنحيب؛ فصرخَ أبي بوجهها: (كفّي عن البكاء، لا أريد سماع صوتك).. في اليوم التالي، افتقدنا سنبل، سألنا عن سبب غيابه.. قالوا لنا بأنّ سنبل لم يعد موجودًا، بأنّه مات من الجوع... تساءلنا كيف مات، مع أنّه كان قد التهم الفئران كلّها!!.. أخي عمر قال أنّه على الأرجح مات بعسر هضم.. وعرفنا فيما بعد بأنّ سنبل لم يمت من الجوع ولا حتّى بعسر هضم، وبأنّ عمّي وأبي قد ذبحاه لكي نأكله تلك الليلة.. لكي لا نتضوّر ونموت من الجوع.. مسكينٌ سنبل، ذبحاه كي لا نموت جوعًا.. أبي قال لأمّي أنّنا في كلّ الأحوال ميّتون، وأن نموت من الشبع خيرٌ من أن نموت من الجوع... لكنّنا لم نمت.. وحده سنبل مات وشبع موتًا.. ليتنا نستطيع إرجاعه، ليتهم لم يذبحوه...".

ما أغربَ ذاكرة الأطفال، وما أصفى ضمائرهم!.. ما أرقّ أفئدتهم، وما أنقى بواطنهم!!... يحدّثونكِ عن الألم وكأنّهُ لا يخصّهم.. يتجرّعون خيبةَ الآخرين، ثم يصفونها لكِ بتجرّدٍ وموضوعيّة، وكأنّهم لم يتذوّقوا طعمها أبدًا.. كأنّهم فقط يألمون لمصاب الغير، أمّا مصابهم فقد صار جزءًا منهم، جزءًا مركونًا في ذاكرةٍ هشّة، قلّما يزورونها وقلّما تزورهم.. لأنّها سكنت فيهم واستوطنت أعماقهم واعتادتهم، فصاروا هم الذكريات، وأمست هي الواقع الذي يفرضُ نفسه.. يفرضُ نفسه على طفولتهم وبقوّة، رغم هشاشته وهشاشتهم!..

لم أعد أقوى على نقل المشاهد.. مشاهد رعب وقصاصات خوف، رأيتُها تسبحُ في أصواتهم وعيونهم الضائعةِ التائهة... شاهدتُها تنعكسُ أمامي ثمّ تتلاشى، تذوبُ ثمّ تتجمّد.. تمتصُّها عروقُهم في كلّ الحالات، في الذوبان وعند التجمّد.. تصيرُ بخارًا ثم تتبعثرُ كغبار.. تسيلُ كما يسيلُ الماء، بعكس قانونِ الطبيعة؛ لتسهمَ في ولادةِ قواهم الخارقة مبكرًا، وتوسّع أحداقهم بتحدٍّ أمام حدقة الشمس.. تحدٍّ لم يعد يكترث لشيء، لم يعد يحرقه لهيب الشمس ولا حتّى لهيب الشتاء!..

سافرتُ معهم يا أمّي، حزمتُ الحقائب وعزمتُ على الرحيل إلى دنياهم.. دنياهم التي فاق حملانها تحمّلي.. لوهلة، أردتُ لو أصير مثلهم، لو أصير هم.. لو أنّي فقط أقدر على الوقوف بوجه كلّ هذا اللهيب.. كلّ هذا الألم، كلّ هذا الخوف، والصراخ بأعلى صوتي، بأقلّ صوتي، وبكل صمتي.. وددتُ لو أنّي فقط أقدر أن أعود إلى الماضي الذي لا يفارقني يومًا؛ لكي أحتضنه بيديّ هاتين وأضمّه إلى صدري بقوّة، ثم أودّعه وأقذفه بعيدًا.. بعيدًا، نحو قعر الذاكرة، قبل أن أعود إلى قلب الحكاية، لأخطّ بيدي النهاية... نهاية كلّ وجع، نهاية كلّ ألم، نهاية كلّ خوف، كلّ موت، كلّ حياة، لا تشبه طعم الحياة... وقلتُ لنفسي ما الفائدة؟ حتّى وإن خطّت يداي نهايةً بلا ألم وتبخّر الألم في فصولٍ من حكاية، لا ريب أنّ الألم صار حقيقةً لا تتمفصل عن الواقع والحكاية.. والحقيقة شيءٌ آخر، لا يُحكى ولا يتبخّر...

رميتُ كلّ الحكايات خلفي، قلتُ: ما نفع الحكايات؟... هم أنفسهم ما عادوا يعونها..

الأطفال الأبرياء يقصّون حكاياهم بكلّ حياديّة، بكلّ عفويّةٍ وبعض تهكّم... يسخرون من حكاياهم، وحكاياتُهم تسخرُ منهم.. ثمّ ينسونها، في الحكايةِ فقط!.. ينسونها ويبتسمون؛ لكنّهم في الحقيقة لا ينسون.. فحكاياهم في الحقيقة صارت ذكرى، والذكرى في الحقيقة لا يمكن أن تصبح منسيّة.. لكنّها قد تصبح حلمًا،.. قد يكون أو لا يكون، من يدري...

وعُدتُ إلى نفسي بعد كلّ هذا التخبّط، بعد كلّ تلك الآلام التي عشتُها وتجرّعتُ مرارة ذكراها..

أريدُ اليومَ أن أخرجَ وبسرعةٍ من فقاعة آلامٍ أوشكت على ابتلاعي.. ولعلّها ابتلعتني دون أن أشعر؛ فلشدّةِ ما شعرتُ ما عدتُ أشعر.. اليومَ بالذات، أريدُها أن تبصقني بكلّ قوّة، حتّى ولو كنتُ سأرتطم بقوّةٍ ثمّ أتألّم من جديد خارج الفقاعة.. أريد فقط أن أحيا كما يحيا هؤلاء الأطفال، أو كما تهيّأ لي أنّهم يعيشون.. أن أعيش مثلهم بذاكرةٍ هشّةٍ مركونةٍ ومنسيّة، ذاكرةٍ مطموسةٍ في أعمق جذور النسيان.. أريدُ أن أصيرَ أنا الذكرى وأنا النسيان، وأن تغدو ذاكرتي هي الواقع الذي لم يعد يحاصرني، الحقيقةُ التي لم أعد أخشى تذكّرها.. لكنّي أريد قبل كلٍّ هذا أن أدثّر الحلم، أن أعيد الدفء إلى قلبه ليحيا من جديد.. وليحيي قلوبَ أحلامٍ تكادُ أن تتجمّد من البرد.. فأنّى لي بكلّ هذا الحطب؟!..

ألوذُ لخيمتي، أركنُ فيها للكتابةِ والغياب...

أمجد

مساءً أجلسُ خارجَ الخيمة، أقلّبُ كفّيَّ فوق طقطقة النيران المتطايرة.. حولي تجمّع أطفالٌ كثيرون، أشباهُ أطفال، ذوو ذاكرةٍ هشّة، وجوههم لها تقاسيم متشابهة.. ونساءٌ لم يتبقّ لهنّ من الأنوثة إلاّ الأسماء، وبقايا أطفال/أبناءٌ يجيدون اللعب رغم كلِّ شيء!...

الساعةُ فقدت معناها، لا يوجد حتى ساعةٌ.. لا يوجد حائطٌ أصلاً لتكون عليه ساعة!.. كيف يمكنُ لشيءٍ غير موجود أن يملكَ قيمةً تُذكر؟ تلك هي الحياةُ التي يعيشها الناس هنا.. حياةٌ بلا حياة، حياةٌ غير موجودةٍ أصلاً.. حياةٌ لا قيمة لها على الإطلاق... حسبما تهيّأ لي، أو حسبما شاء قانون النسبيّة خاصّتي أن يهيئ لي..

أشعرُ من بعيد بنظراته ترمقُني.. أمجد يجلس وحيدًا ككلّ ليلة؛ لكن من مكانٍ أقرب هذه الليلة، يعبثُ بالوحلِ والثلج، بأظفاره تارةً، وتارةً أخرى بقدميه الحافيتين.. وتارةً ثالثة يقلّبُ قطعة خشبٍ محدّدة الأطراف بين أصابعه، يديرها كما تدور حلقة الساعةً خلف الساعة؛ لتحرّك الساعة، وتحرّك المشاهد كلّها... يغرز أمجد قطعة الخشب المحدّدة في قلب الوحل ثم ينزعها بقسوة، يخلّف فيها ثقبًا عميقًا، كندبةٍ من الصعب أن تندمل.. ثم يعود ليطمرها بالوحل والثلج، ومن ثمّ يعيد غرز قطعة الخشب في مكان الندبة نفسها...

أمجد يتقن فنّ صياغة المشهد المرعب المؤلم، بصمتٍ مفعم، من غير أن ينبس ببنت شفة!.. هو يستطيع أن يجرفك بسيلٍ من سيول نظراته الصامتة الصاخبة في الآن عينه، ثم يرمي بك فوق وحول التساؤلات.. يستطيع أن يمرّغ أصابعه المسودّة تلك في عينيك، في وجهك كلّه.. تلك الأصابع التي لا تفتأ تتقلّب في قلب الوحل والثلج.. يستطيع أن يمرّغها في قلبك أيضًا ويخلّف فيه بقعةً سوداء عميقة، وكثيرًا من بردٍ وصقيع...

أرى أمجد يرمقني كثيرًا هذه الليلة، حدسي ينبئني بأنّه قد بدأ يعتاد عليّ، أو لعلّهُ اعتاد على فكرة وجودي الإلزاميّة، تمامًا كما يعتاد الأطفال هنا على كلّ شيءٍ إجباريًّا. لكنّه لم يكن مثلهم، أمجد لم يكن كبقيّة الأطفال.. هو لم يكن ليرضخ ويستسلم بتلك السهولة...

ذلك الصبيّ، يحاصرني بتفرّده!.. يجعلني أفكّر كلّ يوم ألف مرّةٍ قبل أن أجرّب أن أعيد إليه النظرةَ نفسها بعد أن يردّها إليَّ مرتبكة.. بعد أن يصوّب نحوي سهام عينيه وقد أمسك بي متلبّسةً وأنا أختلسُ النظرَ إليه اختلاسًا.. في عيون أمجد تحدٍّ من نوع آخر، يذكّرني بنفسي في مكانٍ ما على أرض الواقع، أو ربّما في الحلم التائه..

أرسلُ من جديد نظرةً أخرى جديدةً إلى أمجد، يحاولُ أمجد أن يردّها إليَّ مرتبكةً كما يفعلُ في العادة؛ لكنّني أتشبّثُ بالنظرةِ وهي تقفُ عنده، أحاولُ ألاّ أدعها تفلتَ منّي هذه المرّة.. هذه المرّة بالذات لا أريدُها أن تعود إليّ مرتبكةً، خائبةً،.. خاويةَ الكفّين، مطأطأةَ الرأس... أريدُ اليومَ لنظرتي أن تستفزَّ أمجد، أن تستثيرَ فضوله.. أريدها أن تتحدّى نظراته القويّة تلك، التي يطلقها من عينيه الذابلتين المتعبتين، أريد أن أعرف سرّ قوّتها!...

أثبّتُ النظرة، أجاهدُ نفسي لكيلا أرتطم بوجه الصبيّ الحـــارس والمدافع، المتأهّب دومًا لردّ الهجمات/التطفّلات.

أتفاجأ به هذه المرّة يرسل لي ابتسامةً عن بعد، ابتسامةً مختصرة.. أتعجّب! وتباغتني الاحتمالات: لعلّه أخطأ في اختيار حواسه.. أو لعلّه ينوي الهجوم هذه المرّة، لا الحراسةَ والدفاع..

لعلّه، ولفرط ما رأى في عينيّ من تطفّلٍ وتحدٍّ، قرّر أن يلقّنـــهما درسًا لن تنسياه.. لعلّهُ،.. ولعلّه...

ثم يباغتني الاحتمال الأرجح: لماذا لا تكون ابتسامته بطاقة دعوة يخبرني فيها بأنّه قد غدا جاهزًا لاستقبالي؟.. بأنّه قد صـــار مســـتعدًّا لتقبّل تطفّلي على حياته المشرعة دون نوافذ ولا أبواب.. حياته الـــتي سرقت منه كلّ ما يمكن أن يُشرع أصلاً!..

أحاكي نفسي برهةً، أستجمعُ أنفاسي،.. ثمّ أقفُ بكل قـــوايَ الخائرة بعد نهار عملٍ طويل، ثم أتوجّه نحوه مباشرةً قبـــل أن يخطـــر للتردّد أن يقاطع خطواتي...

وأُفاجأ به متسمّرًا في مكانه، وأنا التي كنتُ أتوقّع منه ردّ فعـــلٍ مغايرٍ تمامًا.. أقتربُ منه أكثر:

– "مساء الخير، كيف حالك؟".

يحمرُّ وجهه بشدّة، ربّما خجلاً، وربّما لعدم استعداده بعـــد لكلّ هذا الاقتراب... لم أستطع أن أحدّد، وأنا التي خلتُني أعرف هذا الصبيّ منذ أوّل استباحةٍ منّي لعينيه الذابلتين!.. لوجهه القمريِّ المتعب المائل إلى الصفرة.. أحاولُ أن لا أركّزَ في وجهه كثيرًا كي لا يرتبكَ أكثر وينسحب.. لكنّه كعادته باغتني برمقةٍ منه مليئـــةٍ بالتحدّي، على الرغم من كلّ هذا الاحمـــرار!.. أشـــعر بعينيـــه

اللامعتين هذه المرّة تحدّثانني، تطرحان عليَّ السؤال: "ماذا تريدين؟".

وقبل أن أجيب عينيه عن سؤالهما، يردُّ أمجد التحيّة بلطفٍ ووقار، ويدعوني مجدّدًا للاقتراب بابتسامةٍ أكثر وضوحًا هذه المرة..

أتنفّس الصعداء، قبل أن ينبس أمجد ببنت شفة؛ فقد شعرتُ هذه المرّة أنّه حقًّا لم يعد يريد الهرب منّي، وبأنّه قد استسلم لتطفّلي وإزعاجي.. لكنّه أبدًا ما كان مهزومًا.. على العكس تمامًا، فقد كان أمجد لا يزال يستأثر بعمق المشهد، ويحرّك الأمور وفقًا لما تقتضيه إرادته...

- "هل لي بالجلوس؟".

ينظر إليّ، ويهزُّ رأسه مبديًا موافقتهُ دون أن يتكلّم..

يرفعُ رأسهُ عاليًا نحو السماء، فيما تنضمُّ كرتونةٌ جديدة إلى يسار كرتونته، وأجلسُ عليها أنا.

أتأمّلهُ، رافعًا رأسه، صامتًا، متصلّبًا كتمثال...

أشاركهُ تأمّل السماء/اللحظة، ثم أعود للتطفّل مجدّدًا بأسئلتي:

- "أتحبُّ النجوم؟".

يلتفتُ إليّ ببطء، ويجيب:

- "أتحبّين أن تكوني نجمة؟".

أستغرب جوابه/سؤاله.. ألمحُ فيه بعدًا آخر غير مرئيّ!..

- "أنت ذكيٌّ جدًّا..".

يصمت.. يختطف ابتسامةً سريعة،.. ثمّ يعودُ مجدّدًا للنظر إلى السماء..

لوهلة، شعرتُ أنّنا متفاهمان تمامًا، أنّهُ يفهمني وأنّني أفهمه في العمق، رغم كلّ هذا الغموض العائم!

وأفكّر.. ماذا لو أنّي أصمت قليلاً؟.. ماذا لو أنّه يشعرُ قليلاً بالحرّيّةِ من كلّ قيدٍ أفرضهُ عليه بأسئلتي وتطفّلاتي؟...

أقرّرُ الصمتَ هنيهة.. وأصمتُ فعلاً فيما أنا أتأمّله، صامتًا يتأمّل اللحظة عاليًا في السماء، عاليًا جدًّا، بعيدًا عن أرضِ الواقع... يصدُق حدسي، لطالما كان يصدق، ويفوزُ الصمتُ كالعادة... يلتفتُ أمجد إليّ بعد مرور لحظاتٍ من الصمت المفاجئ الذي ربّما لم يتوقّعه منّي، ولعلّهُ توقّع.. يبتسم، ثم يعودُ سريعًا لجمودِ جدّيّته ووقاره..

- "أنتِ لست مثلهم..".
- "تقصد.. من؟!...".
- "المتطوّعين المزعومين.. تجّار العمل الخيري"..

أصمت، وأقولُ في نفسي: لعلّي الآن بدأتُ أفهم أمجد جيّدًا. لعلّي بدأتُ أفهم سبب نفوره وعدم تجاوبه معي في البداية...

أمجد ليس ككلّ الصغار.. إنّه حسّاس للغاية، وحدسُه يصدق دومًا، تمامًا كحدسي... أحاكي نفسي فيما أنا ما زلتُ أتأمّله يرنو إليّ بنظراتٍ لا تخلو من الشكّ والريبة.

- "وكيف عرفتَ بأنّي لستُ مثلهم؟".
- "لأنّك تهتمّين بالأطفال هنا وتغدقين عليهم بالحبّ والقبلات، وتساعدينهم في العتمة أيضًا،.. ليس فقط أمام الكاميرات..".
- "أمجد؟ أنت تكرهُ التمثيل؟".
- "أكرهُ العطاءَ الملغّم".

- "وهل هناكَ عطاءٌ ملعّم؟".
- "نعم بالتأكيد.. هناك عطاءٌ يشبهُ العطاء وهو الأخذُ بأمّ عينه.. ثمّةَ أناسٌ يعطونكِ من جيوبهم ليأخذوا من جوفك، يعطونكِ من أفواههم ليأخذوا من روحك.. يعطونكِ من وقتهم؛ ليسرقوا من قلبك... ثمّةَ أناسٌ تتقشّرُ جلودُهم كلّ يومٍ كما الأفاعي، يغيّرونها باستمرار.. ألوانهم تتغيّرُ أيضًا كما تغيّر السحالي ألوانها تتابعًا بحسب البيئة والظروف.. ثمّة أناس ملامسهم من الخارج ناعمة جدًّا، أمّا من الداخل، فهم الخشونة والقساوة والخواء، تمامًا كالدمى المحشوّة.. الفرق أنّهم يتكلّمون، وكلامهم لا ماء فيه ولا حياة..".

أتوقّفُ عن الكلام.. أتأمّلُ كلّ كلمةٍ ينطقُ بها أمجد على حدة، فيما أنا مشدوهة متعجّبة، غير قادرة على تصديق ما أسمعه وما أنا على وشك أن أعيه!!!...

- "سبحان الله.. أمجد.. أنت تتفوّهُ بكلامٍ أكبر من عمرك بمراحل!.. أمجد، أنتَ حكيمٌ جدا!!.. من أين أتيت بكلّ هذه الحكمة؟!!".

أمازحه، وأنا في الحقيقة لم أكن أمزح.. فكلُّ كلمةٍ كان ينطق بها هذا الصبيّ كانت تصيبني بالذهول والغرابة والتعجّب والإعجاب! كلّ كلمةٍ كانت تلمسُ شغافَ قلبي من الداخل، وتزيدني خوفًا عليه ولهفةً أكثرَ من ذي قبل.. كلّما كنتُ أنصتُ إليه من الداخل، كنتُ أتأكّدُ أكثر أنّه كبيرٌ جدًّا، وأنّه فعلاً لا يشبه باقي الأطفال، بل هو مختلف عنهم تمامًا!!!...

يجيبني أمجد، قاطعًا عليَّ تساؤلاتي وتعجّباتي التي طفت على وجهي فانتشلها... وكأنّهُ قرأ وجهي قبل أن يقرأ السؤال!...

- "صحيحٌ أنّني لم أتعدّ العاشرةَ من العمرِ بعد، إلاّ أنّني أكبر بكثير ممّا يبدو عليّ.. صحيحٌ أنّ ما ترينه الآن أمامك طفلٌ صغير بملامح ناعمةٍ وجسدٍ صغير، إلاّ أنّني في الحقيقة ما عدتُ طفلاً، فأنا ودّعتُ الطفولةَ منذُ زمن.. طفولتي كبرت باكرًا جدًّا ثمّ شاخت.. وتمدّدت، أكثر من اللازم، تمدّدت عليّ واتّسعت قبل أن تستعدّ روحي لاستيعابها... ترهّلت روحي عليّ، وكبرت بسرعةٍ من الداخل، وبسرعةٍ جدًّا فارقت طفولتي أرض الحلم.. وماتت".

أصمت.. عيناي تدمعان... أتذكّرُ نفسي... ثم يباغتني أمجد ليستكمل الضربات القاصمة:

- "ماذا كنت تظنّين؟ أنكِ ستشاهدين فيَّ الطفل نفسه الذي شاهدته في بقيّة الأطفال؟ أم أنّكِ كنتِ تنتظرين أن أبوح لك بحكايتي بكل براءة وعفويّة؟.. أن أرويها لك أمام الكاميرات بكلّ سلاسةٍ وطلاقة، أو بشيءٍ من تلبّكٍ وخجل؟ أرويها بكلّ بساطة، وكأنّها لا تمتُّ لي بصلة.. ثم أقفل عليها باب ذاكرةٍ هشّة، لم تعد تحدث فرقًا، لم تعد تحدث وجعًا – أو هكذا تهيّأ لك –..

ظننتِ أنّي سأحكي لكِ كلّ حكايتي مثلهم، ثمّ أعود لأستكمل اللعب من جديد من غير خيوط للذاكرة أجرجرها خلفي فتسحبني.. وتسحلني..!

لعلّكِ تظنّين الآن أنّ حالهم أفضل من حالي.. أنّهم على الأقــلّ يعيشون حياتهم، ويستكملون اللعب والفرح كما يعيش أقرانهم، فيما أنا أغرق في همومِ الغد قبل أن يأتي...

مخطئةٌ أنتِ.. كلانا مهشّم.. كلانا مشوّهٌ من الداخل.. فطفولة كبرت بسرعةٍ ثمّ ماتت ليست بأفضل حالٍ من طفولةٍ علــى شــفيرِ الهاوية، تقفُ على أعتابِ الموت، لتكبرَ دونَ أن تشعر.. تموتُ بــبطءٍ كلّ يومٍ ولا تموت، ولا تدري بأنّها ماتت إلاّ بعد حين...

يأسرني أبحد هذه الليلة.. أصمت... لا أجدُ جوابًا أو تعليقًــا.. ومجدّدًا ينتصرُ الصمتُ أمام حكمةِ الطفولةِ المغادرة... وأفكّر،.. لعلّني وجدتُ أخيرًا توأمًا لروحي...

أمجد من جديد

كانت الساعة تشيرُ إلى الحادية عشرة ليلاً، حين استيقظ أمجد مذعورًا من كابوسٍ راود أحلامه الصغيرة على حين غرّة، فسرق من عينيه البريئتين طعم الراحة، و لم يتمكّن بعدها من العودة إلى النوم في ذلك اليوم العصيب، ولن يتمكّن بعدها من العودة إلى النوم أبدًا كسائر أيّامه الماضية.

اعتاد أمجد أن يمشّط أحلامه ويدلّلها ليواسي بها أيّامه المتعبة، إلاّ أنّ شيئًا ما حدث فجأةً قلب كلّ المقاييس وغيّر كلّ الوجهات، وأحال أحلامه المزهرة إلى كوابيس مرعبة جعلته يكره النوم، وزرعت في نفسه شيئًا من الخوف والرهبة لا يدرك سرّه وفحواه.. أهو خوفٌ من مجهولٍ ينتظرُ قدومه، أو ترقّبٌ لمصيبةٍ يخشى وقوعها ولا يدرك متى ستحلّ؟!...

كان أمجد يدرك تمام الإدراك أنّ المصيبة التي يترقّب لا بدّ واقعة، لكنّه كان يجهل التوقيت ليس إلاّ.. طفلٌ في مقتبل العمر، لا يزال في العاشرة من العمر، تلتمع في عينيه شرارة الحلم المتقدة، هكذا وبدون سابق إنذار، تنطفئ الشرارة في عينيه وتستحيل دخانًا! من كان يتصوّرُ أن يحدث له هذا كلّه، وهو الصبيُّ الباسمُ الذي كان الكلّ يتفاءلُ بمجرّد النظر إلى عينيه اللامعتين؟... لعلّها عينًا أصابتهُ فأردتهُ كئيبًا يائسًا منعزلاً حزينًا، هكذا حسب الجميع..

في تلك الليلة الموحشة، وضع أمجد رأسه على الوسادة، وأراح يده اليمنى تحت رأسه كما يفعل في العادة، وابتسم بسكينةٍ بعد أن قرأ المعوّذات وأذكار النوم، ومن ثمّ استغرق في نومٍ كان من المفترض أن يكون عميقًا، لكنّه لم يكن كذلك هذه المرّة.. فما إن مرّت ساعتان ونصف على نومه الملائكيّ، حتّى رأى ما لم يكن في الحسبان. رأى نارًا ودخانًا، وجثثًا كثيرةً مرصوصةً بعضها فوق بعض، ورأى أجسادًا تحترق، وكثيرًا من ركامٍ يحيط به وهو واقفٌ وسط هذا المشهد المرعب، وحيدًا لا يعلمُ أين يذهب وكيف يهرب وأنّى له أن ينجوَ بنفسه! أصواتٌ مخيفةٌ صاخبة كانت تضجُّ حوله وتقطع الصمت المخيف لتدكَّ رأسهُ الصغير، فتحارُ يداه المرتجفتان ماذا تغلقان، عينيه أم أذنيه!

نعم لقد رأى نفسه وحيدًا، إلاّ من يدٍ كانت تمسك يده؛ لكنّهُ لم يكن يعلمُ صاحبها، ولم يتمكّن من رؤية وجهه، أو لعلّه رآه ونسيه لهول ما رأى.. حاول الصراخ جاهدًا؛ لكنّهُ لم يستطع؛ فصوتُهُ كان محبوسًا لشدّةِ الخوف، والكلماتُ تشابكت وانغرزت في حلقه كأشواك، وأضحى الذهول هو اللغة الوحيدة الممكنة للتعبير.

هكذا استيقظ دون صراخ، مذهولاً ممتقعَ اللون، الدموعُ تجمّدت في محجريه، ويداه لا تزالان ترتجفان وتسدّان أذنيه. نظر أمجد إلى يده اليمنى، باحثًا عن اليد التي كانت تمسكُ يده؛ لكنّهُ لم يجدها.. تلك اليد الضائعة كانت لتؤكّد لهُ أنّ ما رآه كان حقيقيًّا؛ لكنّهُ لم يجد اليد ولا صاحبها.. نظر حوله، وهو الذي كان منذ عدّة دقائق لا يقوى على فتح عينيه؛ فلم يجد شيئًا ممّا كان يرعبه، إلاّ أنّهُ مع هذا ظلّ مرتعبًا يكادُ ريقه يجفُّ من كثرةِ الخوف والرهبة، وتسمّر في

سريره جالسًا بعد أن استجمع أنفاسه وتجرّأ بصعوبةٍ بالغةٍ لكي يقوم وينير الضوء في غرفته المعتمة، وبقي الكلام عالقًا في جوفه إلى أن طلع الصباح، و لم يتمكّن بعدها من إخبار أحدٍ عمّا رآه في الليلة الماضية.

هكذا صار أمجد، وهكذا ظلّ حاله.. ذاك الصبيُّ المفعمُ بالحيـــاةِ وبالتفاؤل والحماس، أضحى صامتًا، منعزلاً، منطويًا علـــى نفســـه، وصار الكلُّ يتساءل عن سرِّ هذا التحوّل المفاجئ...

غالية

في دارٍ دمشقيّةٍ عتيقة، ملاصقةٍ لدار أمجد، كانت تقطنُ غاليـــة، رفيقةُ الحارةِ والأحلام، التي كانت تماثلُ أمجد في الســـنّ، وتشـــاركه معظم الهوايات. كانت غالية فتاةً سريعة البديهة، شديدة الملاحظـــة، تتميّزُ بروعةِ الكتابة وتذوّقها للشعر والأدب منذ نعومة أظفارها، فقد تربّت في منزلٍ تحفُّهُ دواوينُ الشعر، وكبرت وهي ترقبُ والدها يلقي على مسمعيها دواوين من شعر المتنبّي وقيس بن الملوّح ومجنون ليلى، ومختاراتٍ فريدة من شعر الشعراء المعاصرين كأحمد شوقي وإبـــراهيم طوقان ومحمود درويش،.. وغيرهم من الشعراء المخضرمين الذين لم تكن غالية تذكر أسماءهم، على الرغم من حفظها لكثيرٍ من أشعارهم.

هكذا هي غالية، فتاةٌ تشبه اسمها إلى حدٍّ بعيد، شديدةُ الـــذكاء والجمال، رقراقةُ العاطفة، حسّاسةٌ للغاية، غاليةٌ على قلب كلّ مـــن عرفها أو رآها ولو لمرّة.. تحفظُ الوجوه عن ظهر قلب؛ لكنّها دائمًـــا تنسى أسماءها! تألّمت غالية كثيرًا لوضع أمجد، وما آل إليـــه حالـــه، كيف لا؟ وهي التي كانت تستطيع أن تقرأ في عينيه اللامعتين حبّـــه الطفوليِّ الصامت البريء، الذي لطالما حاول أن يظهره لهـــا بشـــكل هدايا بسيطةٍ من صنع يده، أو يترجمه بلغةِ اللعب الطفولي. كانـــت غالية تشعر بحبّ أمجد على الرغم من صغر سنّيهما، وكانت بصمتٍ تبادله ذلك الحبّ البريء، مع أنّها تكابر وتخفي عنه حبّها، وتتظـــاهر

بالغباء لتبدو أمامه كطفلةٍ بريئة لا تفهمُ شيئًا من هذه الأشياء التي تخصُّ الكبار ولا تخصّها، على الرغم من كونها أوعى منه.

كان حضورها طاغيًا وبشدّة، يسبقها بعدّة أمتار، وثقتُها الظاهرة أكسبتها جاذبيّةً ساحرة تثيرُ إعجاب الكبير والصغير، ولأنّها كانت كذلك، كان أمجد يغارُ عليها ويخاف أن يفقدها، والذي زاد من خوفه هذا هو تقصّدها لتجاهل مشاعره وتهرّبها من تلميحاته الواضحة. لعلّها لا تبادلني المشاعر نفسها، هكذا كان يظنُّ أمجد في نفسه، وكان هذا الظنّ يحزنه ويثير قلقه، إلاّ أنّه في بعض الأحيان كان يشعر بحبّها يغمره فجأةً وبسرعة، ومن ثمّ يعودُ ليتخفّى خلف ستار الخشيةِ والمكابرة.

"أنا أحبّكِ كثيرًا يا غالية، لكنّكِ لا تحبّينني كما أحبّكِ".. جملةٌ واحدةٌ كتبها لها ذات مرّة فيما كانا يلعبان، تطلّبت منهُ وقتًا طويلاً وجهدًا كبيرًا، واستهلكت نصف أوراق دفتر الملاحظات الصغير الذي كان يحمله معه دومًا في حقيبته الصغيرة التي لا تفارقه. تلك الجملة الصعبة، كتبها مرّةً على إحدى أوراق الدفتر الصغير على مرأى من ناظرها، وأخفاها بيده ليثير استفزازها ويلفت انتباهها، وهما يلعبان بالكرة في جنينة دارها، كعادتهما كلّ يوم بعد إتمام واجباتهما المدرسيّة، حيثُ كان قد اعتاد منذ الصغر أن يأتي مع والدته أمّ أمجد لزيارة أمّ ميّار والدة غالية، فلمّا كبر قليلاً صار يأتي دونها.

"أوَتعرفين ما كتبتُ في هذه الورقة؟"، سألها بغيظٍ ومكرٍ بعد أن لاحظ تجاهلها الذي تقصّدت أن تبديه؛ فأجابته بلامبالاة: (لا يهمّني)، وتظاهرت باستغراقها في اللعب بالكرة الورقيّة التي صنعاها معًا.

- "لقد كتبتُ عنك عدّة شتائم وسخرتُ منكِ".

حاولت غالية أن تسرق الدفتر من يد أمجد وهو يفرُّ منها ضاحكًا شامتًا. كانت متأكّدة أنّه لم يكتب إلاّ تلك الجملة التي تعرفها وتحسّ بها قبل أن يقولها، إلاّ أنّها تابعت معه التمثيليّة المعهودة، واستمرّت بالتغابي، محاولةً أن تقتلع من يده تلك الورقة التي قام بنزعها من الدفتر ومزّقها مِزَقًا صغيرةً جدًّا، ومن ثمّ رماها على الأرض ومضى إلى داره ضاحكًا شامتًا وهي ترميه بحبّات الثوم المفرقعة. ظنّ بهذا أنّه أثار فضولها وانتقم لتجاهلها له، إلاّ أنّه لم يكن يدرك أنّها كانت تعرف كلّ شيء وتفهم، وتضحك في نفسها أكثر..

بعد خروج أمجد راحت غالية تلملم القصاصات الممزّقة محاولةً إعادةَ إلصاقها، إلاّ أن محاولاتها باءت بالفشل؛ فقد كان صغرُ القصاصات أكبر من إصرارها وفضولها. في اليوم التالي عاد أمجد، وظنّ أنّ غالية لا تزالُ غاضبةً منه؛ لكنّها وبعكسِ ما توقّع، استقبلتهُ بحفاوة وبيدها الكرة الورقيّة الجديدة التي صنعتها، وعرضت عليه لوحتها الفنّيّة الأولى - والأخيرة - التي رسمتها بألوان الماء على حائط الجنينة؛ فجنّ جنونُه وابتسم على مضض. دعتهُ ليرسم معها على الحائط؛ فانغمس برسم لوحة هستيريّة، ذات ألوان متضاربة، تعبّرُ عن غضبه في ذلك الحين.. ولّما رأتهُ مستغرقًا بالرسم، تسلّلت إلى أن وصلت لحقيبته التي تركها على الكرسيّ بالقرب من بركة الماء، أخذت منها الدفتر الصغير، وقرأت الجملة التي كانت تعرف مسبقًا ما ستكون، وعلى الرغم من ذلك راح قلبها يخفق بسرعةٍ لا مثيل لها، ليس من الحبّ فقط، بل أيضًا من الخوف.. لقد خشيت غالية أن

يمسك بها أمجد متلبّسة؛ فأسرعت وأعادت كلّ شيءٍ إلى مكانـــه، ثمّ عادت للّعب معه وكأنّ شيئًا لم يكن..

وكأنّ أمجد لاحظ عليها تغيرًّا مفاجئًا؛ فقد كانـــت ســـارحة النظرات يبدو عليها الغرق في التفكير؛ فوكزها بريشة التلوين وهـــو يحاولُ جذبَ انتباهها إلى رسمته، قائلاً: "هوووه.. ما رأيك بلـــوحتي الفنّيّة الإبداعيّة؟!"؛ فابتسمت على مضض ثم عادت إلى شرودها، ممّا أثار شكّه، وهو المعتاد على سخريتها وتهكّمها الدائمين من أعمالـــه وفنونه!

لم تكن غالية تعلم أنّ هذا اليوم سيكون آخرَ يومٍ يأتي فيه أمجـــد للّعب معها في دارها.. لم تكن تعلم أنّه سيكون اليوم الأخير الـــذي ستراه فيه على طبيعته، قبل أن يتحوّل لشخصٍ آخـــر لا تعرفُـــه.. لم تكن تعلم أنّها ستكتشف رسالته التي دسّها لها في حقيبتها المدرســـيّة دون علمها، بعد أشهرٍ من انقطاعه عن اللعب معها في دارها وركونه إلى عزلته...

قرّرت غالية أن تخطّ بيدها رسالةً لأمجد، وتدسَّها في أحد دفاتر الرسم، تخبره فيها عن مشاعرها، وتتخلّى عن كبريائها الزائف، علّها تعيده إلى سابق عهده؛ لكنّ محاولتها باءت بالفشل؛ فقد رفضَ أمجـــد استقبالها حين ذهبت لزيارته في داره.

"لا تحزني يا عزيزتي، فإنّ الوضع لن يستمرَّ على ما هو عليـــه.. إنّها مجرّد فترةٍ مؤقّتةٍ وستمضي، ثقي بذلك.."، هكذا قالت لهـــا أمُّ أمجد وهي خارجة من الدار مُطأطأَةَ الرأس حزينة. ابتســـمت غاليـــة وودعت أمّ أمجد، وخشيت أن تسلّم الدفتر لأحد غير أمجد كـــي لا يُفتضح أمرها؛ فعادت خائبة الرجاء دامعة العينين، وعلمت أنّها قـــد

خسرت صداقة أمجد منذُ ذلك الحين؛ فراحت تنشدُ في نفسها بعضًا من شعرِ نزار:

"وداعًا.. أيها الدفتر
وداعًا يا صديقَ العمرِ، يا مصباحيَ الأخضر
ويا صدرًا بكيتُ عليهِ أعوامًا، ولم يضجر..
تركتكَ في أمانِ الله
يا جرحي الذي أزهر
فإن سرقوكَ من دُرجي
وفضّوا ختمكَ الأحمر
فلن يجدوا سوى امرأةٍ
مبعثرةٍ على دفتر...".

وداع

سريعًا مرّت الأيام، وبلمحِ البصر انقلبت كلّ الموازين، وقرعت الحرب أبواب المدينة الساحرة؛ فصارَ الكابوسُ واقعًا وحقيقة.. مدينةُ الياسمين، تلك المدينة الشاعريّة التي كان الكلّ يقصدها ويزورها لينعم بالسكينة والسلام، وليستذكر أيّامًا مضت وانقضت لكنّ عبيرهـــا لا زال يفوحُ في الأرجاءِ وينعشُ القلوبَ والأبدان. مدينةُ السحرِ والشعرِ ودّعت بريقَها، والياسَمينُ الأبيضُ لطّختهُ يدُ السواد، فصار أحمرَ ذابلاً ملقًى على أضرحةِ المكان والزمان..

غابت غالية، تاركةً صديقها الصغير/الكبير والدفتر.. غابت دون أن يودّعها، ودونَ أن تودّعه... وبقيَ أمجد وحدهُ ناعيًا غيابَها وغيابَ كلِّ من أحبّ.. غابَ الكلُّ ومضى، تمامًا كما رأى أمجد في منامـــه، تمامًا مثلما كان يخشى أن يكونَ.. وكان... الكلُّ غاب عنه وما ظلَّ إلاّ الأسى والدمار ليواسيه.. وعلى أهبّةِ الرحيل، ودّع أمجـــد ركـــام الوقتِ والبنيان، وركام الذكرياتِ العابقةِ من تحتِ أكوامِ الحجـــارةِ والزهورِ الذابلة، فابتلعَ صمتهُ زيادة، ومضى مع الماضين نحوَ ملجـــإٍ يحتمي فيه من هذه الحياةِ المائلة التي صـــارت تشـــبهُ كـــلّ شـــيءٍ إلاّ الحياة..

كلُّ يومٍ كان يحلّ كان أشبه بسرابٍ جديد، لا النوم يجدي ولا الاستيقاظ، فالاثنان سواء.. أمجد اعتاد ظلمة الحرب قبـــل حلولهـــا،

واعتاد كره النوم قبل أن يصبح النوم حلمًا غير مباح؛ فراح يسلّي نفسه ببقايا من بقايا أمنيات ما زالت عالقة، محفورةً في قعر أحلامه، حيثُ لم تصل بعد يد الحرب إليها لتقتلعَها وتهدّدَ وجودها.. وهو غارقٌ في سماءاتِ الغياب، راح يردّدُ ويقول:

"تلكَ الحرب اللعينة سرقت منّا كلّ شيء، طفولتنا وفرحتنا ودنيانا.. سرقت منّا الحلم البريء المتخفّي بين طيّات ثنايانا.. سرقت منّا دهشةَ الألم، فحتّى طعمُهُ صار جزءًا غير منفصلٍ عن حنايانا".

"لو أنّ الوقتَ يعود، لكنتُ خبّأتُ كوابيسَ الحرب كلّها في قمقم وألقيتُه في البحر، لعلّ البحرَ يخفيها ويبعدها ويبطل أثرًا تشبث برائيها فلا تتحقق.. لو أنّ الوقتَ يعود، لكنتُ أخبرتُكِ يا غالية أنّكِ غاليةٌ عليَّ أمامَ مسمعِ الكلّ،.. لو أنّهُ يعود فحسب.. لو أنّه يعود"..

هكذا كان يردّد، و لم يجبهُ إلاّ الصدى...

الشهرُ الثاني

هذه الليلةُ باردة، أشعرُ بعظامي تترنّحُ من شدّةِ الصقيع، وكأنّها تعرّت من اللحمِ والجلدِ وصارت وحيدةً كحالي.. ألمحُ من بعيد أمجد، يقفُ بعيدًا ككلِّ ليلة، وحيدًا في جهةٍ من العراء، أبعد من كلِّ الأطفال.. هو لا ينتمي إليهم، أو هكذا خُيِّل إليّ... هو صار من جيلٍ آخر، لا ينتمي لأيِّ شيء، جيلُ اللاانتماء.. هذه الليلة لم أقترب من أمجد، لم أشأ أن أقتحمَ عليه صمتهُ وشرودهُ مرّةً جديدةً، وبهذهِ السرعة.. وددتُ أن أعطيهِ فرصةً لابتلاعِ اقتحاميَ الأوّل، لنسيانِ ما ينبغي نسيانه..

ولكن.. أسائلُ نفسي: "وما الذي ينبغي نسيانه؟.. ومن الذي ينبغي أن يُنسى؟ هو أم أنا؟...".

أحاولُ تمزيقَ الفكرة ونسيان السؤال؛ لكنّ الإجابةَ تتشبّثُ بي رغمًا عنّي، وأعي أنّني لا أقوى على مواجهةِ الصبيّ، لأنّه – ربّما – يذكّرني بنفسي،.. بكلِّ شيءٍ يشيرُ إليّ فيه... لأنّهُ – ربّما – يروي لي قصّةَ انهزامي وتفريطي بالحُلُم...

تقطرُ دمعةٌ من عيني، تبلّلُ وجنتي، وتنجرفُ على خدّي، سريعةً كالسيل.. أمسحُها بسرعة،.. لا أريدُ أن يراها أحد.. لا أريد لأحدٍ أن يلمسَ ما أعانيه.. ما اعتدتُ أن أشاركَ أحدًا دموعي، آلامي، وما أعانيه.. ولا حتّى أحمد... ثمّ أنّي ما عدتُ صغيرة، فها أنا قد كبرتُ

كما لم أكبر من ذي قبل، وصرتُ امرأةً، على أهبّةِ الأمومة، ومراسلةً على عتبةِ المنكوبين – الذين لا عتبة لهم – تنقل الآلامَ والأحلام كي تداويها.. لكن، ألمي أنا،.. من يداويه؟ وكيفَ أداريه؟!...

وفيما الصقيعُ لا زال ينخرُ في ثقوب آلامي وأحلامي؛ ليعرّيها ويوقظها، أقرّرُ الانسحابَ تفاديًا للفضيحة.. أضمُّ نفسي بيديّ، مرتجفةً مطأطأةَ الرأس، أحاولُ أن أدفّئني.. ثمّ أعودُ وألجمُ نفسي بسرعة، رافعةً رأسي عاليًا بشموخٍ يرفضُ الانكسار، يرفضُ استدرار الشفقةِ من أحد، كائنًا من كان.. يرفضُ أصلاً أن يطلعَ أحدًا على سرّه كي لا يشغلَ في البدايةِ والنهايةِ دور الضحيّة..

أؤثِرُ النومَ باكرًا هذه الليلة، أو أدّعي أنّني سأنام، وأحاولُ تصديقَ نفسي وإقناعها في الآن عينه بأنّها حقًّا ستغمضُ جفنها وتنام.. أسخرُ من نفسي ومنّي، من حمقها وحمقي، من كبريائها العاجيِّ الزائف وكبريائيَ المُعوجِّ المزيّف.. البطّانيّة لا تكفي لابتلاع الرجفة، ألتحفُ بيديّ، وجسدي النحيلُ لا يزالُ يرتجف.. لم تعد يداي تدفئانني مثل الأوّل، الأوّلُ دائمًا أجمل.. الدفء يرتعُ فقط في البدايات.. أحاولُ النومَ رغمَ كلِّ شيء، لعلَّ غدًا يكونُ يومًا آخر، أو سهمًا آخر،.. من يدري؟!...

أغفو، وفي صدري صوتُ قصيدة، لا تهدأُ ولا تغفو...

في العراء

في الجزءِ الأبعدِ من الثانية، في زاويةٍ قاحلةٍ من زوايا المخيّم، المنبوذِ وسط بقعةٍ مهجورةٍ من خواء، يرتعُ الأطفالُ، ويحلمون، ويلعبون – أو هكذا يُهيّأُ لي –.. أراهم يمرحونَ فرحين، وأحاولُ إقناعَ نفسي بما يقنعون أنفسهم به، بأنّ كلّ شيءٍ على ما يُرام، ولا أنجح.. أحاولُ تهيئةَ نفسي هذا الصباح لتكونَ أكثر تفاؤلاً وفاعليّة، أعيدُ ترتيبَ الخارج وتنميقه ليكونَ أكثرَ ملاءمةً لطبيعةِ وظيفتي، ولا أقدر.

داخلي غالبًا يطغى، وتنعكسُ الصورة، وتسائلني النساءُ عن سرّ هذا الحزنِ القابعِ في عينيّ...

فأجيب: "ما فِش حدّ مرتاح، كلّو رايح...".

أسافرُ في نفسي، أكتب.. هذه هي الطريقةُ الوحيدة التي أستطيعُ أن أخفّفَ بها عن نفسي وأنسى، أنّني لن أنسى... الكتابة، ذاك الدواءُ الذي لا يداويني؛ لكنّهُ حتمًا يواسيني. أصادقها،.. على الأقلّ هي مثلي لا تحبُّ أن يواسيها أحد، مع أنّها رغمَ كلّ شيء تواسيني، وتنسيني – مؤقّتًا – أذى الخارج..

وأظلُّ أكتب.. إلى أن يجيئ الليل، وأقابل أمجد من جديد؛ ليكلّمني وأكلّمه، ومن ثمّ أعود إلى خيمتي كي أكتبَ مرّةً أخرى جديدة، ما لا يسعُني التعبيرَ عنهُ بالكلام.. ولا بالأحلام!

قال لي أمجد ذات ليلة: "أنتِ تشبهينها.. إلى حدٍّ بعيد...".

سألتُه: "من؟ غالية؟".

- "ومن غيرها؟..".
- "لأنّني أكتب؟.. لأنّها كانت تكتب؟...".
- "ربّما..".
- "ومن الخارج؟ هل أشبهها؟!...".
- "لا أدري.. ما عدتُ أذكر.. أذكرُ الداخلَ فقط".
- "رحمَها الله.. أما زلتَ تذكرُ شيئًا من كتاباتِها؟".
- "ممم.. أحبُّ هذه:

كم منَ الوقتِ مرْ
كم تخطّينا الضجرْ
كم زرعنا من ربيعٍ
رغمَ عاصفةِ البشرْ
وليالٍ كم سهرْنا
نقتفي أثرَ القمرْ
تارةً نلهو وطورًا
نستريحُ منَ الكَدَرْ...

- "جميلة جدًّا..".
- "هكذا كنّا..".

أبتسم.. وأنظرُ إلى أبعد، ينظرُ إلى القمر كما يفعلُ كلّ مساء؛ فأدركُ السرَّ وأفهم...

أعودُ إلى خيمتي، ككلّ ليلة، ألتحفُ الكتابة؛ لأتدفّأَ شيئًا ما.. بعيدًا عن أثرِ العالم، بعيدًا عن كلِّ أثر.. الصقيعُ يحاصرُني، لا أملكُ إلاّ الكتابةَ عنه...

ابتعد.. لتظلَّ طفلًا

رغمَ كلّ ما أقرؤُهُ في عيونهم، من مأساةٍ وتعب، هؤلاء الأطفال يحملقون ناحيةَ اللاشيء..

يصرّونَ على نسيانِ تعبهم كلّ يومٍ بشكلٍ مبهر، ويوطّنونَ أنفسهم على العيش دونَ أدنى وطن..

دونَ أدنى عيش!.. ينهرُهم الرجال أحيانًا إذا تمادوا في الشقاوةِ والتخريب.. تصرخُ عليهم الأمّهات، كلّما علت أصواتهم؛ فأيقظت طفلاً على وشكِ أن ينام.. يُسمَحُ لهم – على الأقلّ – بالصريخ والتخريب والشقاوة كلّما ابتعدوا أكثر عن بؤرةِ العالم المتبقّية لهم، وكأنّهم وُجدوا ليبتعدوا ويبقوا بعيدين أبدًا!...

"هكذا هي الدنيا يا رهف، نحنُ خُلقنا لكي نبقى بعيدين.. لتبقى أرواحُنا تحلّق ناحيةَ العالم الآخر البعيد.. بعيدًا عن أبعدِ نقطة.. قريبًا من أقربِ بُعد... بُعد الطفولة.. فإن فارقنا هذا البعد متنا".

أسترجعُ كلماتك أمّاه في كلّ آنٍ وحين.. أنا لم أتخلَّ يومًا عن بعديَ الراحل، أنا لم أخنكِ ولم أحنث يومًا بوعدي،.. لكنّ البعدَ المنشود هو دائمُ الترحال والتخلّي، دائمُ الجفاءِ والهجر.. هو دائمًا يتقنُ التسلّل من بين جنباتنا والانسحاب بكلّ خفّةٍ وبدون أدنى ثقَل، بحيث أنّي لا أحسّ بأدنى ثقله إلاّ حين يكون قد غادر وابتعد على

الأقلّ، أو سقط مغشيًّا عليه، محدثًا دويًّا هائلاً.. أو حين يكونُ قد مات، بصمتٍ مفعم، كبركان.

من أين لي بهذه القوّة السحريّة، بهذه القدرة على التنبّؤ بالأجسام الساقطة من اللاشيء، وكيف لي أن أتحمّل الأثقال الطائرة التي تسير دومًا بعكسِ الجاذبيّة وتحلّقُ بلا جاذبيّة، ولا تسقط إلاّ حين تكون قد انجذبت نحو موتها؟... أجيبيني.. ليتكِ تستطيعين...

سأحميكُ.. أحرسُكُ يا أمّاه هذا اليومَ كنزةً صوفيّة لكلّ طفلٍ من هؤلاء الأطفال البعيدين – من أولئكَ، علّها تلائمهم أكثر –..

سأشعلُ قلبي وأغدو حطبًا، سيشعلني قلبي كي يدفّئهم. سأكون شتاءهم الدافئ الحنون، والركن القريب البعيد الذي يأوون إليه كلّما ابتعدوا أكثر، أو كلّما فُرض عليهم أن يبتعدوا...

سأكون الجدار العازلَ، السدَّ المنيع الذي يمنع طفولتهم من الهرب والتحليق، وأحلامهم من التساقط والارتطام.. سأكون اليدين اللتين تلتقطان كلّ الأحلام، واحدًا واحدًا.. سأسيرُ بعكس الجاذبيّة؛ لأعيدَها بحذَر وأتلقّفها بحنان قبل أن تسقط وتتكسّر..

آه يا أمّاه، لو كانَ باستطاعتي فعلُ ذلك، لو كان بإمكاني فقط!...

كلُّ ما بوسعي فعله الآن، هو الخلود إلى الكتابة، إلى غيابي الاختياريِّ المؤقّت.. عالمي غير الصالحِ للسكن، الذي أسكنُ فيه ويسكنني رغمَ كلّ شيء؛ ليزيحَ عنّي غربتي، حتّى إشعارٍ آخر...

أمسكُ القلمَ الرفيق، أسكبُ حبريَ السحريّ، وأغيبُ في دنيا الكتابة..

الشهرُ الثالث

هذه الليلةُ موحشة، لا جديدَ في الأمر، ما خلا أثقالاً من الهموم المتقاطعة تتسرّبُ إلى قلبي المتهالك.. أشعرُ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الفضفضة على غير اعتياد.. أعزُ هذا إلى حالتي الهورمونيّةِ المتقلّبة بسبب حملي المخبوء الذي لم يُظهر نفسه بعد.. يخفي نفسه بنفسه، وهو الذي يحبُّ أن يفضحَ نفسه.

تُسائلُني النساءُ عن سرِّ هذا النحولِ الزائد، وعن سبب امتناعي عن مشاركتهنّ في تناول الأطباق المتواضعة التي يعدّونها، وأنا التي كنتُ في البداية أساعدهنّ في إعدادها..

وأجيب: "لكلّ بدايةٍ نهاية..".

تخالُ بعضهنّ أنّي صرتُ أقرف، وتعزُ أخرياتٌ سبب انقطاع شهيّتي وتناقص همّتي إلى كثرة ما رأيتُ وسمعتُ من قصص الأطفال ومآسيهم؛ فهشاشتي وخبرتي المعدومة – حسب قولهم – بأجواء الحروب ونكباتها ومراراتها لا تتحمّلان كلّ هذه الأحمال والأثقال. فأنا في نظرهم من عالمٍ آخر، عالم المنعّمين الآمنين المطمئنّين، الذين يوزّعون المواساة على الناس ولا يحتاجون لمن يواسيهم،.. ولِمَ يحتاجون المواساة أصلاً؟!..

تقتربُ منّي إحدى النساء، لا تشبهُ الأخريات.. تصرُّ على إطعامي بيديها، وأنا التي يصيبني الغثيان لمجرّد التفكير بالطعام، حتّى

قبل رؤيته أو تذوّقه وشمّه.. أحاولُ أن أجاملها، وأتناولُ اللقمة على مضض، فهي من النساء الحنونات الكبيرات في السنّ الصغيرات بالروح، اللواتي يوزّعن الحنان مجّانًا على فاقديه والمحتاجين إليه،.. وحتّى على غير المحتاجين، وأنا بالطبع في عرف الجميع هنا من هؤلاء الأخيرين...

ألتقم اللقمةَ الوحيدة، ثمّ أحملُ بعضي وألجأُ إلى خيمتي الصغيرةِ المنزوية، وأفرغُ ما بإمكانِ معدتي الصغيرةِ الخاويةِ أن تفرغهُ من صفارٍ ومرارة داخلَ أكياسٍ بلاستيكيّة، أكون قد اجتهدتُ في جمعها على مدارِ اليوم من هنا وهناك، من بين مخلّفات العوائل ونفاياتهم التي تدورُ ولا تُدوَّر.

جوفي يفرغُ من الطعام، وتفرغُ معه الكثير من الآمال والأماني والأحلام.. أشعرُ بالضعفِ الشديد.. باللَّهِ عليّ، ماذا أفعلُ هنا؟.. لعلّي بالغتُ في تقدير قَدرِ قدرتي، رحمَ الله امرءًا عرف قدر قدرته، فرحمها!..

أنتشلُ قلمي والورق؛ لأخطَّ نهايةَ هذا اليوم...

ألمُ الأمل

قلتُ لك يا أحمد: "لن أستطيع أن أكملَ الطريق، لن أستطيع أن أخفي عنكَ وعنّي وعن الحياة بأسرها بأنّي قد فقدتُ الحياة.. بأنّي قد كبرتُ وانتهيت.. بأنّي تجاوزتُ كلّ خطوط الأملِ الحمراء وتخطّيتُها، وأضعتُها خلفَ دائرة الأحلام.. سقطت منّي خلفَ الدائرة ولن تعودَ مهما حاولت، مهما حاولنا معًا، ومهما وعدتني وأكّدتَ لي..".

قلتَ لي: "إنّها ما زالت تدورُ يا رهف، إنّها مجرّدُ دائرة وليست بئرًا.. حتّى البئرُ قد يرجعُ لنا ما سقط فيه أحيانًا، تذكّري يوسف.. فما بالُكِ بدائرةٍ مستويةٍ لا عمقَ لها، أبعادها شبهُ معدودة، أبعادُها ليست تُذكر".

- "بل إنّها الثقبُ الأسود الذي يبتلعُ كلّ الأحلام التي تسكنُ فيه ويمضغها بوحشيّة.. يمزّقها، ثمّ يطردها بعد ذلك إلى الخارج ميتة، أو يحيلُها إلى كابوس".
- "أنتِ أوسعُ من دائرةٍ وأعمق من كرة.. لا تتقيّدي بالأشكال.. كوّني أنتِ الكونَ الملائم وشكّلي الشكل الأنسب الذي تختارينه ليضمّ أحلامكِ ويحتويها.. كوني أنتِ القطرَ والشعاع، كوني المماس الذي لا يخافُ أن يمسّ الانعتاق؛ كي لا ينعتق.. تخلّصي من خوفك من الخوف

ذاته.. انعتقي من كلّ احتواء، كوني أنتِ الطفولةَ الدائمة والحلمَ الواسع..".

- "ما حدودي؟".
- "لا حدودَ لكِ.. حدّكِ هو حدُّ حلمكِ"..

هكذا قلتَ لي، قبلَ أن تودّعني وتغيب.. قبل أن تغادر أرض الاحتواء وتنعتق من الحياة بأسرها.. قبلَ أن أجرّبَ حتّى تطبيقَ نظريّتكَ الفلسفيّة الفاضلة تلك، بعدَ أن صدّقتُها - نسبيًّا - وقبلتُ تجريبها على مضض.. لم تسمح لي حتّى بتأجيل شكوكي.. أكّدتَها.. جعلتَها قانونًا ثابتًا غير نسبيٍّ، لا رجعةَ فيهِ ولا خطأ! قلتَ لي إنّ الدائرة ستُرجعُ الأحلام دون أدنى شكّ.. لماذا لم تُرجعك إذًا؟ لماذا لم تعد يا أحمد؟... بقدرِ ما رمّمني وجودُك حطّمني غيابكَ أكثر..

آلمني غيابكَ، وما آلمني أكثر أنّكَ غبتَ قبلَ أن تحقّق حلمك الأكبر، بتربيةِ طفلٍ سعيد، مفعمٍ بالطفولةِ والأحلام؛ ليحملَ الأمانة ويورثها لأبنائه ولكلِّ الأطفال بعده؛ ليدوّرَ الحلم!...

ثلاثةُ أسابيع من الفرحةِ فقط كانت كافيةً للقضاءِ على حلمِك.. طالَ وقتُ الفرحةِ يا أحمد، استنفذتَ كلّ ما بوسعكَ من فرح، كلّ ما بإمكانكَ أن تحظى به وأقصى ما يمكنك نيلُه، أو اختلاقُه كما كنتَ تحبّ أن تفعلَ دومًا... كنتَ مليئًا بالتفاؤل والتحدّي والطموح.. كنتَ تحاربَ كي نعيش، كي أعيش، كي تعيش كلّ الأشياء بك ومعك وحولك.. إلاّ أنّك لم تعِ يومًا أنّ بإمكانِ كلِّ شيءٍ أن يغادرَ فجأةً وبسرعة، أن يسقطَ فجأةً على رأسك، آتيًا من

كلِّ الاتّجاهات، متسلّلاً ببراعةٍ وبخفّة؛ ليميتَ حلمي وحلمك والطفولة.. ليكونَ هو القاتلَ والقتيل..

لن أجادلكَ أكثر، لن أوسّع الدائرة ولن أقلّصها بعد اليوم.. سأكونُ أنا الدائرة، كما اقترحت عليّ؛ لأتقمّصَ كلّ الأبعاد.. لأريكَ فقط كم هيَ مريرةٌ وغادرةٌ هذه الأحلام، إلى الحدّ الذي توسّعنا فيه إلى أبعد مدى قبل أن تخنقنا بيدينا...

أيّها الراحلُ قبلَ أن تقولَ وداعًا، قبلَ أن تثبتَ نفسك، قبلَ أن تعيدَ العمقَ والمعاني والأحلامَ للطفولةِ والحياة.. حياتُكَ لم تعد تحويك، قذفتكَ خارج الدائرة؛ فأينَ أنتَ من التشكّلِ والعمق؟...

سأصيرُ أمًّا!

لم أكن أدري بأنّي سأحملُكَ داخلي في مثلِ هذه السرعة.. بأنّي سأحتضنكَ بغير أدنى رغبةٍ منّي في احتضانِ أيّ شيءٍ يمتُّ لهذه الحياة بأيّ صلة.. كنتُ أنوي الاعتزال.. لكنّ والدكَ أصرّ وألحّ على إعادتي إليها بكلِّ شدّة.. أصرّ على تدويري معه، جاعلاً منّي دائرةً تدورُ وحدها، تتدحرجُ دون أيّ توقّف، ودون أن تدري أين ستقف بعد ذلك وبأيّ شيءٍ سترتطم..

لم أعد أتحكّم بدوران نفسي يا بنيّ، هل يزعجكَ دوراني؟ ألا تحسّ بكلّ هذه الاهتزازات والتقلّبات التي تقلّبني/أقلّبها.. لم أعد أدري أيّنا يقلّبُ الآخر.. جلّ ما أعيه هو أنّي أريد أن أخرجكَ بسرعةٍ من هذه الدائرةِ المجنونة، التي ستقضي على كلّ شيء يعترضها، أو يمسّها فقط؛ فكيف بمن يقبعُ داخلها آكلاً من طعامها وشاربًا من مائها المرير؟... أودُّ لو أنّي أقذفها بعيدًا عن دائرة الحياة والأحلامِ على حدٍّ سواء،.. فكلاهما صار سيان عندي.

لّما علمتُ بأنّك صرتَ حقيقةً، بكيتُ كثيرًا.. لأنّي سأكون السببَ في معاناتكَ وآلامك اللامحدودة.. لأنّي لم أرد لكَ أن تكون مثلي، أن تصيرَ ظلًّا مائلاً لا ماءَ فيهِ ولا حياة، في حياةٍ لا تشبهُ معنى الحياة ولا تحويها.. فكيفَ تحتويك؟ وأنتَ الأبيضُ الدائم...

ماذا تخبّئُ ليَ الأيّام، ماذا تخبّئ لنا معًا يا صغيري/صغيرتي، وأنا التي ما زلتُ حتّى هذه اللحظة غير قادرةٍ على ابتلاع فكرةِ الأمومة.. على تقبّلِ فكرة كوني سأصيرُ أمًّا لطفلٍ قبلَ أن أعيش طفولتي أنا، قبلَ أن أنقذَ ما تبقّى من حلمي وأحلام الآخرين المتعبين. أكان ينقصني المزيد من الأحمال والأثقالِ المتخفّية لأيأس أكثر ولأستسلم عن جدارة؟

ماذا تخبّئ لنا الأيّام؟ الأحلام؟!! ما عدتُ أؤمنُ بها.. فقد تبخّر الحلمُ الأخير مع رحيل أبيك.. تبخّرَ الحلمُ الأخير، وأنساني حلميَ الأوّلَ الأكبر/الأقصر.. فاتَ الأوان، فكيف أقنعكَ قبلَ أن أقنعني بجدوى الحلمِ وروعةِ الطفولة؟...

لا تسرع في المجيئ، لا تتسرّع.. خذ وقتك وتفكّر جيّدًا علّك تعي ما أعنيه،.. علّكَ تفهم أنّكَ لن تفهمَ شيئًا أبدًا حين تكونُ قد جئتَ وفاتَ الأوان...

ماذا أقولُ لكَ حين تجيئ؟ ماذا أخبرك؟.. أأخبرُكَ سرًّا، لطالما أخفيتُهُ عن أقربِ الأقربين إليّ؟

أنا لم أكن أؤمنُ بالحلمِ يومًا، أو ربّما لم أعد أذكر، ولعلّي لا أريد.. لا أريدُ أن أذكر بأنّي كنتُ أؤمنُ به يومًا أو أتوقُ إليه.. جلّ ما أذكره هو أنّي لم أكن أثقُ به.. كنتُ دومًا أزدريه.. لم أكن أصدّقُ فاعليّته، وكنتُ أستثقلُ ممارستهُ وأمقتُ الخضوع له.. وماذا يعني أن تخضعَ يا بنيَّ لحلمٍ لن يتحقّق؟ أن تصيرَ عبدًا لهُ وتجنّد له كلّ آمالكَ وآلامك؛ لتراهُ في النهايةِ يتجسّدُ مختالاً أمام عينيك، ثمّ يمضي بخفّةٍ وبغير ثقل، ويتركَكَ وحدك مثقلاً بالجراح، تقتلُ

نفسكَ بيديكَ لكي تجعله يصيرُ، ولا يصير!..

أخشى عليكَ يا صغيري، أخشى عليكَ من الحياة، ومنّي.. لستُ على ما يُرام؛ كي أحميكَ وأحتضنك.. أحتاجُ لمن يحضنني وأرفض الأحضان.. أرفضُ الحاجةَ نفسها.. وبرغمِ توقي للحنانِ وللعاطفة، أرفضُ الإعلان أو الرضوخ، ظاهريًّا، ظاهريًّا فحسب.. ليس لقوّتي، بل لشدّة ضعفي، وهزالي.. ليس هزاليَ الخارجيّ، بل الداخليِّ.. فأنا هزيلةٌ من الداخلِ حدّ التخمة.. وبرغمِ كلّ الصلابةِ التي أبديها للجموعِ وللأفراد، القريبين والبعيدين على حدٍّ سواء، أذوبُ من الداخلِ كما تذوبُ الشمعةُ في صمتٍ ونار.. أسيلُ وحدي من الداخل، وبداخلي أخفي اللهيب.. أبقى أسيلُ ولا دخان، حتّى الدخان غدا رمادًا موغلاً في جوفي الصامتِ المشتعل..

ماذا أقولُ لك، ولماذا أقول؟.. آه يا صغيري.. أتعبتكَ قبلَ أن تتعب.. قبل أن تأتي لتلعب..

وتفاجأ في النهايةِ أنّكَ أنتَ وحدكَ كنتَ اللعبةَ ولا شيء غيرك.. وآحادًا وعشراتٍ ومئاتٍ وألوفًا وملايين من الأطفالِ غيرك... وستفقدُ الرقم بعدَ أن تملَّ العدَّ واللعبَ على السواء...

يا بنيّ، يا من سكنتَ داخلي رغمًا عنّي، أخشى عليكَ من اللهيب.. أخشى عليك الاحتراق بما أحويه... ابتعد قبلَ أن تتأذّى.. سافر قبلَ أن تصبحَ منفيًّا أو مقتولاً.. اهرب قبلَ أن يهجرَكَ الهرب،.. قبلَ أن تصير أنتَ وأحلامكَ لعبة... قلتُها يومًا لنفسي، وظللتُ أقولُها، وها أنا أقولُها لكَ اليومَ قبلَ أن تأتي وتندم: "مجرّدَ ألعابٍ نحنُ في هذه الدنيا، مجرّد ألعاب"... فسامحني..

موتي الأخير

أصرّ أحمد عليّ أن أعودَ من الغياب.. ألحّ عليّ بالرجوعِ إلى الحياةِ بأقصى سرعة، لنكونَ معًا..

- "هكذا، وبهذه السهولة؟ وبكلِّ هذه السرعة؟".
- "وما المانعُ في ذلك؟ أنتِ من تضعين القياسات كلّها في هذه الحياة.. كلُّ القوانين تخضعُ لكِ ولكِ سُخّرت.. أليست السرعة هي معدّلُ تغيّرِ المسافة بالنسبةِ للزمن؟".
- "هاه..!" أقولُها مشدوهةً فاتحةً فمي على مصراعيه..
- "لماذا تستغربين؟ هذا تعريفُ السرعة في عرفِ الفيزياء..".
- "لا تكلّمني بالرموز وتضيّعني.. أنا أصلاً أكرهُ الفيزياء".
- "لستُ أبغي تضليلك ولا زجّكِ في متاهة.. جلّ ما أعنيه هو أن تتخطّي الزمن لتصبح سرعتكِ في الفراغ، وتوازي بذلكَ على الأقلّ أعلى سرعةٍ في الكون، واقعيًّا على الأقلّ.. كي لا أقول لكِ أن تتخطّي الفراغ نفسهُ والسرعةَ بحدّ ذاتها وتصبحي أنتِ المسافة والأبعاد والفراغ والسرعة.. أعرفُ أنّكِ ستقتلينني لو قلتُها.. هههه..".
- "ليتكَ قلتها، على الأقلّ كنتُ فهمتُ شيئًا ممّا تعنيه!..".
- "دعكِ من هذا كلّه، أنتِ لن تفهمي عليّ إلاّ إذا تحدّثتُ إليكِ بلغة الشعر والضباب، وأنا لا أتقنُ القيادةَ أو فعلَ أيّ

شيءٍ في الضباب.. هذه الحياة تحتاجُ منّا لرؤيةِ الإشـــارات الماديّةً، وهذه الإشاراتُ لا تُرى إلاّ في جوٍّ صافٍ خالٍ من السحاب والعتمة.. اتبعي الإشارات وحسب".

- "عن أيّ إشاراتٍ تتكلّم؟ وأيّ صفاء وأيّ عتمةٍ تتحـــدّثُ عنها؟ أنا لا أرى العتمةَ والضبابَ إلاّ في رموزكَ وأرقامـــكَ الجامدةِ القاسيةِ تلك التي أرهقتني.. ملأتَني بالسببيّةِ دون أن أرى أيّ سببٍ يستدعي ذلك.. دعني للهروب، للتحليق.. دعني للغياب ودعكَ منّي.. أنا لا أناسبك".
- "تزوّجيني.."، قلتَها لي للمرّة العاشرة، وربّما أكثر.. ودائمًا كنتُ أقول لك: "أتمنّى أن تجد الفتاة المناسبة التي تســـعدك وتستحقّك، أنتَ تستحقّ الأفضل..".

كنتَ تأبى الرضوخ، تأبى الانصياع... وبرغمِ رفضي للكلام مع الرجال أو التعاطي معهم، ليس بسبب التزامي؛ فلم أكن في حينها قد وطأتُ أرض الالتزام وحلّقتُ بعد.. لكنّي هكـــذا كنـــت، هكـــذا تربّيت، وحيدةً دونما رفيق، نشأتُ مع أمّي ومعها فقط ترعرعـــت.. أبـــي، ذاك الراحلُ المغدور، المساق عنوةً إلى نهايةٍ مأساويّة، كانـــت أشدُّ آلامهِ فيها أن يموت بعنفٍ أمام ناظر طفلةٍ تعلّق قلبها به؛ فسحبَ قلبها المسحول وراءه.. وزوجة أحبّها حدّ تخطّـــي حـــدود الحلـــم؛ فكانت الضريبةُ أن دفع الثمن عمره وشبابه ثمنًا للسعادةِ الزائدةِ والحلمِ الفائض الذي تخطّى حدوده المسموح بها...

وبقيتَ هكذا تصرُّ وتصرّ، منذ اليوم الأوّل الذي رأيتني فيـــه، مزدانةً تحت الركام – كما كنتَ تقول – مبتلعةً دمعاتي وآلامـــي وأوجاعي... سحبتني من تحتِ الركام، انتشلتني لتعيدني إلى الحيـــاة

الممزّقةِ التي كنتُ أرفض العودةَ إليها بشدّة.. انتشلتني وانتشلتَ أمّي؛ لكنّها كانت قد ألقت الورقةَ الأخيرة التي اهترأت في يديها بعد أن لفظها قلبها، لفظها بعدَ أن غادرَ أبي.. في الخارجِ تعرّضت ورقتها للهواء الملوّث والعوامل غير الطبيعيّة حتّى صارت بلا عنوان ولا كلمات، صارت ورقةً فارغة، لم تعد ورقةً حتّى.. أشلاء، شبهُ أشلاء، انتُزعَ الحبرُ منها بلا رحمة... جُرف الحبرُ وصار دمًا في جسدِ أمّي.. عادَ إليها واندمجَ فيها وهي ميتة، عادَ إليها ليأخذها معه ويغادرا معًا أرضَ الحياةِ المائلة التي حطّمت كلّ شيء...

- "من أنت؟"، سألتكَ حين استيقظتُ في غرفة العنايةِ المركّزة.. "أين أمّي؟".
- "ألا تذكرينني يا رهف؟ أم أنّكِ نسيتِ هذا الوجهَ بسرعة؟.. زعّلتيني منّك". قلتَ مازحًا، محاولاً أن تخفّفَ عنّي.. لكنّني لم أبتسم أو أبادلك المزاح، لم يكن ذلكَ واردًا أصلاً...

مرتبكًا، عابقَ اللون، عقّبتَ بسرعة؛ لتخفي إحراجكَ وموقفكَ الصعب الذي لا تُحسَدُ عليه:

- "أنا أحمد، أعملُ في الدفاعِ المدنيّ، وأنا المحظوظ الذي انتشلكِ من تحتِ الأنقاض وأعاد الزهرةَ الفوّاحةَ إلى إناءِ الحياةِ الجميلة لتتفتّحَ وتنمو من جديد.. ولتزهر الحياةُ بوجودها".
- "هه.." أبتسمُ شبه ابتسامةٍ ساخرة، وأكرّر السؤال: "أين أمّي؟".

- "موجودة، لكنّها حاليًّا في غرفةِ العمليّات.. لكن اطمئنّـــي، كلّ شيءٍ سيكونُ على ما يرام، أعدكِ بذلك".

أنظرُ إليكَ ونظراتُ الشكّ في عيوني تكاد تقفزُ عليـــكَ قفـــزًا وتشدّكَ من سترتكَ الإنقاذيّة اللعينةِ تلك التي أعادتني لمأساتي..

- "أين أمّي؟". أكرّرُ السؤال وصوتي قد غدا أعمق، وأنا أمنعُ الحشرجةَ في صوتي من الغليانِ والفوران، وحبالي الصوتيّة في حنجرتي تكادُ تتقطّع.. أحاولُ أن أرمّمها لتصمدَ ولا تفرطَ أمامكَ.. أمامَ أيٍّ كان..
- "والله العظيم إمّك عايشة"..

أصمت،.. أهدأ قليلاً.. أطمئنُّ، على مضض، فقد كان حدسي ينبئني بأن أمّي ليست على ما يرام، لطالما كان حدسي يصدق.. لطالما كان ينبئني بالأشياء قبلَ أن تحدثَ حتّى.. حتّى يوم موتِ أبـــي كان حدسي ينبئني، وكنتُ أتهرّبُ منه وأحاولُ أن أكذّبَه.. لكنّه كـــان لا يلبثُ أن يعودَ ويؤكّد لي كلّ شيء.. بعدَ أن يكونَ قد غادرَ آخـــذًا معهُ كلّ شيءٍ، كلّ شيء...

- "هلَ أستطيعُ أن أراها؟" أقولها لكَ بهدوءٍ ادّعائيٍّ تامّ، يغلّفُ اشتعاليَ الداخليّ الهائج.
- "بالطبع تستطيعين.. لكن حين يحينُ الوقتُ، صدّقيني، أنـــا من سيصطحبكِ إليها شخصيًّا".
- "متى يحينُ الوقت؟".
- "حين تخرجُ من غرفةِ العمليّات وتستيقظُ من أثرِ البنج".
- "لماذا تساعدني؟".

مرتبكًا: "امم.. لأنّها وظيفتي..".

- "هل ترافقُ كلّ المصابين عادةً إلى المستشفى وتبقى برفقتهم؟".

تصمت.. تفكّرُ قليلاً، ثمّ تقول:

- "ممم.. بصراحة؟ ليس دائمًا...".

أصمت.. حدسي ينبئني بأنّك كنتَ تخطّطُ لأمرٍ ما أبعدَ من حدودِ وظيفتكَ الإسعافيّة.. كنتُ أشعرُ من نظراتكَ أنّكَ تودّ اقتحامَ مكنوناتي، مع أنّي لم أكن أجرؤ حتّى على التطلّع إلى عينيك،.. عينيك الذابلتين اللتين كانتا تحدّقان بي بكلّ رقّة، بكلّ حنانٍ، وأنتَ جالسٌ على الكرسيّ الأقربِ من سريري، البعيدِ رغمَ ذلك. أحسستُ بهما على الرغمِ من ذلك، تحاصرانني.. وقبلَ أن أسترقَ النظرَ إليك، شعرتُ بما تفكّر فيه وتحسّه، لطالما أتقنتُ ذلك، حدسي لطالما أنبأني، وأتعبني...

بعد قليل، تقتحمُ الممرّضةُ الغرفةَ مشدوهةً مرتعبة، وهي تحاولُ أن تخفي ذلكَ عنّي، غير أنّ عينيها تخونانها..

- "رهف،.. أمّكِ تريدُ أن تراكِ...".

لا أتكلّم، لا أنتظر، لا أنظر حتّى،.. أقفزُ من السرير بسرعةٍ كالبرق، وربّما أسرع.. ينسحبُ شريطُ المصلِ خلفي، ويقع العمودُ الحديديُّ محدثًا دويًّا هائلاً على الرغمِ من قلّةِ حجمهِ وهزاله.. أقتلعُ الإبرةَ المغروسةَ في وريدي عنوةً فتنفتحُ النافورة ويملأ الدم المكان.. تحاولُ الممرّضةُ أن تهدّئني، أن توقف الدم، أن تضع لصقةً على الأقلّ على مكان الثقب، على منبع الدم.. تحاولُ أنتَ تهدئتي، تمسك بي لكي تثبّتني بالقوّة لكنّني كنتُ أقوى منك في حينها، في حينها فقط، واستطعتُ الإفلات..

"منبعُ الدم ليس هنا.. جُرحي ليس هنا، الجرح هنا في الداخل، غائرٌ حدَّ الغياب"، أقولُ لنفسي فيما أنا أركضُ والممرّضةُ تركضُ خلفي وتشيرُ إلى غرفةِ العمليّات، حيثُ تقبعُ أمّي، وأنت تركض إلى جواري وتحاولُ أن تكلّمني ولا آبه،.. تحاولُ أن تواسيني ولا آبه...

دمي يسيل، لا آبهُ للأمر.. كلّي يسيل، من الداخل قبلَ الخارج... أصلُ إليها، أفتحُ بابَ الغرفة ولا أدري كيفُ أصيرُ بسرعةٍ بين يديها.. أحتضنها، ممتلئةً بالتراب، وما تبقّى من ركام الألمِ يغشيّها.. تنتفض أمامي بقوّة، ثمّ تنطَقُ كلماتها الأخيرة، كلماتها المؤلمة تلك.. تنتفض ثانيةً، ثمّ تصمتُ إلى الأبد...

يتوقّفُ النبض، يتوقّف كلّ شيءٍ بعدها.. الحياةُ تلفظُ أنفاسها الأخيرة عندي، في حضني وبينَ يديّ النازفتين... قلبي ينزف والصمتُ يبتلعُ الكلمات، أريدُ أن أصرخَ ولا أقدر.. صوتي يختنقُ بحنجرتي.. روحي تُنتزَعُ على مهل.. ترى، أيٌّ منّا هو الميت؟ أيٌّ منّا هو الراحلُ بلا عودة، أنتِ أم أنا.. أم كلانا؟...

ها قد رحلتِ يا أمّاهُ وأُقفلت كلّ المنافذ نحو الضفّة الأخرى، سُدّت بحزم.. أُغلقت في وجهي كلّ الأبواب دفعةً واحدة ولم يتبقّ لي شيء.. لمن تتركينني؟ لغياهب القهر وعجز الروحِ عن النسيان؟ ليتكِ أخذتني معك.. لعلّي لن أتأخّر باللحاق بكِ.. انتظريني، أنا لا أطيقُ البقاء في أرضِ الغياب والموت بعدكِ...

عودةٌ مؤقّتة

تصفعُني الأيّامُ كلّ يومٍ بموتٍ جديد، بنهايةٍ تسرقُ البدايات المشرقة.. أقطنُ في غابةٍ مظلمةٍ، في سجنٍ ضيّقٍ/صندوقٍ اسمهُ الدنيا.. أحاولُ التملّص ولا أقدر.. سأحبسُ نفسي في قمقم العزلةِ وأرفضُ رؤية الناس والأشياء.. صديقتي الكتابة، وحدها من ستدخلُ قمقمي وتؤازرني فيه..

يضيقُ القمقم علينا معًا؛ فكيف بدخيلٍ ثالث؟.. "لن تدخلَه يا أحمد".. كرّرتُها عشرات المرّات؛ لكنّكَ لم تسمع أو تفهم..

- "اجتازي القمقم ولو لمرّة، اعتادي العيش بلا يأس، ستحبّين الدنيا أكثر.. في الخارجِ أحلامٌ تسرح، هيّا نلتقط الأحلام ونضاعفها بالأرقام".
- "لا تقدرُ دنيا الأحلام أن تختلطَ مع الأرقام.. الأرقامُ تكسّرُ حلمي".
- "زيدي الحلمَ ولا تنقصيه.. إن تئديه، تفقديه".
- "الزائد أخو الناقص..".
- "تفتقدين الإيجابيّة.. لماذا لا ترين الموجب؟ نصف الكوبِ الممتلئ؟".
- "عن أيّ كوبٍ تتحدّث؟ أنا لا أرى الكوبَ أصلاً.. هههه. الكوب تكسّرَ من زمن، وبقاياهُ غدت شظايا تجرحُ فيّ

وتحفرُ أكثر...".

- "إذًا سأكون أنا المنقذ الذي سينتشلها من أماكن انغراسها، سأنتشلُها برفقٍ تمامًا كما انتشلتُكِ سابقًا من تحتِ الركـــام؛ لتنتشليني إلى دنيا الأحلام والسعادة".
- "ههه عن أيٍّ أحلامٍ وأيّ سعادةٍ تتحدّث.. أنت تهذي".
- "لن أتركَكِ مهما جرى.. لن أدعكِ تستسلمين وتـــتخلّين عن الحلم.. لا بدّ أن ترجعيه".
- "وأنت؟.. هل أرجعته؟".
- "ما هو؟".
- "حلمكَ؟".
- ".. حلمي؟.. ممم، أظنّ ذلك.. أحاولُ قدر اســـتطاعتي.. على الأقلّ أحاول...".
- "ما هو حلمك؟".
- "امممم..."، تصمت وتفكّر..

أقاطعك:

- "تحاولُ أن تعيدَ الحلمَ ولا تدري ما فيه؟..".
- "يكفي أنّني سأظلُّ أحلم.. أحلم بالحلم.. لأظلَّ حيًّا...".
- "متمسّكٌ أنتَ بهذه الدنيا حدَّ الترف".
- "بل أنتِ المنفصلةُ عنها إلى حدِّ الانتحار!..".

صمتُّ في حينها.. لم أشأ أن أردّ عليك.. أن أخـــبركَ بأنّـــك صادق، بأنّي فعلاً قد شارفتُ على مرحلةِ الانتحار، أنّني بتُّ حتمًـــا واقعةً فيها.. ومع أنّي جدًّا جبانة، ولا أجرؤ على الإقدام على الخطوةِ الممقوتةِ، ماديًّا على الأقلّ، إلاّ أنّني أقدم عليها نفسيًّا وروحيًّا بكـــلّ

قواي المنهكة،.. وبكلِّ إصراري المتزعزع... أذبحُ نفسي بنفسي، وأردّد دائمًا: "لا فرق، كلّو رايح"..

"كلّو رايح"، لطالما قلتُها لك..

قلتَ لي: "كلّو جايي".

قلتُ: "كلّ إشي بيجي بيروح".

ورددتَ حينها مازحًا: "فإذًا بنلحقو وبنجيبو.. هههههه".

لم تستطع أن تلحق به، كنتَ أنت، أنت الذي ذهبت، فكيف تلحقُ اليومَ بنفسكَ التي رحلت وتركتني فوقَ صخرةِ الوهم؛ لأرمي نفسي من فوقِ علوّها الشاهق، وأحتضنَ الشظايا التي لم تلحق أن تقتلعها بنفسك، بل زدتَها غرقًا وغوصًا في مكامنِ الوجع.. زدتني وجعًا يا أحمد...

تقبّلتُ غيابك، ليس لأنّهُ كان شيئًا عاديًّا أو بسيطا، بل لأنّهُ كان الورقةَ الأخيرة التي أكّدت لي شكوكي كلّها، وصدّقت حدسي.. قلتُ لك، حدسي دائمًا يصدق.. حدسي دائمًا على حقّ؛ لكنّكَ لم تصدّقني، لم تشأ أن تصدّقني...

لا أعلمُ كيف حدث كلّ هذا، كيف عدتُ من الغياب لأجلك؟ كيف استطعتَ أن تعيدني دون أن أقتنع؟!.. كلُّ شيءٍ فيكَ كان يزهو بالحياةِ ويناديها، يتشبّثُ بها بكلِّ قواه.. كلّ شيءٍ فيك كان يفلتُ من جمجمةِ اليأس ويجاهدُ كي لا يقع فيها ويغرق.. لكنّكَ كنتَ تقاتلُ وحدك، بقواكَ الذاتيّةِ الخارقة – حسبما سمّيتها – وبقدراتكَ اللانهائيّة – حسب قولك – في عالمٍ لا يملكُ الإنسانُ فيه أيّ قوّةٍ وأيّ قدرةٍ على الإطلاق، إلاّ إن تعلّق بالمصدر الأكمل الذي لا ينضب.. لكنّكَ كنت المصدر الأوحد المتفرّد لنفسك، وكنتَ تثقُ

بكمالها، بكمالها وحدها دون الحاجة لأيٍّ كان، ولهذا سقطت، دون أن تلحظَك نفسك ودونَ أن تلحظها؛ لأنّها كانت منهمكةً في تدبيرِ أمورك والأخذ بالأسبابِ ليس إلاّ، ولأنّكَ كنتَ منهمكًا في تصديقها وتقديمِ الولاءِ لها.

موتي ما بعدَ الأخير

هكذا وبعدَ طولِ عنادٍ – كما سمّيتَهُ – وافقت، وقبلتُ الــزواج بك، وخرجتُ من القمقم – على مضض – وكلّي شعورٌ بأنّي لــن أطيلَ عنهُ الغياب، وبأنّي عائدةٌ قريبًا، لذلك لم أقل الوداع، وقلتُ له:

"إلى اللقاء يا قمقم، أراكَ في غدنا القريب، غدًا سيكونُ يومًــا آخر بالتأكيد، أمرّ من أمسي الجديد"..

عن التزامكَ الدينيّ لم أسألْك؛ فأنا بدوري لم أكن بأفضلِ حالٍ منك.. أصلّي ولا أعي لماذا أفعلُ ذلك؟ أعلو وأخفضُ تمامًا كمطرقةٍ تطرقُ في الأرضِ رأسها ولا تدري لماذا تطرقه.. أصومُ لأنّهم عوّدوني على الصوم؛ لأنّهُ من أركان الإسلام التي فرضها الله.. أصوم وأفطــرُ دون أن يتغيّر أيّ شيءٍ، إلاّ وزني. كانت عباداتي عادة، لا تشــتري سعادة، وكنتُ أؤدّيها لأنّي هكذا تربّيت، في بيتٍ يصلّي فيه الكــلُّ ولا يعلمون السبب، يصومون ولا يعلمون، أو ربّما يعلمون، وحدي أنا من لم تكن تعلم..

أمّي بالتأكيد كانت تعلم، عرفتُ هذا من إيمانها القويّ الــذي كانت تتحلّى به، بعيدًا عن إطار ذاتها الضيّقة وحــدودها الســببيّةِ المنكمشة.. فأمّي برغمِ كلّ الألم وكلّ الظروف، كانــت لا تــزال تنبضُ بالأمل، وكانت تدعو بقوّة، وتبكي بانكسار لم أكــن أفهــم معناه.. كنتُ أظنّها تبكي على مصائبها؛ فيزيدُ حزني عليها.. لكنّهــا

كانت تبكي رجاءً لله، رجاءً وخضوعًا وتسليمًا، وكان تسليمُها ينضحُ إيمانًا وتوكّلاً وقوّة.. أمّي لم تكن ضعيفة، هي كانت قويّةً جدًّا، وهذا السرّ الذي حيّرني طيلة هذه المدّة.. فمن أين تحظى امرأة مثلها بكلّ هذه القوّةِ والثبات؟ من أين تظفر بكلّ هذا الشموخ رغمَ كلّ الانكسار والوحدة والوجع؟..

وحدي أنا، كنتُ ألمحها ليلاً، تتسلّلُ إلى سجّادتها المركونةِ في إحدى زوايا البيتِ البعيدة/القريبة؛ فبيتُنا كان ضيّقًا.. أسمعُ همهماتها تردّدُ بعضَ الآيات والأدعيةِ ولا أدري ما العبرة من ذلك، وكنتُ أقول في نفسي: مسكينةٌ أمّي، تظنُّ أنّ هذا سيشفيها، سيرمّمها أو يعيد إليها ما ذهب.. كنتُ أشفقُ عليها في الواقع، وفي حقيقةِ الأمر، كان الواقعُ مخادعًا زائفًا كالعادة؛ فأنا لا هيَ من كنتُ أستحقُّ الشفقة!..

كانت توقظُني كلّ يومٍ لصلاةِ الفجر، فأقولُ لها: (يلاّ قايمة)، ولا أقوم.. لم تكن تصرُّ عليّ، ليتها فعلت ذلك.. كانت تتركُ لي حريّةَ الاختيار؛ لأنّها ربّما أرادت منّي أن أصل بنفسي إلى طريقِ الحقّ والحقيقة بعد أن أختبر الطرقات الوعرة، دون الولوج بها أو الوقوع.. تخيّرني نعم؛ لكنّها لم تكن تتركني أسير وحدي حافيةً تائهة، بل كانت تحملُني على أكتافها كي أراها من العلوّ، وهي التي تحسنُ الرؤيةَ والإبصار، واجتياز أوحال الطريق.. للأسف، لم أكن أركّزُ في الرؤية؛ فقد كانت أنظاري كلّها متّجهةً نحو ظلٍّ بعيد، لا يسيرُ ولا يتقدّم؛ لكنّهُ لا يتراجعُ أبدًا، نحو الموت.. موتي وموت كلّ من/ما حولي، القريبين والبعيدين.. الأشخاص والأشياء، وحتّى الأحلام..

أمّي كانت تركّزُ على الحلم؛ لكنّ تركيزها الأقوى لم يكن على سبب احتماله – الحلم – بل كان تركيزُها الأقوى منصبًّا على مسبّب الاحتمالات والأسباب والأحلام.. أمّي كانت تثق بالله ثقةً خارقة، لا حدودَ لها، وكانت تحسنُ به الظنَّ مهما عاكستها الظروفُ؛ لكنّ مشكلتَها أنّها كانت من النادر أن تأخذ بالأسباب أو تحاولَ أن تغيّر مجرى الأمور/الحكاية.. كانت تقول إنّ كل شيءٍ بيد الله، وأنّنا لا نقدرُ على فعل أيّ شيءٍ آخر غير التسليم والقناعة والرضا بما أراده الله لنا وما اختارهُ من مصيرٍ وحياة/ممات. كان باستطاعتها أن تفعل الكثير، ولا ألومها؛ لكنّها لم تفعل، ليس تقصيرًا أو كسلاً، بل لأنّها فقط كانت تخشى أن تغضب الله إن هي اعترضت على مشيئته وأرادت أن تغيّر شيئًا من أقداره التي قدّرها.

- "أمّي، لماذا لا تسمحين لي بالعمل ومساعدتك؟".
- "لأنّكِ ما زلتِ طفلة..".
- "ما عدتُ طفلة، أنا كبرت، صار عمري ثمانيةَ عشر عامًا وأنت ما زلت تصرّين على كوني طفلة!".
- "لأنّكِ لم تنهلي من الطفولةِ قدرَ الحاجة.. خانكِ الوقت..".
- "دعيني إذًا أعمل وأساعدك، علّي أوفّرُ شيئًا من الوقت الذي خانني وخانكِ معي".
- "لن أسمح لكِ أن تعيشي طفولةً تعيسة، ستبقين معزّزةً مكرّمة في حجري يا حبيبتي ما دام فيَّ عرقٌ ينبض.. سأضمّكِ بقوّةٍ وحنان إلى صدري الدافئ الحنون وسأحبّك في عيوني.. لن أسمح لهم أن يقتلوكِ كما فعلوا ببقيّةِ

الأطفال.. لن أسمحَ لهم أن يذرّوا رمادَ الوقت في عينيكِ البريئتين اللتين ما زالتا تحلمان بالطفولة..".

- "لم تعودا تحلمان..".
- "بل ما زالتا، ولا تقولي لي أنّهما ماتتا؛ لأنّني سأموتُ حتمًا إن قتلوهما يا عمري أنا".

كنتِ تضمّينني يا أمّاهُ إلى صدركِ بكلّ لهفة، بكلّ دفء وحنان، وتذرفين الدمعةَ تلو الأخرى، حتّى تبللّي وجنيّ، وخدّيَّ، وتختلط دموعكِ بدموعي المخفيّة، التي كنتُ أسرع في إخفائها كالعادة، كي لا تريها وتتألّمي أكثر.. أبتلعُ الدموع والآهات في جوفي ولا ألفظها كي لا تحرقكِ أكثر..

كنتُ أودُّ أن أعمل، ليس لأنّي ما زلتُ أؤمنُ بالحياةِ أو بالعمل، بل لأنّني وددتُ أن أخفّف عنكِ بأيّ شكل، أن أردّ لكِ جزءًا ممّا قدّمته لي/لنا، منذ أن كنّا جماعة، إلى أن تفرّقنا..

لكنّي لم أشأ أن أقهركِ، وددتُ فقط أن أنفّذ رغبتكِ.. طلبتِ منّي التراجع عن القرار الحاسم الذي أعلنته مرّة؛ فرضختُ مجبَرةً رغمَ حماسي الأحمق وعزمي المتهوّر، وتراجعتُ عن القرار لأجلك، لأجلكِ أنتِ فقط، يا كلّ مُناي.. ما كنتُ أحلم بشيءٍ في هذه الدنيا إلاّ أن أراكِ مرتاحةً راضيةً وسعيدة، أن أراكِ تبتسمين.. مقمرةٌ أنتِ كليلةِ البدر حين تبتسمين.. تشعّينَ تألّقًا وجمالاً ورونقًا... تبهرينني.. وكنتِ تسعدين حين ترين سعادتي، فقط حين ترينها، لذلك كنتُ أبديها لكِ، وأتظاهرُ أمامكِ أنّي سعيدةً أحيانًا؛ لكنّي لم أكن أتقنُ فنّ التظاهر جيّدًا، وكنتِ غالبًا/دائمًا تحسّين وتفهمين، وتسهرين الليل تدعين وتنتحبين...

أيّ ليلٍ تقطنين؟ بالله عليكِ أمّي أجيبيني؟ ليلُ الصابرين الحامدين أم ليلُ القانعين المتوكّلين؟... ليلكِ كان النهار الذي يضيئ الظلمة؛ لكنّهُ لم يقترن بالواقع،.. واقعي أنا على الأقلّ... كنتُ أحتاجُ لسببٍ يربطُني بليلك، وبفجركِ المستنير الدائم.. كنتُ أحتاجُ السبب، وكنتِ تفتقدين صلةَ الوصل، ذلك الجسرَ العائم..

وجاءت صلةُ الوصل، وكان أحمد ذلكَ السبب المنقوص، تلكَ النقطةَ التي لطالما نقصتني؛ لكنّ المشكلة أنّها كانت جسرًا عائمًا بانفراد، دون أن يتعلّق من أحد طرفيه.. كان أحمد، ذلكَ الجسرَ المعلّقَ في الهواء، في الفراغ، في اللاشيء، في ظلِّ الغياب اللازم الذي كان يحسبه إقامةً أبديّة..

ورحلَ أحمد، فكان الموتُ ما بعدَ الأخير...

رحلَ قبلَ أن تجيء

كيفَ رحل؟ هكذا بدونِ سابقِ إنذار.. قرّر الموتُ أن يأخـــذهُ فجأةً، دون أن يمهله قليلاً ليرتّب أمور آخرتهِ ويهيئ نفسه لتنال مكانًا هانئًا وجميلاً في الجنّة.. كانت تكفيه الدنيا، رآها جنّةً بجمالِها وهنائها وكمالِها الذي كنتُ أراهُ بشاعةً وشقاءً ونقصانا.. لم يكن يصلّي ولا يصـــوم، كـــان فقـــط يـــؤمنُ بـــالله، دون الحاجـــةَ لتقـــديمِ أيّ تنازلات/تصاعدات.. كان شخصًا طيّبًا جدًّا من الداخل، ولم يهجر شعائرَ الدينِ تكبّرًا أو إنكارًا؛ لكنّهُ كان يعزُ سبب تقصيره لقلّة الوقت ولطبيعةِ مهنتهِ المتطلّبةِ الصعبة، التي تطلبُهُ في كـــلّ آنٍ وحـــين، وفي أصعب الأوقات وأسوأ الأماكن.. كان يردّدُ دائمًا حين يراني أفترشُ السجّادةَ لأصلّي، كما أصلّي عادةً، كمجرّدِ هاويـــة أو متهاويـــة.. (نيّالك.. عقبال عنّا، ادعيلنا)..

وكنتُ أقول له: "ادعي لحالك، كُلّنا أضرب من بعض، فِـــش حدّ أحسن من حدّ..".

- "بس أنا مقصّر كتير الله يسامحني.. ادعيلي..".

- "الله يهدينا ويهديك".

أعجبُ ما في الأمر، أنّ أحمد اهتدى - نوعًا ما- بسببـــي! لأنّهُ ربّما تشجّع من كثرةِ رؤيتي أصلّي - ظاهريًّا - كلّ يـــوم، دونَ أن أقولَ لهُ شيئًا؛ لأنّهُ ليس من النوعِ الذي يحبُّ أن يقولَ لهُ أحدٌ مـــاذا

يجبُ أن يفعلَ أو يقول.. لأنّني تركتُ لهُ الحرّية الكاملةَ التي كان يتوقُ إليها في حياته، وذلكَ ربّما ما جعلهُ يختارُني زوجةً لهُ بكلّ إصرارٍ وبمثلِ هذه السرعة.. صبيّةٌ في الخامسةِ والعشرين، ترفضُ الحياة وكلّ ما يربطها بها، ماذا سيكونُ تأثيرُها على حرّيته يا ترى؟ هل ستتركُ فيها أثرًا؟ سيكونُ هو الفاعلُ دومًا وهيَ المفعول.. هو المتبوعُ وهيَ التابعُ الذي لا فرقَ عنده.. وعلى الرغمِ من كلِّ ما علّمني إيّاهُ أحمد من دروسٍ في الاستقلاليّةِ والتحرّرِ والثقة، كان هو الرجلُ الشرقيُّ الذي لا يعرفُ من الدين سوى أنّ المرأة يجبُ أن تتبعَ الرجلَ بكلِّ ما أوتيت من رضوخ، حتّى ولو كان لا يعرفُ من الدين شيئًا، وحتّى ولو كان رجلاً مقصّرًا غيرَ قائمٍ بواجباتهِ تجاه ربّه، ونفسه قبلَ كلّ شيء...

مع هذا رضختُ وأذعنت لرغباته؛ لمعرفتي بنقصي الممتلئ الذي يفوق نقصه بمراحل؛ فهو المقصّرُ بالدينِ كسلاً، وعلى الأقلّ هو صار يصلّي حياءً منّي، وأنا المؤدّيةُ للفروضِ نفاقًا وتمثيلاً.. فحقّقتُ رغبتَهُ الباكرةَ جدًّا في إنجابِ طفلٍ سيحملُ اسمهُ وأفكارهُ التحرّرية المنعتقةَ من القيود، على الرغمِ من كوني غير مستعدّةٍ بعد لفكرةِ الإنجاب وتبعاتها،.. فأنا امرأةٌ لم تغرف من الطفولةِ إلاّ القليل القليل؛ فبأيّ ملعقةٍ سأغرف لطفلي القادم طعامًا يكفيه لسدّ جوعهِ للطفولةِ والأحلام؟... لستُ أدري...

وها أنا ما زلتُ حتّى الآن لا أدري.. لا أدري...

لا تسلني كيف رحل؟ أنا شخصيًّا لا أعرف.. فقط قالوا لي أنّهُ مات، أنّ حلمي ما بعدَ الأخير قد تبخّرَ واختفى.. رحلَ أبوكَ يا بنيّ وأنتَ في غياهبِ الرحم، لا تدري ولا تفهم، لا تبكي ولا تألم، فلا

عتبَ عليك.. أمّا أنا، أنا الأرملةُ التي تبكي وتفهمُ وتألم؛ فلم أفهم حتّى الآن كيف ولماذا رحل؟ هكذا، حتّى دون أن يودّعني، دون أن يتركَ إشارة.. سأكونُ صادقةً معك، لم تكن صدمتي كبيرة، كنتُ أتوقّعُ كلّ شيء، كلّ شيء.. فالحياة علّمتني أن أتوقّع كلّ الأمور كي لا أفاجأ يومًا ما، نعم علّمتني، بقدر ما آلمتني.. وتعلّمتُ الدرسَ الأخير.. أن أظلّ متأهّبةً مستعدّةً لكلّ صفعةٍ جديدة سوف تصفعُني إيّاها..

هكذا، وبكلّ بساطة، جاءت الصفعةُ مدوّيةً إلى أبعدِ مدى، حيث مات والدُكَ بسكتةٍ قلبيّة، نعم سكتةٍ قلبيّة، أوقفت دوران الدم في قلبه النابض الذي ما كان يحسبُ يومًا أنّهُ سيفارقُ الحياة.. أحمد، ذلك الشجاع المقدام، الذي كان يتحدّى الموتَ كلّ يومٍ ألفَ مرّة، ويداهمُ قلعته بكلّ عزمٍ ليسرق الزهرَ ويخطفَ العطرَ خطفًا، ويعودُ من القلعةِ محمّلاً بالآمال والأحلام التي لا تتوقّف ولا تخبو، بل تظلُّ تنمو وتعيش - أو هكذا خُيّل إليّ - داهمهُ الموتُ بدورهِ هذه المرّة، على حين غفلة، وسرق عمرهُ المزهر وهو جالسٌ بين رفاقه في مركز الدفاع المدني.. وإلى آخر رمق، كان أبوك لا يزال مصمّمًا على التمسّكِ بالحياة ورفض الموت، حيثُ كان يحتسي كوبًا من الشاي المطعّم بالميرميّة لتنبّه أعصابه وتقوّي عضلاته وتنشّط دورته الدمويّة كما كان يقول دومًا؛ لكنّها ولشدّةِ الأسف أحدثت مفعولاً عكسيًّا هذه المرّة؛ فأوقفت دورتَهُ الدمويّة وألقت به خارجَ الدائرة.. لعلّها كانت جرعة حياةٍ زائدة، بالغت في تنشيط دورانه، حتّى قتلتهُ هذه المرّة، وقتلت حلمه، من يدري...

وبلحظةٍ، انسلَّ الحلمُ ما بعدَ الأخير من بينِ أصـــابعي المرخيّـــة أصلاً، فودّعتهُ بصمتٍ دون أن أذرفَ دمعةً واحدة؛ لأنّ دمـــوعي في حينها كانت قد تبخّرت.. ومنذ ذلك الحين أصابني الجفافُ الدمعيّ..

الحلُم/الحِمْل/الحَمْل

أبعد من عتبة الوقت كان الوقت يشرق، كان الوقتُ يسري.. كلُّ شيءٍ كان يتابعُ السيرَ والدوران، خارجَ الدائرةِ فقط.. داخلَ الدائرة، كلّ شيءٍ كان ينتهي بسرعةٍ ويموت.. الأحلام تنتهي، تصبح أحمالاً ثقيلة، نحملُها على ظهورنا.. تثقلُنا وتعرقلُ حركتنا لا أكثر، وتوهمنا بأنّا سنصلُ أخيرًا ونرتاح، ونلقي الثقلَ عن ظهورنا بعد أن يكون قد استحالَ سعادةً وطمأنينة تحتوينا ونحتويها.. الاحتواء ينتهي داخلَ الدائرة، مباشرةً بعد انتهاء الحِملِ والأثقال.. هذا إن حصل الاحتواءُ أصلاً؛ فقلّما يصادفُ ذلك أحدًا إلاّ صاحبَ حظٍّ عظيم – لستُ أنا بالتأكيد– والحظُّ في نهاية الأمر سينتهي هو الآخر.

أقفُ على أعتابِ الشهرِ الرابع من الحَمل/الحِمل، حدسي ينبئني بأنّه لن يكملَ الدوران، بأنّ كلّ شيءٍ شارفَ على النهاية، كلّ شيءٍ قريبًا سوف يندثر، قريبًا سوف يتساقط.. وأنا منهمكةٌ/منهكةٌ في انتظار خريفِ الأيّام، وتساقط الأحلام...

الأطفالُ حولي ما زالوا يلعبون، يصرخون بكاملِ حناجرهم، كلّما ابتعدوا، ببعضِ أفواههم كلّما صاروا أقرب.. الأطفالُ يخترقونني، يجتازونني، يصيرونَ ضبابًا، يعبرونني، ثمّ ينطلقونَ بزهوٍ نحوَ قارعةِ الحلم.. ثمّةَ حياة تنتظرهم، هكذا يهيِّئون لي، يكذّبونَ حدسي.. أأفرحُ أم أحزن؟ أأكونُ طرفًا محايدًا أم أتماهى معهم وأبتعدُ لكي

أصير؟... أجئتُ لكي أدثّر طفولتهم، أم أتيتُ لأسرقَ المعاطف منهم؟!.. أيُّنا يحتاجُ المعطف؟ على شفيرِ الحرب، وما بعدَ الشفير، كلّنا، ربّما...

ثمّةَ أطفال هنا يقولونَ لي ألاّ أيأس، برغمِ طفولتهمُ المغدورة التي تُسحَلُ ببطءٍ كلّ يوم دون أن يلحظوها.. ثمّة أطفال يخبرونني بأنّ الحلمَ ما زالَ ممكنًا، أنّهُ.. وبرغمِ ثقَلِ الحِمل، ما زال محتمَلاً.

والحَمْلُ/الحِملُ المخفيّ، ذلك الحلمُ الذي غابَ صاحبهُ قبل أن يشهدَ دورانهُ المؤقّت، ينبئني أيضًا بأنّ كلّ شيءٍ قابلٌ لكي يصير، أو لا يصير...

أتابعُ حياتي وحياتهم، أتابعُ القيامَ بدوري الذي صارَ دورهم، على أملٍ أو بدونِ أمل... ساعةً أقترب، وساعةً أبتعد، وساعاتٍ أعيشُ على هامشِ اللحظة العابرة، علّي أجدني فيهم؛ لأعيدَهم معي..

قربَ الحدث

قريبًا من المشهد، كان المشهدُ ينزفُ ويئنّ.. لم يكن القاتلُ دائمًا غريبًا، لم يكن آتيًا من خارجِ الصورةِ أو المشهد فحسب؛ فأحيانًا يقتلُ بعضنا بعضًا، وأحيانًا أخرى، يقتلُ بعضُنا نفسهُ بيديه، بل ويقتلُ حتّى حلمه.. تصرخُ أمٌّ على ابنها، في مشهدٍ يتكرّرُ أمامي عشرات المرّاتِ كلّ يوم؛ لأنّهُ يلعبُ بالوحل.. لأنّهُ لطّخ نفسه، وجهه، وثيابهُ ويديه... يا للسخرية... ألستِ أنتِ من رماهُ في هذهِ البؤرةِ المليئةِ بالأوحال المسمّاة حياة؟ ألستِ أنتِ من أنجبتِهِ ودعوتِهِ إلى هذا العالمِ المدجّجِ بالوساخةِ والقذارة؟ أتلومينهُ على ما يُملى عليه؟ على ما ألّم بهِ رغمًا عنهُ من الآلام والأحمال، وصار جزءًا منه؟ دعيه يلهو قليلاً، دعيهِ يسلّي نفسهُ بالجانبِ البرّاقِ من كلّ هذا الألم.. دعيهِ ينسى بعيدًا عن دائرة الوقتِ والإنسان..

ألمحُ طفلةً من بعيد، لا ينهرُها أحد، لا يسمعُها أحد؛ لأنّها لم تكن تصيح... الناسُ لا تسمعُ إلاّ من يصيح، إلاّ من يُصدرُ صوتًا ليكونَ مصدرَ إزعاج أو مصدرَ شفقة.. أمّا الأوّل فيُنفى بعيدًا، وأمّا الآخر فيُنفى قريبًا؛ لأنّهُ لا يُحدثُ كلّ هذه الضجّة.. الآخرُ يُشفَقُ عليه، مؤقّتًا، ثمّ يُرمى قريبًا من ذاكرةِ الوقت، من ذاكرةِ النسيان، علّها تعيدُه كلّما تكرّرت الذكرى وتكرّرَ الحزنُ العابر... أمّا هذهِ المسكينة، فلا تُنفى ولا تُدعى، تبقى معلّقة بينَ الضفّتين.. لا أحد

يوبّخها، ولا أحد يشفقُ عليها.. هيَ عابرةٌ غيرُ ملحوظة، غيرُ مذكورةٍ لكي تُنسى.. تستلقي على وحلِ المخيّم، على أرضِ العالمِ الضائع، قرب نفاياتِ أكوانٍ تجمّعت فجأةً وبسرعة وجذبت كلّ ما في الكونِ من حشراتٍ وذباب...

أخزّنُ الصورةَ في قلبي، ولا أستخدم الكاميرا.. قلبي لم يمهلني قليلاً حتّى أنتظرَ ثانيةً أخرى وأسجّل الحدث المؤلم.. روحي لم تطاوعني لكي أتركها مرميّةً على وجهها هكذا، بحفاضتها الممتلئةِ التي تكادُ تتفجّر، والتي صارت سوداء مفحمة من أثرِ الوحلِ والذباب الحائم حولَها وعليها.. كان الذبابُ يغطّيها بالكامل، من رأسها إلى أخمصِ قدميها، يغزو روحها حتّى، وهي نائمةٌ/شبهُ نائمة، غير قادرةٍ على تحريك أيّ جزءٍ منها، تحرّكُ يدها بصعوبة لتطردَ الذبابَ الذي لم يعد يشعرُها بالضيق والتنميل.. تخدّر جسمُها، واستسلمت للقشعريرةِ المريرة.. كلّها صارت سوداء، بذبابٍ وبغير ذباب، بالوحلِ أو بأوساخِ الحياةِ المظلمةِ المقفرة.. لا أصبرُ أكثر، أحملُها بينَ ذراعيَّ ثمّ أنطلقُ سريعًا نحوَ الماء، الذبابُ يتطايرُ حولي وحولها، كسربِ غربانٍ، وما أنعمَ التشبيه أمامَ خشونةِ المُشبَّه! الفتاةُ مسترخية بالكامل، تفتحُ عينها قليلاً ثمّ تغلقها بغير حول، أنزعُ عنها الحفاضة، أصبُّ الماء عليها صبًّا، ثمّ أدعكُ بالصابون.. النساءُ يتجمّعن حولي، يحذّرنني، الماءُ قاربَ أن ينفد، عليّ الانتظار إلى اليوم التالي كي تأتي الدفعةُ الجديدة من بقيّةِ ماءِ العالمِ المُقتطَعِ شفقةً.. لا أبالي بصيحاتهنّ وتحذيراتهنّ، تأتي أمّ الطفلةِ لتأخذها منّي، وكأنّي أنا المذنبة، وكأنّي سببُ كلّ هذه المأساة..

– "يكفي هذا، ستمرضُ البنت، إنّها مصابةٌ بالزكام.. حرامٌ عليكِ..".

- "لا تخافي، سأضمّها قربَ المدفئة، والماء دافئ.. تعالي وتحسّسيه.. عدّلتُه بماءِ قلبي.. تحسّسيها، هذه ابنتكِ.. إنّها حقًّا سعيدة، ألا ترينَ ذلك؟ ألا تشعرين به؟".
- "قلتُ لكِ هاتِها..".

تأخذُ/تخطفُ الأمُّ طفلتها رغمًا عنّي.. لوهلةٍ كدتُ أصدّقُ أنّها حقًّا تخافُ عليها، أنّ ضميرها استيقظَ فجأةً وبسرعة، وصارت تشتاقُ لحملها وإرضاعِها بعض الحليب، ربّما.. طفلةٌ لم تتخطّ السنة والنصف.. ماذا قد تحتاجُ أكثر.. لكنّها تأخذُها منّي عنوةً لتلبسَها حفاضةً جديدةً – على الأقلّ – وسترةً باليةً أخرى غيرَ خاليةٍ من الأوساخ.. ثمّ ترمي لها بزجاجة من الحليبِ المصنّع، كحالِ أمومتِها المصنّعة التي ما عاد يُؤسفُ عليها.. أقولُ لنفسي، وبرغمِ حجمِ المأساة: على الأقلّ لمحَتها، على الأقلّ تذكّرَتها ولاحظَتها.. لأنّي أحدثتُ قليلاً من الضجّة؛ لأنّني أحدثتُ بعضَ الإزعاج.. تخشى عليها من البردِ بلا ملابس؟ هي ما كانت ترتدي ملابسَ أصلاً حين رأيتُها أوّل مرّة.. تخشى على حياتِها من الماء؟ ألا إنّ الماءَ هو الحياة، فما أقلّ الماءَ هنا وما أندرَ الحياة!...

انعكاس

صارت بيني وبين أمجد علاقةٌ طرديّة، هو يطاردُني وأنا أطـــاردُه، وكلانا ينقصُ في غياب الآخر.. صرتُ أنتظرُ المساءَ كلّ يوم حتّـــى نُعدّ جلستنا التلقائيّة العفويّة تلك، فإمّا أن ألوذَ به تارةً، وأغرقَهُ أسئلةً، وإمّا أن ألوذَ إليهِ طَورًا ويغرقني تساؤلات.. كلامُ أمجد كان يفتحُ لي بعدًا آخر، أفقًا آخر، ما كنتُ أراهُ وأنا في مثلِ عمره الغضّ الطـــريِّ الورديّ. كلماتُه البرّاقة الجذّابة تلك، ما كانت لتلمعَ من عدم، مـــا كانت لتجذبني عبثًا، وإنّما كانت تبرقُ وترعدُ لتسكبَ في روحـــي سكينةً وارتياحًا وعذوبة.. آلامه الجارحة تلك التي تفتّحـــت بـــاكرًا كنبتةِ صبّار، أثمرت وأينعت وحان وقتُ قطافِها، فكانت ثمراتُها عذبةً سكّريّة، كطعم العسل أو أشهى.. وعلى الرغمِ من كلّ ما اخـــتلطَ فيها من رمادٍ وأشواكٍ، كانت تهديه وتهديني لذّةً غير اعتياديّة لا أدركُ كنهها؛ لكنّي كنتُ أشعرُ بها وألمسُها بقلبـــي وروحي فحسب..

أنا ما وجدتُ ملاذًا آمنًا آوي إليه إلاّه، ولا اخترتُ مـــن بعـــدِ الورق المبعثرِ في أرجاءِ خيمتي، والقلمِ المعلّقِ بشتات روحي إلاّ ظلّه.. ظلّهُ كان يغريني، يدعوني للاقتراب والبوح، وأنا التي ما اعتدتُ يومًا على البوحِ لمخلوقٍ بمكنوناتِ روحي وأعماقي.. هذا الصـــبيُّ كـــان صاحب سرّ، سرٍّ دفين، ورسالةٍ من ربّ العالمين...

أقولُ له:

- "هاتِ حدّثني عن الشيب، وعن سرّ هذه الخصلةِ البيضـــاءِ المتدلّيةِ من مقدّمة رأسكَ أيّها العبقريّ الصغير/الكبير".
- "لماذا القلق؟ ولِمَ المقارنة؟ لم تري حتّى الآن حدًّا أدنى مـــن القواسم المشتركة، كي تحاولي معرفةَ السبب الذي ربّمـــا أوصلكِ إلى المشيب عن طريقِ مشيبـــي.. أنتِ ترينَ فيَّ ما ترينهُ في نفسك وحسب، لكنّكِ لا ترينَ فيّ ما لا ترينـــه في نفسك.. في نفسي التفاؤل والأمل، وبرغمِ خصلِ المشيب، أنا سائحٌ لا يؤرّقُني الرحيل..".
- "عجبًا أيّها السائح الصغيرُ المشاكس، أتحسبُ أنّكَ السندبادُ المغامر؟".
- "لستُ مغامرًا.. أنا مجرّدُ سائحٍ يبحثُ عن ظلٍّ يؤويـــه، ولا يطيلُ الإقامة في البلدِ الذي سافرَ إليه.. رحّالةٌ بغـــيرِ أرض، أرضي رضاي".
- "يا الله!.. ما أروعَ كلماتك يا أمجد!..".
- "جميلٌ أنّكِ ترين نفسكِ كذلك.. ذلكَ انعكاسكِ فيَّ".
- "هاتِ حدّثني عن الجانبِ المشرق فيـــك والـــذي لا أراه فيَّ..".
- "وهل للمرايا أن تتكلّم؟ هل لها أن تنطق بالصور إلاّ عـــن طريق الانعكاس والتبلور؟".
- "إنّها مجرّد صور معكوسة، خادعة، غير حقيقيّة..".
- "ستكونُ حقيقيّةً إن أنتِ أحسنتِ قلبَ الصورةِ المائلة..".
- "ممم..".
- "حان الوقتُ للدخولِ إلى الخيمة..".

- "هل نعستَ؟ الوقت ما زال باكرًا..".
- "أتركُكِ لتجدي انعكاسكِ فيّ في غيابـــي..".
- "هههه.. شرّير".
- "كلّنا كذلك.. إلاّ في الزاويةِ الأبعد... حين نـــنعكسُ في العزلة".

يذهبُ أمجد ويتركني كعادته عالقةً، هائمةً شاردة، أســـرحُ في الأفكار والانعكاسات، أفتّشُ عنّي بين الصور، ولا أجدني.. لا أجدُ إلاّ بقاياي الشاردةِ الهاربةِ من قُصاصاتِ الحياة... أدخلُ خيمتي/غيمتي، أهيمُ فيها، على ضوءِ قنديلٍ صغير، أقرّبُ المرآة المستطيلة إلى وجهي، أتحسّسُ جلديَ الذي ما زلتُ أذكرُ أنّه كان أبيض كالثلج، والـــذي صار أصفرَ صارخًا من كثرة التقيّؤ والتعب.. أقرّبُ رأسي، أبعثر بضع خصلاتٍ فيه، أحفر بينها، وأرى الرمادَ تذروهُ الرياح.. رماد الشـــعرِ الذي أحرقهُ اشتعالي الداخليّ.. أراهُ اليومَ يزدادُ انتشـــارًا وتوسّـــعا، واختباءً بين الخطوطِ والتعرّجات.. داهمني الشـــيبُ مـــرّةً واحـــدة، وضاعت أوّلُ خصلةٍ بيضاءَ لمحتُها بينَ أسرابِ الرمادِ المبعثر...

عن أيّ انعكاس حقيقيٍّ تتكلّمُ يا أمجد؟.. وأيّ جوانبَ مشـــرقةٍ وهميّةٍ تدفعني دفعًا لكي أراها، وأنتَ الصغيرُ/الكبير القابع وحـــدكَ في وسطِ العتمة؟...

في اليومِ التالي، أقتربُ منه، والأسئلةُ الكبرى تتلاطمُ في رأسي، ولا تجدُ الجوابَ الشافي..

أداهمه بالسؤال: "من أين لي ببعضِ إشراقك..".

- "سلي حدسكِ.. أنتِ تقولين أنّ حدسكِ شديدُ الحساسية، فلِمَ لم يسعفكِ هذه المرّة؟..".

- "دعكَ من التملّص، عدّد لي بعضَ الجوانب المشرقةِ التي لا أراها فيَّ.. في حياتي".
- "ما زلتِ تقفين على ناصيةِ الحلم".

قالَ هذا واكتفى، ثمّ صمتَ.. وصمتُّ... وسرحتُ بعيدًا أتذكّرُ كلماتِ أمّي؛ أمّي التي كانت تريدني أن أظلّ واقفةً على الناصية؛ لأقاتلَ وأحيا بعدها معَ الأحلام.. أتراه يصدقُ حلمها؟ أتراهُ حقًّا قد يصير؟ أشكُّ في ذلك، لعلّ أمجد بالغ في إمالةِ الصورة.. لعلّهُ قلبَ الصورةَ بالكامل!.. لكن.. ماذا أفعلُ هنا؟ وما الذي حملني كي أجيءَ إلى هنا؟...

يجتازُ أمجد صمتي وتساؤلاتي الشاردةِ المسافرة عبر الذاكرة، ويستأذنُ للعبور نحو الضفّةِ الأخرى، حيثُ سعد، أحد الشباب المتطوّعين الذي لم يمضِ أسبوعٌ بعد على مجيئه، حتّى صارَ مقرّبًا وبسرعةٍ من صديقي الصغير/الكبير، الأمرُ الذي أثار غيرتي وتعجّبي على حدٍّ سواء!...

أبقى وحدي، أتأمّلهما من بعيد، دونَ أن يلحظني سعد، دونَ أن يلحظني أحد.. أراهما يبتسمان، يتحدّثان.. ترى، كيف استطاع هذا السعدُ أن يسرقَ منّي أمجد، كيف استطاعَ اقتحامَ عزلته بمثل هذه السرعةِ العجيبة؟.. وكيف حظيَ منهُ بكلِّ هذا القبول؟ غدًا ستخبرني الأيّام، حدسي ينبئني بذلك..

الفصلُ الثاني

خيطُ نور

(ثمّةَ جدوى تُحاكُ في الظلّ)..

ضوءٌ وظلّ

شيئًا فشيئًا يحيكُ الوقتُ من ظلّي المنعكس على علبةِ حياتي الخارجيّة بعضَ الجدوى، وقليلاً من دفء ضالَّ.. اللامعنى الذي كنتُ أترشّفهُ فيما قبل، دونَ أن أراه، صارَ لهُ معنًى مظلّلٌ، معشّقٌ برائحةٍ ليلكيّة، لا أدركُ كنهها.. تلكَ الأنا، الطفلةُ المرقّعة التي كنتُ قد أضعتُها في غياهب النسيان/التناسي، محشورةً بين طيّاتِ الألم.. تلكَ الأنا، الأميرة النائمة، التي لم أعد أبحثُ عنها، صارت اليومَ تبحثُ عنّي دونَ أن يدعوها أحد.. تنتظرُ ظلّي لتستيقظ كلَّ يومٍ من جديد، ثمّ تغيب مع طلوع الشمس وانحدار البشر ليتبخّر الوقتُ والمعنى وتغيب كلّ الظلال..

في المساء، وفي المساءِ فقط، أنتظرُ أمجد – الذي هو الضوء – لتحيا الظلال وتتفتّقَ كلّ المعاني.. ينتظرُني أحيانًا هو الآخر، كلانا صار يعكسُ الآخر، دونَ أن يعترفَ بذلك، ظاهريًّا على الأقلّ.. أمّا ذلك الدخيل الذي صرتُ أتخيّلهُ ضبابًا يحجبُ عنّي ومنّي الضوءَ والظلّ؛ فستكونُ لهُ هو الآخر غمامةٌ تطويه وتطوي ظلّهُ عنّي مع طلوعِ شمسِ الليل..

يطلعُ النهار، ويندثرُ ضباب الأمس آخذًا معهُ كلّ الظلال المؤقّتة.. في الظهيرة، حيثُ يغدو الظلّ أقصر ما يكون، أرى لأوّل مرّةٍ جموعًا من الرجال تراصّت في صفوف، خلفَ شابٍّ لم أكن أميّزه في

البداية.. تقام الصلاة، وأعرفُ الإمام من الصوت.. كانت تلكَ أوّلَ صلاةٍ يؤمّ سعدٌ فيها المصلّين هنا، وغير المصلّين،.. ربّما... وأنا التي كنتُ أتساءلُ عن سرّ انهماكه كلّ يومٍ في ترتيب الأماكن وتوسيع الفسحةِ التي كانت فيما قبل ضيّقة لكثرة ما امتلأت بالكراكيب وعلب المؤونةِ الفارغة.. هكذا وبشكلٍ مفاجئ، يقفُ وحدهُ في العراء ما بين الخيم المكسوّةِ بالثلج، بعد أن يغطّي فسحة الأرض الموحلة بالكراتين المفتوحة.. ويصيحُ بالناس، الله أكبر، فيبدأُ الرجال بالتجمهرِ حوله، واحدًا تلو الآخر.. الرجلُ يدعو قرينه، والشابُّ يشيرُ لأقرانه، فتندفعُ الجموعُ تتابعًا على هيئة موجٍ تهادى، إن لم أقل سيلاً، فالسيلُ أقربُ للتعبيرِ عن الألم.. أمّا هنا، فقد كان السيلُ هو الأمل الجارف الذي اقتلعَ الألم مرّةً واحدة؛ فحطّت مكانهُ حمامةُ سلام...

تتجمّع النسوة – كالعادة – بصمتٍ هذه المرّة، لا يصرخن ولا يطبخن، يوقفنَ أعمالهنّ، يتأمّلنَ جمالَ المشهد، ويتبسّمن، بهدوءٍ لم أعهده فيهنّ منذ مجيئي.. جذبني المشهدُ أنا الأخرى، شدّني وأثّر بي لأقصى درجة.. لم تكن تلك المرّة الأولى التي تؤثّر بي فيها رؤيةُ صلاة الجماعة؛ فلطالما كانت تسحرُني وتجذبُني مشاهدُ الصلاة في ليالي رمضان، يتجمّع فيها المصلّون بجلالٍ وخشوع فتثير في نفسي هيبةً وسكينةً لا أدركُ سرّها، أفتقدُها في صلواتي العاديّات.. لذا كانت أمّي تحرصُ على أخذي معها كلّ يومٍ لصلاة التراويح؛ لتبصرَ الفرحةَ المؤقّتة في عيني، ولو لساعةٍ واحدة..

لكنّ جاذبيّة المشهد هذه المرّة كانت أشدّ وأقوى، حيثُ هزّت كياني ووجداني.. ولا أعرف ما الذي خالج صدري تلك اللحظة.. شعرتُ بأنّي أريد أن أحلّق وأطير، أنّ الأثقال تبخّرت واضمحلّت..

أنّ الحلم تفتّح كلّه مرّةً واحدةً وحملني بدلاً من أن أحمله.. وددتُ لو أنّي كنتُ رجلاً لأنسلّ بين الرجال وأصلّي بينهم صلاةً كانت تغريني لأتقدّم.. لكن.. لا مجال للتقدّم أو التراجع، الفسحةُ صارت ممتلئةً بالكامل.. لم يعد هناك من جدوى للمحاولات أو لمجرّد الاحتمالات...

نراقب الصلاة حتّى تنتهي، أنا والنساء الأخريات، وبعد السلام، يعمّ السلامُ بشكلٍ عجيب!.. يسلّم الرجال بعضهم على بعض، وبعضهم يضمّ البعض الآخر.. رائحةُ المسكِ تعمّ في الأرجاء، مسكٌ وعنبرٌ وبخورٌ يفوحُ في روحي ويملؤها انتعاشًا وسكينة... من أين وكيف تدفّق عليّ كلّ هذا الفرح؟.. كثيرةٌ عليك كلّ هذه السعادة يا قلبي.. أخشى عليكَ من السقوط والاصطدام بأرض الواقع...

عند العصر، يتكرّرُ المشهد – المتوقّع هذه المرّة – ومع أنّه في المرّة الأولى كان أكثر عفويّةً وارتجالا، كان هذه المرّة منظّمًا أكثر، و لم يخلُ مع ذلك من تلك اللمعةِ السحريّةِ الساحرة..

النساءُ فرحات، أرى البسمةَ تنيرُ وجوههنّ وترسمُ وردةً على ثغرِ كلّ واحدةٍ منهنّ، ويفوحُ العبق..

يا الله! ما سرُّ تلك الروح التي تسري فجأةً في الأرجاء فتطيبُ على إثرِها الصبيحةُ والظهيرةُ والمساء؟.. ومن أيّ فوّهةٍ تنطلق كلّ هذه الشرارات الإيمانيّة المتدفّقة، تتطايرُ مع النسائم وتزيد كلّما أذّن المؤذّن من جديد وصاح الله أكبر!...

هروب

هذه الليلة، يحدّثني أمجد عن سعد، دون أن أسأله عنه.. لم أكن لأسأله عنه قبل أن يتحدّث عنه من تلقاء ذاته.. لم أكن لأتطفّل عليه أكثر.. لم أشأ فعلَ ذلك.

- "كيف كان يومكِ؟".
- "جميل، لقد كان يومًا رائعًا بحقّ..".
- "شاهدتِ الصلاة؟".
- "بالطبع.. ومن منّا لم يشاهدها؟".
- "كيف كان شعوركِ؟".
- "وددتُ لو أنّي كنتُ رجلاً!".
- "لا تحتاجين لذلك.. تستطيعين الصلاةَ في الخلف".
- "أين؟.. لا مجالَ لذلك.. ما من مساحةٍ كافية..".
- في البدء لم يكن هناكَ مساحةٌ ليصلّي حتّى الرجال.. نستطيعُ تدبّر أمر ذلكَ لو أردتِ".
- "ماذا تقصد؟".
- "سأكلّم سعد ليرتّب المكان ويوسّع الفسحةَ أكثر كي تصلّي النساء، بناءً على طلبك".
- "رائع!.. لكن، انتظر.. أنا لم أطلب شيئًا.. أنتَ الذي اقترحتَ ذلك، اتّفقنا؟".

- "ما الفرق؟".
- "الفرقُ كبير..".
- "ممم.. ما رأيكِ بسعد؟".
- "أنا؟.. رأيي به من أيِّ ناحية؟".
- "من كلِّ النواحي هههه.. من ناحيةِ كونه رجلاً".
- "حقًّا؟.. أتمزح؟".
- "لا.. أتكلّمُ بجدّيّة، ما رأيكِ به؟".
- "أشتمّ رائحة أفكاركَ الشيطانيّة.. أتعملُ خطّابة؟".
- "هههههه.. على العكس، إنّها أفكارٌ بيضـــاء ملائكيّـــةٌ.. أرى أنّكما قد تشكّلان معًا ثنائيًّـــا رائعًـــا، ألا تـــرينَ ذلك؟".
- "لا أرى شيئًا!!.. أيّها الصغيرُ الشقيّ، يبدو أنّـــكَ لم تـــنم جيّدًا ليلةَ أمس، هيّا اذهب واخلد إلى النومِ بأقصى سرعة.. فرشتُكَ تناديك".
- "الزلمي محترم".
- "اصمت.. يا لكَ من مراوغٍ محتال".
- "طيّب.. هههه.. ولماذا احمرّ وجهكِ؟".
- "أنا؟.. مَ.. ماذا تقول؟.. أنتَ بالتأكيد تهذي، ولماذا يحمـــرُّ وجهي؟ يا لكَ من أبله!".
- "هههههه".
- "سأذهبُ لأنام".
- "يااااه.. إنّها المرّةُ الأولى التي تنامين فيها باكرًا هكذا".
- "تصبحُ على خير".

أنسلُّ بسرعةٍ من الجلسةِ المحرجة، قبلَ أن أنفجرَ وأفضحَ نفسي.. أفضحُها؟ لكن، ممّ أخاف؟ ولِمَ أنا مرتبكةٌ إلى هذه الدرجة؟ هل يمكن أن أكون معجبةً بسعد؟ أيصحُّ ذلك؟ كيف؟ ومتى؟ لا.. بالطبعِ لا، هذا مجرّد هذيان.. لقدُ كبرتُ كثيرًا على هذهِ الأشياء، لم تعد تعني لي شيئًا.. كبرتُ كثيرًا يا أمجد، وقصّةُ كبَري ترويها خصلات الشيب المنثورة التي ما زالت تجاهدُ كي تتخفّى ما بين الخطوط، فتفضحُها النسماتُ، وعصفُ الرياحِ العاتيات... ثمّ أنّي امرأةٌ أرملة، وحاملٌ أيضًا.. كيف لي أن أفكّر حتّى بالأمرِ؟ يا إلهي، كم هذا مرعب.. لا أودُّ التفكير مجدّدًا بالموضوع...

سامحكَ اللّهُ يا أمجد.. حتّى أنتَ لا تعرف شيئًا عمّا يدورُ في خلدي الآن، وما ينمو بداخلي.. وبرغم كونكَ الإنسان الأقرب إلى قلبي؛ فأنتَ لا تدركُ شيئًا عمّا يؤرّقني كلّ يومٍ ويقضُّ مضجعي.. كلُّ شيءٍ فيَّ يتوقُ لإخبارِكَ عن قصّةِ زواجي وعن حملي المخبوءِ الذي ما عدتُ أقوى على تحمّل فكرةِ إنكاره وإخفائه عن كلَّ البشر.. وددتُ لو أشركَكَ الحِمْل، لكنّي لم أشأ أن أتعبكَ أكثر..

كلُّ شيءٍ فيَّ يتوقُ لإخبارِكَ كلَّ شيء، عن ألمي ورفضي، عن خوفي وقلقي الدائم المستمرّ، الذي يزيدُ كلَّ يومٍ - وباستمرار - أضعافًا مضاعفةً كلّما اقتربَ المخبوءُ من أن ينكشف.. وأفكّر، لعلّهُ لمحَ شيئًا ما.. لعلّهُ أحسّ بشيءٍ أو لاحظَ شيئًا.. إنّهُ ذكيٌّ جدًّا، ويتقنُ قراءتي عن ظهرِ قلب.. لعلّهُ قد قرأ بحدسهِ أنّني أخفي حِملاً زائدًا في الداخل، وأحبّ أن يحملهُ معي.. أقتربُ من إخبارِكَ ثمّ أتراجع، حين أكونُ قد شارفتُ على خطِّ البداية/النهاية، فكلُّ بدايةٍ عندي صارت نهاية.. ولذا أخافُ الابتداء.

ومَضَت الليلة

سريعًا مرّت الليلة، كساعاتي الجميلةِ المعتادة.. لا أكادُ أحسُّ بها... تمضي خلسةً... أحببتُ لو يطول الوقت قليلاً لأشعرَ بالسعادة إلى أقصى فترةٍ ممكنة.. لأفضفضَ لأمجدَ بالمزيد، وأُخرجَ كلّ ما يصطرعُ في صدري من الآهات، وأستريح... رغمًا عنّي يصحو ألمي كلّ مرّة فتغفو أحلامي السعيدة مرّةً أخرى...

كم أتوقُ إلى ساعةٍ أخلدُ فيها لنومٍ مليء بالأحلام الطويلةِ والسعيدة.. أحلام أعلمُ أنّها لن تتحقّق، ولو آنيًّا... وحيدةً.. أجلسُ وأفكّر.. أسردُ في عالمٍ آخر بعيدٍ كلَّ البعدِ عن كلِّ ما يحيط بي من أحلامٍ وساعات..

كانَ الألمُ يحفرُ كلَّ يومٍ فيَّ حفرةً من ذكريات.. تتجدّد،.. ثمّ تتبدّد...

تحيطُ بي دائرة، سمِّها إن شئتَ: "طاحونةَ هواء"... أو سمّها:" لا شيء".. إذ أنّني أيقنتُ أنّ تسميةَ الأشياءِ بشيءٍ ما، يقضي عليها.. سريعا يبدُّدها.. يسرقُ منها لونَ الزهرِ ورائحةَ الفرحْ... ويبعدُها...

أحضرُ القلمَ والورق، ألمٌّ شتاتيَ المبعثر، لأعيدُ بعثرتَهُ من جديد على الورقِ...

سعةٌ وقرب

في الصباح، لا أقتربُ منه.. ليسَ من عادتي فعلُ ذلك، ليسَ من عادتي رؤيته مرئيًّا جدًّا وعن قرب قبلَ حلولِ المساء.. أراهُ منهمكًا في ترتيبِ الأماكن، قريبًا من الأنظارِ على غيرِ عادة.. منهمكًا برفقةِ سعد، أتابعُهما بحذر، كي لا يراني أحد.. لا أدري لِمَ أخافُ أن يراني أحدٌ أتابع سعدًا فيظنّ بي ظنًّا خاطئًا، أو ظنًّا حقيقيًّا.. لا أحبّذُ ذلك.. من عادةِ الناسِ أن تربطَ بينَ المتقاربات، وأن تستدرجَ وقوعَ البديهيّات وأن تضعَ الاحتمالاتِ المفبركة دائمًا على أهبّةِ الاستخدام، كي تنتشلَها بسرعة وبدون تضييعِ أيّ وقت.. لا بدّ أنّهم بدؤوا يربطونَ بيني وبين سعد، فنحنُ شكليًّا متلائمان، ظاهريًّا على الأقلّ.. سواءً من ناحيةِ السنّ – مع أنّي لا أعرف عمره – أو الطولِ أو الحجمِ أو القامة، أو من ناحيةِ المركزِ وطبيعةِ العمل.. أمّا من ناحيةِ الداخل، فلا تسلْ، وحدّث ولا حرجْ.. فالناسُ يضعون احتمالاتٍ للداخلِ أكثرَ بكثير من احتمالات الخارجِ الذي نبديهِ لهم.. إنّهم يهوون الغوصَ في أعماقِ الآخرين، على الرغمِ من كونِ أغلبهم لا يتقنُ فنّ الغوص في أعماقِهِ الخاصّة، ويا لشدّةِ الأسف والهول!..

أعودُ للمتابعةِ المتقطّعة، المسروقةِ خلسةً؛ فألمحُ سعدًا متبسّمًا كالعادة، وألمحُ أمجدَ سعيدًا كما لم أرَهُ من قبل.. يا لغرابةِ هذا السعد، كيفَ استطاعَ أن يجعلَكَ يا أمجد قريبًا من الأنظارِ إلى هذا الحدّ،

وأنتَ القريبُ الأبعد؟!... كيفَ استطاعَ أن يعيدكَ إلى أحضانِ المشهد وينتشلكَ من أحضانِ الغياب بكلِّ هذه السرعةِ والسهولة؛ لتندمجَ مع عالمِهِ العامِّ الواسعِ الفسيح الذي ما زال كلّ يومٍ يتّسعُ أكثرَ وأكثر!...

أتساءلُ عن سرِّ سعد، فيما يتعاونُ هو وأمجد في توسيعِ الفسحةِ أكثر.. يتشجّعُ بعضُ الرجال ويقدّمونَ يدَ العون.. تتبرّعُ بتقديمِ المساعدةِ أيضًا بعضُ النسوة؛ لكنّ سعدًا يطلبُ من النساءِ بلطفٍ أن يبقين مرتاحات وألاّ يشغلنَ بالهنّ بالموضوع؛ فلديهنّ ما يكفيهنّ من اهتماماتٍ تتوزّع بين الطبخِ والجلي والغسيلِ والاهتمامِ بالأطفالِ ورعايتهم، على حدِّ قوله.. مع هذا، يتناولُ سعدٌ – بخجل – العلبَ والكراتين التي تناولهُ إيّاها النساءُ المصرّاتُ على المساعدة، مبديًا شكرَهُ وغبطتهُ، مثنيًا على روحِ المبادرةِ/الحشريّةِ القويّةِ عندهنّ!..

أبقى أراقبُ بصمتٍ وعلى وجل، لا أجرؤ على الاقتراب ولا الابتعاد، ولا على تقديمِ يدِ المساعدة – لا أحبّذُ الفكرةَ أصلاً– فالرجالُ بإمكانهم إتمامَ الأمرِ بمفردِهم حسبما رأيتُ وعاينت.. بإمكانهم أن يساعدوا سعدًا وحدهم، دونَ الحاجةَ للنساءِ المتطفّلات..

لكن.. ما المشكلةُ في ذلك؟ ما المشكلة في كونهم أحبّوا أن يساعدوا سعدًا وبادروا؟ أتراني أغار؟!.. يا إلهي.. ذاكَ السعد، الذي صارَ مجرّدُ الحديثِ عنهُ أو ذكرُ اسمِهِ أمامي أو حتّى التفكير به على انفرادٍ يصيبُني بالارتباكِ والاحمرارِ والحاجةِ إلى الهروبِ والاختباء/الاختفاء..

العجيب، أنّ سعدًا يمرُّ قربي كطيفٍ عابرٍ رقيقٍ شفّاف، دونَ أن يخدشَ نسمة.. هو لا يؤذي ولا يتطفّل، ومعَ كاملِ علمه بكوني

مراسلةً متطوّعة، فإنّه لم يتّخذ مرّةً من الأمر حجّةً لكي يحشرَ أنفهُ في عملي أو حياتي، أو ليحومَ حولي كما يحومُ الرجالُ الماكرونَ كالعادةِ حولَ النساءِ الجميلات، ولو حتّى بحسنِ نيّة.. وإن صدفَ واحتـــاجَ لمساعدةٍ عن طريقي، أرسلَ لي مرسالاً من الأطفالِ كي يخبرَني بمـــا يريد، أو طأطأ رأسه نحو الأرضِ غاضًّا صوتهُ وبصره، قاصدًا مباشرةً ما يريد، صائبًا لبّ الموضوع، تابعًا حكمةَ القول: "خيرُ الكلامِ ما قلّ ودلّ"...

سعد

مع الأيّام، أكتشفُ شخصيّةَ سعدٍ أكثر، وأزدادُ إعجابًا برزانتـــهِ وبأخلاقِهِ أكثرَ وأكثرَ وأكثر...

سعدٌ، ذلكَ الشابُّ البيروتيُّ الأصيل، صاحبُ الابتسامةِ المشرقةِ التي تنيرُ وجههُ وتنعكسُ بيسرٍ وتلقائيّةٍ على وجهِ كلّ مـــن يـــراه أو يسلّمُ عليه.. سعدٌ، المتواضعُ الملتزم، المطلق لحيتهُ دونَ أن يخشى مـــن صفةِ الإرهاب أن تلحقَ بهِ أو أن تُرمى عليه عنوةً.. هو بعيدٌ عنها كلَّ البعد... لطيفٌ إلى أقصى حدّ، رقيقٌ والرقّةُ تتجلّى في معاملتـــهِ مـــعَ الأطفال وقدرتهِ الجامحةِ على الاندماج معهم والـــدخولِ في عـــالمهم الخاصّ، والتفاهم معهم جميعًا بعفويّةٍ وتلقائيّة - كحاله مع الكبـــار- على وسعِ اختلافاتهم وتنوّعِ شخصيّاتهم.. هو لا يدّخرُ جهدًا مـــن جهودهِ لجعلهم يلعبونَ ويضحكون من قلوبهم؛ فبحسبِ عُرفِ سعد، وحسبما أخبرني أمجد، إنّ الأطفالَ إن توقّفوا عن اللعبِ والضـــحك، ماتوا...

- "لقد صرتَ تتحدّثُ عنهُ كثيرًا.. ما سرُّ هذا التعلّق؟".
- "أيزعجكِ ذلك؟..".
- "لا..".
- "ليسَ مثلَ غيره..".
- "تعني المتطوّعين المزعومين؟".

- "أعنيهم،.. وأعني الملتزمين المدّعين".
- "أحسنت.. أوافقكَ الرأي في هذا".
- "الحمدُ لله.. أخييرًا حنّ قلبكِ قليلاً عليه.. هههه".

أصفعهُ صفعةً على يده، تحدثُ دويًّا هامًّا في العتمةِ والصمت.. ثمّ أكمل:

- "وما يدريك؟.. لعلّهُ مثلهم؛ لكنّهُ قد يكونُ مجـــرّدَ ممثّـــلٍ بارع..".
- "ها قد عدنا من جديد للعبةِ المكابرةِ.. ليس صحيحًا.. أنتِ نفسكِ تعرفينَ أنّهُ ليس مثلهم، تدركينَ ما أعنيـــه، ألـــيس كذلك؟..".
- "كيف؟.. ماذا تعني؟!".
- "حدسُكِ الخارق".
- "صدقتَ...".

يصمتُ أمجد مبتسمًا، يتطلّـــعُ إلى عـــينيّ.. ويطلـــقُ الســـؤالَ الأصعب:

- "لماذا لم تتزوّجي حتّى الآن؟".
- "كنتُ متزوّجة"، أجيبهُ دونَ أدنى تفكير، وكـــأنّني كنـــتُ أنتظرُ هذه اللحظةَ الحاسمةَ بالذات، وهذا السؤالَ بالتحديـــد لأنطقَ وأزفرَ وأتنفّس..
- "ممم.. ماذا جرى؟ هل افترقتما؟".
- "فرّقنا القدر...".
- "رحمهُ الله..".
- "آمين، ورحمنا جميعًا..".

- "هل استشهدَ وهو يحاربُ الصهاينة؟".
- "لا، كان مسعفًا في الدفاعِ المدنيّ..".
- "إذًا، استشهدَ في عمليّةِ إسعاف، أليس كذلك.. ماتَ في الحرب؟".
- "بل ماتَ في السلم،.. همهه بسكتةٍ قلبيّةٍ وهو يحتسي كوبَ شاي..".
- "تضحكين.. لم تحبّيه؟".
- "بل أحببتُهُ حدَّ الأمل، فانقطعَ الأملُ ومات".
- "وعلامَ تضحكين؟".
- "على سخريةِ الحياة.. على هيافتِها وقلّتِها وسطَ غزارةِ الموت..".
- "لذا جئتِ إلى هنا؟".
- "ليس بالتحديد.. لكنّهُ كان سببًا.. من أحدِ الأسباب، ربّما..".
- "لم تنجبا أطفالاً؟..".

تخنقُني العَبرة.. لا أدري ماذا أقول.. أأقولُ لهُ أنّ طفلاً على وشكِ التشكّلِ يقبعُ الآنَ وسطَ أعماقي، الآن وفي هذه اللحظةِ بالذات؟.. أأخبرهُ أنّني أخفي وأنكرُ في داخلي حلمًا جئتُ لأدثّرَ أشباهه؟.. ماذا أقول؟... لم يسعني القول، لم يسعني... وحدها الدمعةُ وسعت كلّ شيء.. وحدها.. فاضَ الدمعُ، وانسكب الشلاّل...

بوح

ليلةَ أمس، قلتُ كلّ شيء.. أخبرتُ أمجد حكايتي كلّها، مع الأعماق وما بينَ السطور.. كانت المرّة الأولى التي أبوحُ بها لأحدٍ بكلِّ شيء.. حتّى أحمد، لم أكن لأسمعهُ قصّتي كلّها بحذافيرها وفواصلها ونقاطِها ومحطّاتها المنزويةِ المعتمة.. حتّى مشاعري أخبرتُهُ عنها، أسمعتُهُ إيّاها، حتّى صمتي، سمعه.. وهو الذي كان يحسنُ الصمتَ والاستماع..

قلَّ اشتعالي، خفّ اللهيبُ الذي يحاصرُ قلبي،.. وكأنّي تنفّستُ الصعداء... يااه.. ما أروع هذا الشعور.. كأنّ الفضفضةَ انصبّت عليّ مرّةً واحدة، وأفرغتني من كلّ تلكَ الحمولةِ الزائدة..

أمجد لم يقل شيئًا، لم يعلّق ولو بكلمةٍ أو سؤال.. ولا حتّى بحرفٍ واحد... كان يعلّقُ نظراتهُ في الفراغ، ويتتبّعُ الروايةَ باهتمامٍ وتأثّر، وكأنّهُ كان يفهمُ أنّ هذا كلّ ما أبغيه.. أن يسمعني بقلبهِ دون أن يقولَ شيئًا ودونَ أن يفتحَ فاه.. سبقَ لي أن جرّبتُ القيامَ بدوره، حين أخبرني قصّته؛ لكنّي لم أستطِع حينها أن أخفي دمعةً ترقرقت، واهيةً تخفّت، ثمّ انحدرت من عيني رغمًا عنّي... وحدهُ أمجد يملكُ تلكَ القدرة، وحدهُ القادرُ على تبليلِ صفحةِ وجهي بالدموع وترطيبها بعد جفافٍ قاتلٍ ألمّ بها لمدّةٍ طويلةٍ من الزمن... وكأنّهُ انعكاسٌ لذاتي، وكأنّي حينَ أبكي أمامهُ أبكي أمامي من الداخل،..

أمامي فحسب.

- "أنتِ قادرةٌ على الإحاطةِ به..".
- "الذي هو؟".
- "الحُلم الذي ما زال ينمو..".
- "أخشى عليهِ من المحيط؟".
- "ستكونين أروعَ أمّ".
- "بإذنِ الله.. أشكرك".
- "على ماذا؟.. لم أقل إلاّ الحقيقة".
- "أسعدَ اللَّهُ قلبك..".
- "وقلبكِ.. قلبـــي سعيدٌ الآن والحمدُ لله".
- "تغيّرتَ كثيرًا منذُ تعرّفتَ إلى سعد. أشعرُ أنّه أثّـــر فيـــكَ بشكلٍ ملفت..".
- "بالتأكيد.. الحمدُ لله".
- "سعيدةٌ لكَ لأنّكَ صرتَ سعيدًا!".
- "سأكونُ أسعد حين أنقلُ لكِ العدوى لتنقليهـــا إلى بـــاقي الأطفال بدءًا من طفلكِ المنتظر.. ماذا تنوينَ أن تسمّيه؟".
- "لم أفكّر في الأمر بعد.. ربّما لأنّي لم أعرف جنسه بعد..".
- "أو لأنّكِ لا تريدين أن تعرفي..".
- "أظنُّ أنّني سأنتظرُ حتّى يأتي لنقرّرَ ماذا نسمّيه معًا.. سنختارُ لهُ اسمًا يليقُ بشكله وما يوحيه لنا يومُ ميلاده..".
- "أرأيتِ.. لقد أصابتكِ العدوى وبسرعة.. مناعتكِ قليلةٌ يا مسكينة..".
- "هههههه تمنَّ ليَ الحظّ..".

- "سأدعو لكِ الله".

أبتسم،.. لا أقولُ شيئًا...

- "وأنتِ أيضًا أكثري من الدعاء والصلوات.. صحيح، نسيتُ أن أخبركِ أنّهُ قد صار باستطاعتكِ أن تصلّي معنا ابتداءً من يوم غد.. ألم تري كيف صارت الفسحةُ واسعةً جدًّا؟".
- "باركَ اللَّهُ فيكم.. رأيتكم تعملونَ صباحًا..".
- "رأيتكِ تراقبيننا هههه".
- "لم أكن أراقب..".
- "تتلصّصين فحسب هههههه..".
- "هههه ولِمَ أفعلُ ذلك؟ الكلُّ كان يتفرّج..".
- "صحيح.. ما علينا...".
- "أتركَكِ لترتاح..".
- "رهف..".
- "نعم؟".
- "انتبهي على نفسك".
- "إن شاء الله.. أنتَ أيضًا".
- "نامي جيّدًا".
- "حسنًا.. تصبحُ على خير يا طبيبيَ الصغير".

لا أدري لِمَ أخافتني كلماتُ أمجد، وكأنّهُ كانَ يخشى وقوعَ مكروهٍ ما.. توقّعتُ أنّهُ شاهد كابوسًا أو ما شابه.. خفتُ هذه المرّة، على غير عادة، لا أدري على من بالتحديد، عليَّ أم على الجنين؛ لكن جلّ ما أذكرهُ أنّني قد خفتُ وحسب...

الشهرُ الرابع

الشهرُ الرابعُ يبتدئ، يتوسّط، ثمّ ينتهي.. طفلي بدأ يكبرُ بسرعة، بطني بدأ يتكوّرُ ويظهرُ للعيان.. الفضيحةُ قد اقتربت، لا بأس، ربّما لم أعد أحسبُها كذلك... كلُّ شيءٍ صارَ يمضي بسرعة، الوقتُ والأحمال.. لا أثقُ بالسرعةِ، لا أمانَ لها، لكنّني أحترمُها.. على الأقلّ تعطينا الجوابَ الشافي قبلَ أن تُحرقَ أعصابَنا، وتختارُ الطريقَ الأقرب. أشعرُ أنّ مشاعري بدأت تتبدّل، نحو هذا الطفل القابع فيَّ، دبّ الحنانُ فيَّ فجأة، وصرتُ أشتاقُ إلى مرآه..

أتراها روحُ الأمومة؟ أهي المشاعرُ الرائعة تلك التي نسمعهم يتكلّمون عنها دائمًا في الأفلام وفي المسلسلاتِ الوهميّة؟ على كلٍّ حال، لم أكن لأتعرّف إليها لولا تلكَ المسلسلات والقصص المفبركة، وأنا التي كانت النساءُ الحوامل حولي لا تزخرُ في الملاجئ إلاّ بمشاعرِ الألمِ والخوف.. وماذا تعني مشاعرُ الأمومة في عالمٍ تُقتَلُ فيهِ الأمومةُ كلَّ يومٍ قبلَ أن تصير؟ قبلَ أن تحلمَ بأن تصير.. أُخلدُ إلى النومِ في النهاية، قبلَ أن تأتي النهاية...

الفجرُ أرخى سدوله، أذانٌ وتكبيراتٌ حيّةٌ عذبةٌ داهمت مسمعي وهيّجت أدمعي، قاطعةً عليّ موتتي الصغرى المؤقّتة. يا الله! كم هي رائعةٌ كلمات الأذان هذا اليوم.. إنّها المرّةُ الأولى التي أستشعرُ فيها روعةَ الأذانِ ورقّتهُ بمثلِ هذا الشكل، بمثلِ هذا الحبِّ المفعم.. اللّهُ أكبرُ

لامست قلبي وروحي.. شعرتُ بأنّهُ حقًّا أكبر من كلّ هذه المأساة، من كلّ ما قد حلَّ وما أخافُ أن يحلّ.. وأكبرُ ممّا لا أخاف، فإنّ عدم الخوفِ قوّة، واللّهُ أكبرُ من هذه القوّة!..

أطلَّ برأسي خارجَ الخيمة، الريحُ تدفعُ رأسي دفعًا والثلجُ يطمسهُ ليغيب، ويأبى قلبي أن يغيب. أرى سعدًا ينهي الأذان، والثلجُ قد غطّاهُ كلّه، صارَ أشبهَ برجلِ ثلج.. لكنّها مجرّدُ قشرة.. تلمسُ قلبهُ فتذوب، تلمسُ روحهُ فتذوب... ألمحُهُ يصلّي وحده، ثمّ يطلُّ من بعيد فتًى صغيرًا أعرفه، إنّهُ بالطبعِ أمجد،.. لم أُفاجأ بالتأكيد.. يبدأُ بالصلاةِ خلفه، وحدهُ هو الآخر.. أعرفُ حينها أنّهما يصلّيان السنّة.. أدخلُ خيمتي وأجاهدُ للوضوء، الصقيعُ يجمّدُ أصابعي، تتجمّدُ كلّ أعضائي، إلاّ القلب؛ فقد كانَ سائلاً للغاية، أصبُّ على أعضائي منهُ لأتدفّأ وأكملَ الوضوء.. أرتدي ملابسَ الصلاة، إنّها المرّةُ الأولى التي أصلّي فيها صلاةَ الفجرِ في وقتِها منذُ مدّةٍ طويلة، طويلةٍ جدًّا.. لم أعد أذكر متى كانت آخر مرّة..

لا أدري لماذا يشدّني الأذانُ هذه المرّة رغمًا عنّي لأقوم وأقاومَ كلّ هذا البردَ والثلجَ، كلّ هذا النعاس والتعب.. أصلّي ركعتين، سنّة ما قبل الفجر، ثمّ أنتظرُ الإقامةَ قليلاً.. وبعدَ ثوانٍ أقرّر أن أصلّي عدّة ركعاتٍ لله.. لا شيءَ جديد، لا شيءَ يحدث لي.. صلواتٌ عاديّةٌ مثلَ كلّ مرّة، لا أذوقُ فيها أيّ طعمٍ جديد، لا أستشعرُ فيها لذّةً تُذكَر..

أنتظرُ قليلاً ريثما تبدأُ صلاةُ الجماعة، دونَ أن أفعلَ شيئًا سوى الانتظار، وحين يشرعُ سعدٌ بالإقامة، أطلُّ برأسي مرّةً أخرى جديدة؛ لأتفقّد عدد الموجودين، فلا أجدُ إلاّ سعدًا وأمجد!.. أنتظرُ أن تخرجَ

على الأقلّ امرأةٌ واحدة، رجلٌ واحدٌ إضافيّ.. أريدُ أن أصلّي هـذه الجماعة يا ربّي، أحتاجُها فعلاً... لكن، ويا لخيبة أملي.. لم يخرج أيّ أحدٍ آخر غيرهما للصلاة، وبالطبعِ لم أخرج أنا الأخرى، فقد اخترتُ أن أبقى داخلَ الخيمةِ وأصلّي الفرضَ داخلَها وحـدي.. ثمّ قـرّرتُ اختيارَ أفضلِ الحلول، أن أصلّي الجماعةَ معهم من داخلِ الخيمـة، لم لا؟.. حصلَ هذا، وكانت أجملَ صلاةٍ أصلّيها منذُ أعوام... تمنّيتُ لو أنّها طالت أكثر.. لو أنّ سعدًا زادَ في عدد الآيات، الصـفحات... تمنّيتُ لو أنّهُ أعادها مرّاتٍ ومرّات لمصلّين آخرين تاهت منـهم و لم يلحقوها... لكن، كانت تلك الصلاة فقط، وانتهت، ثمّ عاد الاثنان كلٌّ منهما إلى خيمته، بعد أن تحادثا لفترةٍ وجيزة، كنتُ أسمعُ فيهـا دندناتهما دونَ أن أتقصّد ذلك، ودونَ أن أنوي سرقةَ شـيءٍ مـن حديثهما الذي كنتُ أتشوّقُ لمعرفته؛ لكنَّ الريحَ والصمتَ وحـدهما كانا كفيليْن بفعلِ تلكَ السرقة..

في اليومِ التالي، تشاركُ النساءُ في صـلوات الجماعـة كلّهـا، وأشاركهنّ أنا أيضًا، وأساعدُ في دعوةِ المتخلّفـات عـلّ إحـداهن تستيقظ من سباتٍ طالَ مكوثه... كانت الأعدادُ كلّ يومٍ في ازديادٍ مستمرّ؛ فالواحدةُ تدعو قرينتَها، والأخرى تحمّسُ وتشجّعُ وتمـدحُ بتلاوةِ الإمام وحسنِ أدائه وخشوعه.. ومن تتخلّفُ لا تتخلّـفُ إلاّ لعذرٍ شرعيّ؛ فإمّا أن تكونَ حائضًا، أو نفساء، أو أن تكونَ مضطرّةً لكونها مرضعةً ورضيعُها لا ينفكُّ يتشبّثُ بالثدي لا يرضى إفلاته..

نور

لم أخبر أمجدَ في مساء ذلك اليوم أنّني قد رأيته مع سعدٍ يصلّيان صلاة الفجر جماعةً.. لم أخبرهُ بتوقي للوقوفِ خلفهما والصلاةِ على وقعِ همسٍ خاشعٍ هزّ أعماقي هزًّا منذ ابتداء الأذان وحتّى السلام الأخير.. لم أخبرهُ بالمشاعر التي خالجتني، وبالدمعاتِ التي تساقطت من روحي ذاتَ جماعةٍ وأنا أصلّيها من خلفِ خيمة!.. اكتفيتُ فقط بالحديثِ معه عن الصلوات الباقيات التي صلّيتها معهم في نهارات الأيّامِ المتكرّرة، والتي أنوي أن أحافظَ عليها دائمًا إن أذن اللّهُ لي بذلك..

في فجر أحد الأيّام، وأنا في نهايةِ شهري الرابع من الحمل، أطلُّ برأسي كالعادة من الخيمة بعد سماع الأذان.. كانت الرياح قد زادت قليلاً عمّا كانت عليه في الأيّام الأخيرة التي مرّت، والثلجُ بدورهِ قد زاد تساقطه هو الآخر.. كنتُ أرتجفُ من البرد ارتجافًا، ولا أقوى على تحريكِ يديّ من بعد إتمام الوضوء.. تنمّلت أطرافي وتيبّست، وصار لونها خليطًا فنّيًا مختلطًا ما بين الأزرق والبنفسجيّ.. دفّأتُ يديَّ قليلاً إحداهما بالأخرى، لبستُ ثيابَ الصلاة، ولففتُ رأسي بشالٍ صوفيٍّ زهريٍّ، أتوقّعُ أنّ الكلّ هنا قد صار يميّزني به.. أتذكّرُ هذا، وبسرعةٍ أخلع الشال، وأرتدي واحدًا آخرَ لم يسبق لي أن ارتديتُهُ إلاّ مرّةً واحدة حسبما أذكر، علّني أتخفّى فلا يعرفني الاثنان في الخارج، هذا في حال تطلّع أحدهما أصلاً..

أصلّي السنّةَ وحدي، على انتظار/أمل أن يتجمّع بعض الرجال الإضافيّين، وكما كان في الحسبان، لم يأتِ إلى جماعةِ الفجرِ إلاّ الاثنان المداومان، وأنا، التي أداومُ معهما كلّ يومٍ على الصلاة من داخل خيمتي دون أن يشعرا بذلك طبعًا.. أتشجّع هذه المرّة وأحملُ نفسي على الخروج برغم شدّة حرجي وخجلي.. برغم ارتباكي وعدم معرفتي لما يمكن أن يحدث لاحقًا.. لكنّي أحببتُ أن أشاركهما الصلاة ولو مرّةً واحدة، عن قرب؛ لأحظى بهذه السعادةِ الكاملة التي حظيَ بها أمجد، والتي استحقّها عن جدارة؛ لأنّهُ الصبيُّ الأمثلُ في نظري، وليس في نظري أنا فقط، بل هو حقًّا كذلك..

يقيمُ سعدٌ الصلاة، أنتظرُ هنيهةً ريثما يدخلُ في الصلاة ويبدأُ بفاتحةِ الكتاب.. أتسلّلُ على مهلٍ وأندسُّ بينَ المصلّين – ليس بينهما تمامًا – لأكونَ ثالثتهما، ولكن في الخلف طبعًا..

ينهي سعدٌ الفاتحة، ثمّ يقرأ:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾..

لا أقدرُ أن أملكَ نفسي، أبكي وأبكي وأبكي، أشهقُ دونَ أيّ توقّف.. دموعي لم تعد تكفيني..

شهيقي صارَ أقوى منّي، لم أعد أقدرُ أن أكتم... صوتي وصلَ إلى الأمام والوراء وانتشرَ في كلّ الأرجاء، تقاذفتهُ النواحي كلّها.. ما عدتُ أقدر أن أتخفّى بعد أن هزّتني آية، ويا لروعتها من آية..

أدعو الله في الصلاة وقلبـــي وجلٌ يغرق: "يا الله اهدني لنورك، يا الله اجعل لي نورًا أهتدي به فلا أضلّ ولا أكلّ ولا أخاف.. يا الله، وفّقني، ساعدني، قوّني كي أدثّر الحلم.. يـــا الله.. لا تتـــركني، أنـــا وحيدة، أحتاجك يا رب، أنا ضعيفةٌ فقوّني، أنا عمياء فـــدعني أرى بنورك يا نور السماوات والأرض...".

لم يسمع دعائي أحد، أمّا الشهقات؛ فأكادُ أجـــزمُ أنّ المخـــيّم بأسره قد سمعها.. تجمّع النساء والرجال، وجاؤوا ليروا مصدر هـــذا الصوت النسائي المتقطّع الذي دبّ إلى مسامعهم وهم نيام؛ فأيقظهم ليقوموا للصلاة وهم على غير وضوء.. وما هي إلاّ لحظـــات حتّـــى رجع الكثيرون منهم إلى الخيام ليتوضّؤوا ويعودوا..

فيما كان سعدٌ لا زال يقرأ، أسرت الغصّةُ صوتهُ وجعلتهُ يخرجُ مرتعشًا/راجفًا متقطّعًا، بعد أن كان صوتُه العذبُ الناعمُ يتمايلُ مع الآياتِ كما يتمايلُ الزهرُ الغضُّ مع النسيمِ الربيعيِّ الحلوِ الأخّـــاذ.. تابعَ سعدٌ تلاوتهُ بعد ذلك بنفسِ العذوبةِ والرونق، وتوقّفت شهقاتي أخيرًا، بعد أن قدرتُ على التحكّم بنفسي قليلاً، رغـــمَ صـــعوبةِ ذلك..

انتهت الصلاة، وسلّم سعدٌ على المصلّين بغبطةٍ وفرح، والنـــورُ يتلألأ على وجهه كأنّهُ قد أضيءَ للتوّ من ذاك الكوكبِ الـــدُرّيّ.. رأيتُ الكثيرين يحتضنونه وهو يربّتُ على كتف الكثيرين، وكأنّـــهُ أمٌّ حنونٌ طحنت قمحَ الأمومةِ وعجنتهُ بيدَيها الدافئتين؛ ليصبحَ خبـــزًا مبارَكًا تُطعمُ بهِ أطفالَها مِن جودِ ما صنعتهُ يداها، أَو أبٌ عطـــوفٌ معطاء قد خبرَ الأبوّةَ لفترةٍ طويلة، وصار دورهُ اليومَ أن يعلّمَ أبنـــاءهُ بدورهم كيف يكونونَ آباءً رائعين..

العجيب، أنّ سعدًا لم يجرّب أن يلقي ولو نظـــرةً إلى الخلـــف، حيث النساء تجمّعن حولي تحاولُ كلٌّ منهنّ تهـــدئتي واحتضـــاني.. الرجالُ تطاولت أعناقهم، لم أتقصّد أن أراهم؛ لكنّهم كانوا مصرّين على جعل رؤوسهم مرئيّة لكثرة ما كانوا يرفعونها ويمطّونَهـــا حتّـــى خُيِّل إليّ أنّ قواعدها قد تمزّقت.. تسائلني النساء عن سبب البكـــاء، وأردُّ: "الآية أثّرت فيّ".. تهزُّ النساء رؤوسهنّ يعلنّ الموافقة، فيما أسمع بعضهنّ تردّد: (إي والله، سبحان إلي خلقو عهالصوت الحلو والمؤثّر يلّي كلو خشوع)..

أنسحبُ بهدوء، بعد أن أعتذر منـــهنّ، ثمّ أعـــودُ إلى خـــيمتي لأستكملَ البكاء هناك، وحدي، دونَ أدنى بشر، على وقعِ أدعيـــةٍ لا أدري من أين توسّع صدري لها.. وكأنّها صُبّت عليَّ مرّةً واحـــدة.. أتذكّرُ كلام أمّي:

"يقولُ العارفون: إنّ العبد إذا أُلهِم الدعاء، أُلهِـــم الإجابـــة، والله إن أحبّ عبدًا ألهمه لكي يدعوه، ويكفيه أنّه قد ألهمـــه..." أبكي أكثر، وأقول: "يا الله ألهمني.. يـــا الله أحبـــبني.. يـــا الله، ردّني إليك، يا الله.. أنا منك وإليك.. دلّني علـــى طريقـــكَ يـــا رحيم...".

لم أعد إلى النوم، أصِلُ الفجر بالضحى، وأنا أدعو وأفكّر بجمال هذه الصلاة وروعتها.. لقد كانت صلاةً رائعةً لم أتذوّق مثل روعتِها من قبل... حين بدأ سعدٌ بالتلاوةِ، شعرتُ بـــأنّ روحـــي فـــارقتني وحلّقت نحو أماكن أخرى، نحو جنّاتٍ بلا انتهاء، ولم تعـــد إليّ إلاّ حين كانت قد امتلأت حتّى الشفّة من أنوارِ الجنّةِ وطيبها وعبقهـــا ومسكِها والبخور... حفظتُ رائحةَ العبق، بروحي قد شممتُها، بقيت

عالقةً فيّ حتّى اللحظة، لم تفارقني للحظة.. تلاوةٌ تأسرُ القلبَ وتملّيــهِ بما يحلو من الأنوار؛ فتزيل عنه الرانَ العالق...

"اللهمّ أزح الران عن قلبــي وأرحهُ من كلّ الهموم والأثقــال والذنوبِ التي علقت به إلى أن صار تعِبًا مُنهكًا..".

بينَ الطفولةِ والتطفّل

يحبُّ الناس – وأنا منهم – أن يفسّروا كلّ شيء، أن يشـــرّحوا كلّ شيءٍ ويعرّوهُ عن بكرةِ أبيه!.. يحبّون أن يحلّلـــوا كـــلّ شـــيء، الظواهرَ والمظاهرَ والأشياء... حتّى النظرات، يحبّون أن يقتحموهـــا ويخترقوها حدَّ العمق؛ ليجتثّوا نبرةَ الألمِ الكامنةِ فيهـــا، وليستشـــفّوا أسبابها والمسبّبات!.. هذا ما يحبُّه الناس، ولا أبرّئُ نفسي؛ فأنا مثلهم – أحيانًا – أهوى الماورائيّات، وكلُّ ما يخفى ويسيل.. إلاّ أنّي، على الأقلّ، لا أهوى تفسير مشاعرِ العبدِ المتسرّبة وانفعالاته اللاإراديّة التي تنضحُ منهُ فجأةً وعلى غيرِ قصد – إن أحسنّا النيّة – وهو يناجي ربّه، كأن يبكي بحرقةٍ بين يديه.. لستُ على ضلاعةٍ بالموضوع ولا قـــدرةَ لي على الاجتهادِ فيه، ولا مجالَ للاجتهادِ أصلاً...

فبدءًا من طفولتي التي عبرت غفلةً، ومرورًا بأيّامِ صـــبايَ الـــتي تفلّتت منّي ومازالت في تفلّتها الهائلِ المستعِر، حينَ كانت أمّي رحمها الله تتضرّع للخالق فجرَ كلّ يومٍ ومساءهُ، كنتُ أكتفـــي بالشـــفقةِ عليها؛ لظنّي أنّها تتألّم، أو لأنّي حسبتُ – للأسف – أنّها كانـــت مريضةً بالأمل، الأمل بالله... لم أكن لأدرك في حينها أنّ الأمل بالله هو الشفاءُ بعينه، وأنّ مجرّد البكاء بين يديه كان هو الجوابُ الـــذي كانت أمّي تنتظرُ أن تتلقّاه، والراحة والسكينة التي كانت تكفيها لكي تستكمل الطريقَ... لم أكن لأحلّل شيئًا، خاصّةً في ما يختصُّ بـــأمور

العبادة، وعلى الأخصّ عبادة أمّي؛ لأنّي أصلاً لم أكن أفهمُ شيئًا و لم أكن أريدُ أن أفهم.. كنتُ مغرقةً باللامبالاةِ والغياب، صامتةً عن الكلامِ وتوابعه، وما يستنطقُ الكلامَ من تفكيرٍ وتفسيرات.. كنتُ أكتفي بإتمام ما عليّ من واجباتٍ حركيّةٍ رياضيّةٍ بحتة، أضواؤُها باهتة، فلا هيَ تشعلُ انطفائي، ولا هي تطفئُ الاشتعال.. لم أكن لأفكّر أو أحلّلَ عباداتي؛ فكيف لي بالتطفّل على عبادات الآخرين؟.. لكنّ أمّي كانت دائمًا تدعوني لكي أتطفّل، تدعوني لأكونَ دومًا قربَها، أرقبها من الداخلِ قبل الخارج؛ لكي أغوص.. وأنا آبى الغوص، وأستقرّ على سطحِ الشفقةِ، العائم فوقَ ضريحِ روحي، والذي لم أكن قد لمحتُهُ بعد.. فلمّا لمحتُه، عرفتُ أنّي أنا التي كنتُ أستحقُّ الشفقةَ لا هيَ!...

ها قد أشرقت شمسُ اليومِ الموعود/غير المتوَقّع، يومِ التطفّلِ العالميّ.. وها أنا أرى الكلَّ حولي يعومون فوقَ خشبةِ الشفقة، فوقَ سطحها.. الخشبةُ لم تعد تتحمّل، ستقذفُ بهم جميعًا نحو قلبِ الحقيقةِ بعدَ أن تنكسرَ بثقلهم وتغوص بهم نحو الأعماق؛ كي يلاقوا أنفسهم وأرواحهم بخفّةٍ وبلا أثقال.. أرى النظرات تعلو وتنخفض هنا وهناك، بلا استقرار.. بلا أرضٍ تحطُّ عليها أو قرار.. لكن مهلاً.. لستُ أرى الخشبةَ وحدها، بل أرى أجسامًا غريبةً أخرى دخيلة، مرئيّةً وغير مرئيّة، لا يكسرُها ثقل الناس، تكادُ تسحقُني بثقلها..

هذه هيَ الصبيحةُ الأثقل، تتسلّلُ النساءُ إلى خيمتي، الواحدةُ تلوَ الأخرى، بحجّةِ الحاجةِ التي تستدعي ذلك!.. وحاجة من؟ حاجتي أنا طبعًا.. فأنا التي كنتُ أبكي وأشهقُ منذُ ساعاتٍ عدّة في صلاةِ الفجر، وأنا التي كنتُ أنتحب.. إذًا أنا التي تستحقُّ الشفقة أن تتبعها،

مع أجسامٍ أخرى عجيبة!.. تلكَ الحاجةُ الماسّة، حاجتي لمن يطمئنُّ عليّ، ولستُ أدري عن أيّ حاجةٍ يتكلّمون، ولا أيّ اطمئنان يعنون!.. فحاجاتي كثيرة، لا أملكُ شخصيًّا حصرَها،.. ولا طمأنينةَ في العراء لكي يملكَ أن يمنحها أحدٌ، يخترقُ أنفاسَ أحد.. الطمأنينةُ هبةٌ، يمنحُها فقط الواحدُ الأحد!...

تتكاثرُ النسوةُ حولي، يهطلن بغزارة، كعادتهنّ في التكاثر والتجمّع والانهمارِ مرّةً واحدة كما يفعلُ السيلُ الجارف، لا جديد.. الجديدُ فقط أنّهنَ الآن في مقرّ عزلتي الأوحد، في معقلِ أسراري وأفكاري.. الأوراقُ المتراكمة والمبعثرة، والدفاتر والأقلام المزروعة هنا وهناك، تشدّ أنظار النساء؛ فيتطلّعنَ بفضولٍ إلى قراءةِ شيءٍ من فحوى شتاتي، ولا يقدرن..

وعلى وقعِ الأحاديثِ المنمّقةِ المتناقضة والكلمات المتقاطعة المتداخلة، تبدأُ النسوةُ بتحليلِ أنفاسي، وشهقاتي التي ولّت منذ ساعاتٍ و لم تتسرّب من أذهانهنّ ولا أذهان رجالهنّ؛ فجئنَ مسرعات، مرسَلاتٍ وغيرَ مرسَلات، بكلّ ما في وسعهنّ من أسئلةٍ وتفسيراتٍ وفرضيّات.. المهمّ أنهنّ قد جئنَ وكفى؛ ليكونَ الواجبُ قد تمّ.. وتبدأُ الأسئلةُ والافتراضاتُ برمي نفسها عليّ وحولي من كلّ الجهات، تتدفّقُ من كلّ صوب.. فواحدةٌ تجزمُ وتقول: "لا شكّ أنّها قد تأثّرت بمآسي الأطفالِ ومعاناتهم.. المسكينةُ تحتاجُ للراحةِ، فهي غير معتادة على الأسى والأحزان.. قصّةُ أيّ مسكينٍ هيَ، تلكَ التي أثّرت بكِ إلى هذا الحدّ يا ترى؟". وأخرى تهزُّ رأسها بسخريةٍ وترمقُ الأخرى بمكر: "أو لعلّها اشتاقت لحياة العزّ.. العزّ للرزّ يا تقبريني والبرغل شنق حالو..". والثالثة تخترق الاثنتين، وتطلعُ بالفرضيّةِ

الخالصة التي تؤكّدها بسرعةٍ حالَ طلوعِها وبغير حاجـــةٍ للإثبـــات: "لعلّها تشتاقُ لحبيبها الذي تركتهُ في ديارها هناك.. عشـــقانة بعيـــد عنكن هههههه احكيلنا يلاّ مين سعيد الحظّ؟". وتضـــحكُ النســـاءُ ضحكةً طويلةً صاخبة مليئةً بالهضبات.. وتطلـــعُ امـــرأةٌ جديـــدة، بفرضيّتها الخاصّة الجديدة، وأخرى، وأخرى، وأخرى، كلٌّ بنكهتها التطفّليّةِ الخاصّة، وكلٌّ بتحليلها المتميّز الذي لا يوازيه آخر، ولا يقلُّ عنه في التجدّد والغرابةِ والابتكار! كلُّ واحدةٍ تطلق الفرضيّة وتـــرى حقيقتَها من زاويتها الشخصيّةِ الخاصّة.. أمّا أنا، تلكَ التائهة؛ فمن أيِّ زاويةٍ تظهرُ ليَ الحقيقة ويبدو التجلّي؟ ومن بين كلّ التحليلات، أحتارُ ماذا أختار؛ فأختارُ الصمت، وأبتسمُ على مضضٍ للفراغِ الذي أُفرغَ هو الآخر.. عيناي تلجآن للشرود؛ كي لا تُحطَّ فتُســـجَن.. صـــوتي يسافرُ للهرب؛ كي لا يقيمَ فينزلق، ويقعُ في فخِّ الأوغاد...

أشعرُ بإحدى النساء تتابعُ التكوّر في بطني الـــذي لم يتســـنّ لي إخفاؤُهُ كما أفعلُ عادةً، حيثُ داهمتني الحشود.. أسمعها تتســـاءلُ في نفسها، وهي تحملقُ بفضول، وسؤالها يكادُ يقتلعُ الإجابةَ من رحمـــي اقتلاعًا: "أتراها كانت تبكي على خطيئةٍ كبيرة، أو ذنبٍ فظيعٍ اقترفته هنا في المخيّم؟ وحده الذنبُ العظيم يجترُّ هذه الشهقات!.." وتـــدور الدوائر في محاجر عينيها؛ لكنّها لا تصلُ إلى جوابٍ شافٍ..

أجرّبُ ابتلاعَ بطني، ولا أقدر.. أشدُّ كنزتيَ نحو الأسفل؛ لكنّ النظراتِ تزيدُ ثمّ تتكاثر... وكأنّي قد زدتُ النساء من قوّة الملاحظـــةِ جرعة! شعرتُ للتوّ أنّ قصّتي قد انكشفت، وأنّ السرّ المخبّأ في جوفي قد باتت أيّام اختبائه معدودة.. أسلّمُ للقدر، قائلـــةً في نفســـي: لا فرق.. لم أرتكب أيّ جرم، أنا فقط أنكرتُ الحلمَ الدائر..

بتحدٍّ أتأمّلُ النساء، أطلّ عليَّ وعليهنّ مِن مكـــاني الشخصـــيِّ الأوحد، من عالمي الفرديّ الناصعِ غير الصالحِ للضيافةِ والسكن، الذي لم يحدث لإحداهنّ قبل اليوم أن تجتازهُ قسرًا إلاّ بدعوةٍ استثنائيّةٍ منّي، وقلّما يحصلُ ذلك، نادرًا ما يحدث، إلاّ مع الأطفال.. هم وحـــدهم من يملكون الرخصةَ الدائمةَ الاستثنائيّة للعبورِ المفتوح؛ فأنا لا أستدعي إلى عالمي إلاّ ما يخصّني وما يشبهُني، وما أنا في صدد البحـــث عنـــه لأحميه وأحتمي به... أستقبلُ الأطفالَ فحسب، أتقبّلهم هم فقـــط، ومع أنّهم ما عادوا يشبهون الطفولةَ في الملامحِ والصور، يبقى خيطُها في أعماقهم، يلمعُ لأسحبهُ فيسحبُني.. ويقصُّ الأطفال عليّ حكاياتِ الألم، بعيدًا عن أهاليهم؛ فأكتبُها بكلّ ألم؛ لأمحوها بعد ذلـــك عـــن مآقيهم..

يتنهّدُ الأطفالُ ويفضفضون، تتبعهم الأمّهاتُ في بعضِ الأحيان، خوفًا عليهم من الخلوةِ بالغريبةِ الآتيةِ من العالم الآخر، المترفّع عن الآه والأوجاع.. يخشى الآباءُ والأمّهاتُ – إن وُجدوا – على أطفالهم من العدوى؛ فبحسب ناموسهم العجيب وتفكيرهم الغريب كلُّ ســـاكنٍ هو بالضرورةِ في سكينة، وكلّ من كان في سكينة هـــو بالضـــرورةِ مذنبٌ لأنّهُ لا يشاطرهم الوجع.. وكلُّ ناقلٍ للأحداث هو بالضرورةِ محميٌّ منها، منفصلٌ عمّا تكنّه من تشرذمٍ وضياع.. فلكـــي تكـــون منهم، ولكي يتقبّلوك، عليكَ أن تتألّم بصوتٍ عالٍ، وإلاّ فمكانـــكَ المنفى..

والمراسلُ المتأنّقُ من الخارج، بطبيعةِ الحال – غير الطبيعـــيّ – لا يُصابُ بالأذى ولا يُخدَش، كلُّ ما يفعلُه هو الاستماع ونقل القصص للناس.. ذاك واجبه، إنسانيًّا على الأقلّ، تكفيرًا عن تقصيره في بـــذل

الألم، وعدم اشتراكه في مسلسل الموتِ المتتابع...

أنسحبُ من الإطار كي لا أجرحَ الصورة.. ألوذُ لخيمتي مساءً، أعانقُ قلمي والورق، ثمّ أكتب بكلّ ما فيَّ من غربة...

غربة

أدركُ اليوم، واليومَ بالذات، أدركُ بشدّةٍ أنّي – أنا الغريبـــة – لا أنتمي إلى كلِّ هؤلاء، ليس لكوني مراسلة، بل لكون رسالتي لا تصلُ إليهم،.. ليست لهم أصلاً... أنا لا أنتمي إلى أولئك النساء الثرثارات الصاخبات اللواتي يملكن القدرةَ الكاملةَ على تخطّي الجراح ورتقهـــا بسرعةٍ؛ لإعادةِ توسيعِها مرّةً أخرى جديدة وعدم تضـــييع الوقـــت سدًى...

غريبةٌ أنا وسط هؤلاء، أنقّلُ النظراتِ بينهنّ عن قرب، فيما أبقى بعيدةً جدًّا.. أرى أصواتهنّ تتمايلُ مع الريح، تتأرجحُ في اهتزازاتها مع الفراغ المُفرَغ، تطير دون أن تحطَّ ثمّ تتقدّم، تصطدمُ بشـــيءٍ أملـــسَ شفّاف، ولا ترتدّ.. ترتطمُ بحائطٍ أو فجوة؛ لكنّها لا تتوقّفُ أبدًا مهما جرى.. لا شيء يقدرُ أن يكسرها، وحدها هي الكاسرةُ المثلى!..

أنا لستُ من هذا العالم، غريبةٌ أنا فيه، أشعرُ باللاانتماء.. أسكنُ عالمًا آخر، يحتضنُ أحلامَ الصغار، أو يحلمُ بها على الأقلّ، ولا يتحمّلُ الكبار.. اليومَ فقط بدأتُ ألحظُ ذلك، بدأتُ أستعيدُ الأملَ والقـــدرةَ على الإيمانِ والتصديق والوعي.. كنتُ قد بدأتُ أفقدُ وعيي؛ لكنّـــهُ اليومَ عاد إليّ مؤكّدًا لي ذلك.. مؤكّدًا لي أنّني لم أمت بعد، أنّني ربّما كنتُ أحتضر، إنّما لا زال فيّ روحٌ تنبض.. وسمعتُ نبضـــي أخـــيرًا وسطَ صمتِ نبضِ الجموعِ الصاخبةِ التي ماتت...

الكلُّ هنا يهرفُ بما لا يعرف.. هُراء.. كلُّ هذا العالم هُـــراء... حتّى المظلومون ظالمون!.. حتّى المجنيُّ عليهم جناة!.. كلُّ ما في هـــذا الكون يدفعُني لأفقد التوازن.. تبقى أنتَ وحدكَ يا أمجـــد، يتبعُـــك سعد،.. تضيئان لي هذا الكونَ بوسعه من خرمِ إبرة، وأبقى صـــامدةً فوقَ أمواجِ الوهم المتلاطمة...

لكن، على الضفّةِ الأخرى، ثمّةَ روحٌ ذاتُ بريق، لا تزال تنبضُ نوعًا ما، لا تزال تتشبّثُ بالحُلم.. تلكَ المرأة العجيبة، التي تأبى إلاّ أن تطعمني بيديها، كانت تقفُ على الحدود، تأبى أن تتخطّى الخـــطّ.. تهمسُ للنساءِ برفق: "اتركنها لكي ترتاح، لعلّها لم تنم حتّـــى الآن.. لعلّها بحاجةٍ للراحة... هيّا اخرجنَ لشرب الشاي، سأحضـــر لـــكِ فنجانكِ يا رهف..". تغمزُني بصوتِها الحنون، تغمرُني،.. وتضـــمُّني بأمومتها المجّانيّةِ الدائمة التي ما انفكّـــت توزّعهـــا علـــى الأقـــاربِ والغرباء.. أحسّها كجدّتي، مع أنّي لا أذكرُ جدّتي جيّدًا؛ فقد تُوفّيتَ جدّتاي وأنا لم أتخطَّ الرابعةَ من العمر، فيما أنا في أمسّ الحاجةِ لجدّةٍ تحيكُ لي أثوابَ السكينةِ في عُرى الليالي الباردة.. قلـــتُ في نفســـي: "سأتّخذُها جدّةً!..".

هكذا، وبكلِّ بساطة، أقرّرُ اختطافَ الحلـــم، أقـــرّرُ أن أُعيـــدَ الوقت؛ لأشعرَ بامتلاءِ الوقت... تأتي المرأةُ العجيبة، لا تتخطّى الخطّ أيضًا، حاملةً كوبيَ الأَنيق، وأنا أسرعُ لأتناولهُ منها كي لا أتعبَها..

- "ليش معذّبة حالك يا حجّة؟".
- "حبيبتي إنتِ، ان شا الله منحجّ سوا.. قوليلي ماما يا ماما، إنتِ متل بنتي..".

تدمعُ عيناي، كلّ هذا الحنوّ والحنان!.. حقًّا لا أقوى عليه...

- "الله يسعد قلبك، إنتِ أطيب أمّ يا حجّة..".
- "يا تقبريني... إنتِ دمعتك قريبة وقلبك لسّاتو نظيف، لهيك الله ناداكي، ولهيك الله ما رح يتركك.. هالدموع يا بنتي غالية كتير، ما مين ما كان بيشتريها.. نيّالك...".

أستريح.. لا تسعُني فرحتي، قد تسعُني الابتسامة.. أطلقُ خافقي للريح، ثمّ أقبّلُ رأسَ أمّي، أمّي الجديدة والحنون التي أرسلها اللّهُ لي بعدَ كلّ هذا اليتمِ والفقد.. أتناولُ فنجانَ الشاي، وأدعوها لكي تدخل؛ لكنّها تأبى الدخول، ترفضُ اجتيازَ الخطّ، تكتفي بدخول قلبي.. أنحني لأقبّل يدها، تسحبها منّي بسرعة، تباغتُني وتقبّلُ جبهتي.. كنتُ أحتاجُ يديها؛ لتبلّلَ هذا الجفاف... كنتُ أحتاجُ قبلتها؛ لتعيدَ العطفَ المطويّ.. كنتُ أحتاجُ نصائحها،.. لكنّها لا تنوي التطفّل، لا تنوي تخطّي القرب، تكتفي بصدق دعاء، وبقلبٍ يخفق عن بُعد.. ألمحُ في خافقِها طفلة، طفلة أبدًا لا تكبر..

النساءُ تحملقُ إلينا، والضحكاتُ تطيرُ جهارًا، تعزفُ على وترِ الأعصاب، إلاّ أنّي لم أعد آبه.. كلُّ ما أفكّرُ فيه الآن هو الخروجُ بكلّ تحدٍّ وبغير خوف أمام كلّ الفرضيّات، والتبختر بينها بعفويّةٍ وبغير قلق.. أخرجُ من خيمتي على هوادة؛ لأساعدَ النساءَ عن بعد، مثلما أفعلُ في العادة.. أخالطهنّ دون اختلاط المشاعرِ والطباع، أفصلُ طبعي كي لا يعلقَ ويتطبّع.. قليلاتٌ هنّ النساءُ ذواتُ الطفولةِ هنا، قليلات... أقلّ من الاثنين بقليل!

على هامشِ الطفولة

في هذا العالمِ المائل، كلُّ شيءٍ يودُّ اقتلاعَ الطفولة، كلُّ شيءٍ يودّ أن يلوّثها ويلوّن براءتها الشفّافة بألوانِ الطيفِ المرئيّ.. حتّى الأمّهات أحيانًا، بقصدٍ أو بغير قصد، يتقنّ اقتلاعها.. وبرغم كلّ الحنان الزائد الذي هيّأهُ الله لهنّ، فهنّ أحيانًا يتخطّين أمومتهنّ، ويقسَوْنَ عليها!... لا ألومهنّ، على الأقلّ هنا في المخيّم؛ فهنّ معذورات.. لقد نلنَ من القسوةِ ما يكفي للاعتياد عليها، ولتربيتِها مع كلِّ ولادةٍ جديدة وُلِدت لتنفى!... إنّما ما لم أتمكّن من فهمه يومًا هو تلك القسوةُ الجارحة التي تضخُّ من أعماقهنّ ضخّا، كيف تولَد؟ أتراها تولَدُ مع وفاة الحلم وانتهاء الطفولةِ قسرًا؟.. لا شكّ أنّها تولدُ بهذا الشكل!...

كلُّ نفسٍ هنا تصارعُ كي تبقى، ملتفّةً برداء القسوة إلى أن يبتلعها ويرتديها!.. القسوةُ ترتدي كلّ النفوس، ليس فقط في المخيّم، بل أقصدُ الدنيا على وجهها الأعمّ.. هذا ما رأيته، وهذا ما خبرته..

الناسُ يرفضون من لا يرتدي القسوة، من لا يتلطّخ بالألوان.. يرفضون اللونَ الشفّاف.. لأنّهُ يعرّيهم، ويظهرهم على حقيقتهم الرقيقةِ والضعيفة، ولأنهم يخشون الضعف يختارون القسوة..

هذه الليلة، يحدّثُني أمجد مجدّدًا عن أصل كرهه للمتطوّعين والجمعيّات الخيريّة المزعومة.. أفهمه، وأعي ما يودّ أن يقوله.. فالكلُّ

داخلٌ في دوّامةِ التشبّثِ بالبقاء، والبقاءُ أبدًا هارب!... حتّى الخيّرون، ما عادوا كذلك، أغلبهم على الأقلّ؛ لأنّهم يعطونَ ليبقوا.. وليس ليبقى غيرهم.. في كلا الحالين، لا أحد سيبقى، وحدهُ فعلُ العطاء – الحقيقيّ – هو القابعُ الوحيد، ونادرًا ما نلقاه.. وإن لقيناه، لا نلقاهُ قابعًا إلاّ في أحضانِ طفولةٍ ناصعةٍ لا تكبرُ ولا تتبدّل...

أقول له: "لا تعتب عليهم، إنّهم يقسونَ ظاهريًّا كي لا يتهشّموا من الخارج".

- "لقد تهشّموا منذ زمن؛ لكن من الداخل، والداخل أصعب وأمرّ..".
- "إذًا، لِمَ نحاكمهم؟..".
- "لأنّهم هم الجناة وليسوا الضحيّة.. لأنّهم تخلّوا عن الحلم بكلّ هذا اليسرِ وكبروا دون أدنى ندم..".
- "وأنت؟.. وأنا؟ ألم نكبر؟؟!...".
- "كبرنا لكن لم نمت، ما زلنا نقفُ على الناصية.. على الأقلّ، عدنا إلى اقتناصِ الحلم قبلَ أن يسبقَنا ويموت..".
- "لم يكن هذا قولكَ في السابق.. قلتَ أنّ الحلمَ مات...".
- "ظننتُ ذلك.. كنتُ مخطئًا".
- "هل لسعدٍ علاقة بالموضوع؟".
- "هو أحدُ الأسباب.. اللّهُ يسبّبُ الأسباب".
- "صرتَ تتحدّثُ بلهجته.. هل تتلقّى دروسًا دينيّةً عنده؟".
- "وما أدراكِ بلهجته؟ أنتِ لم تحدّثيه إلاّ عن بعد!".
- "كلانا يتقنُ التحادث عن بعد..".

- "أنتِ وسعد؟".
- "أنا وأنت..".
- "بالطبع.. وأتقنُ أيضًا لغةَ الجسد..".
- "هههه.. وماذا تقولُ لكَ لغةُ جسدي في مثلِ هذه اللحظةِ يا ترى؟".
- "تمسكين كفّيكِ من الخلف؛ لتردعي نفسكِ عن ضربِ أحدهم.. هههههه على من تنوينَ يا ترى؟".

أضربُه على كتفه مازحةً، وأقول:

- "ومن غيره؟ الفيلسوفُ الصغير الذي قرّر أخيرًا أن لا يستسلم ويكبر..".

تتردّدُ ضحكاتنا في الأرجاء، تتقاذفُها أيدي الصدى.. وحدهُ الصدى، حتّى الساعة، يسمعُ كلامي أنا وأمجد، ووحده يردّده... أشعرُ أنّ الأيّام الآتية ستحملُ مفاجآتٍ أخرى جديدة، لعلّها تكون سارّة، أتمنّى ذلك... وفيما أنا سارحة، أفكّرُ بما سيجيء، يعودُ أمجد ليستكملَ حديثنا الطويل، راجعًا بالكلام إلى زيفِ الجمعيّات الخيريّة وإجحافها:

- "ألم تري ذاك الطفلَ الذي نالَ اليومَ صفعةً على وجهه من أحد متطوّعي الجمعيّةِ الخيريّة؛ لأنّهُ تخطّى الكاميرا ونالَ الحصّة التموينيّةَ قبل أن يُصوَّرَ الحدثُ ويُبَرْوَز؟".
- "رأيتُه.. وكنتُ على وشكِ الهجوم، لولا أنّ سعدًا سبقني.. عجبتُ لقسوةِ المشهد.. الطفلُ بكى بحرقةٍ؛ لكنّ سعدًا جعلهُ يبتسم.. ماذا قال لهُ يا ترى حتّى أعادهُ بسرعةٍ هكذا؟..".

- "ليست المرّة الأولى التي يحدث فيها أمرٌ كهذا.. أكثرُ الجمعيّات الخيريّة باتت تعلنُ عن نفسها وتسوّقُ لها عبرَ إحسانها للمنكوبين؛ فقلّما تجدين جريدةً واحدة أو مجلّةً اجتماعيّة لا تزخرُ بالصور والاستعراضات الإحسانيّة التي لا تستثني من استعراضها البسمةَ الواسعةَ العريضةَ أو المسح على رؤوس الأيتام والأطفال.. وتعنونُ لتبرّعاتها وأياديها المعطاءةِ الكريمةِ بالخطوط العريضة.. وفي حقيقة الأمر، كلّهم غِلاظٌ متعجرفون.. عالمٌ ماديٌّ منافقٌ، لا يعطي إلاّ ليأخذ..".
- "هداهم الله.. ليس كلّهم، لا تخلو الدنيا من الخير... لكن، لم تقل لي.. ماذا كان يقول سعد للرجلِ الذي ضربَ الطفل؟ وكيف جعل الأخير يبتسم بسرعةٍ هكذا؟".
- "تكلّم مع الرجل على انفراد، لم أسمع ما قالهُ له، إنّما رأيتُ الرجل وقد صار وجهه أحمرَ ممتقعًا كالبندورة المهروسة.. سعدٌ يعرف كيف يوصل رسالته بأدبٍ وهدوء دون أن يرفع صوته درجةً واحدة.. هو يتقنُ فنّ إحراجِ السفهاء، وجعلهم يخجلون من أنفسهم، قبل أن يخجلوا من غيرهم.. أظنّهُ قد نصحهُ نصيحةً جعلته يستحي ويندم..".
- "ممم.. جميل...".
- "ما أخبارُ الجنين؟".
- "بخير.. الحمدُ لله".
- "لم تُخبري أحدًا بعد؟ أما زلتِ تخفين وتنكرين؟".

أصمت.. لا أجدُ ما أقوله...

- "إلى متى؟".
- "إلى أن يشاء الله.. ما عليك.. ألم أخبركَ أنّي وجدتُ أمًّا جديدة؟".
- "هنيئًا لكِ.. أظنّني أعرفها...".
- "أنا متأكّدة من ذلك..".
- "إنّها لا تنفكّ تتبعنا باللقمات، تصرُّ على إطعامي وإطعام سعد بيديها هههههه".
- "هههههه يا لنقاوتها وطيبتها.. تفعلُ ذلك مع الجميع، من أكبرهم إلى أصغرهم...".
- "لعلّها الأصغر بيننا..".
- "أوافقكَ الرأي..".
- "أخبريها..".
- "أفكّرُ بذلك".
- "أحسنتِ.. ستخفّفُ عنكِ وتسدي لكِ نصائحها.. أظنّكِ بحاجةٍ للنصيحة".
- "تمنَّ ليَ التيسير؛ لأقوى على إخبارها".
- "مع أنّ الأمرَ لا يحتاج؛ لكنّي في كلِّ حال سأدعو لكِ".

يقظة

كنتُ أنوي إخبارَها بكلّ شيء، أمّي الجديدة.. ليالٍ عدّة، كنتُ أفكّر فيها وأقلّبُ الموضوعَ في رأسي رأسًا على عقب.. ماً هو الصعبُ في ذلك؟ لماذا أبالغُ في إخفاء قصّة حملي وكأنّها جريمة؟ ألم أكن متزوّجة؟ ما الخطأ في ذلك؟ لماذا لا أبوحُ بسرّي؟ أما زلتُ أخشى الحلمَ وأنكرهُ لذاته؟ أم أنّي أخشى شيئًا آخر، كأن يعرف الناس مثلاً أنّي مثلهم ضحيّة، وأنّي أنتمي إليهم؟ في الوجع على أدنى حدّ..

لم أكن لأعترفَ بذلك، لم أكن لأمنحهم الفرصةَ ليلبسوني ثوبهم.. ثوبَ استسلامهم وقسوتهم وخنوعهم.. لم أكن لأرتدي ثوبَ الضحيّة بمثلِ هذه السهولةِ والبساطة.. لعلّي كنتُ أظنّ ذلك، ربّما في السابق.. أنّي كنتُ ضحيّةَ حرب، وضحيّة عالمٍ متطرّف يدورُ حول ذاتهِ الخرقاء.. يدورُ ويدورُ ولا يتوقّف، وفي النهايةِ يحطّمُ نفسهُ بيديه.. وكنتُ أظنُّ أنّي أدور معه، أنّي ارتطمتُ وتهشّمتُ وانتهيت، أنّي ودّعتُ الحلم... لكنّي أدركتُ اليوم، أنّ العالمَ بأسره لو غدا ضحيّة؛ فلا شيءَ يجبرُني على التلوّنِ بألوانه والاندماجِ معهُ في الصورةِ والألوان.. لا شيء يجبرُني أبدًا على كلِّ هذا السواد، وكلِّ هذا الابتعاد، سوى تخاذلي...

أقرّرُ من الآن فصاعدًا ألاّ أخذلَ الحلم، ألاّ أستسلم بعدَ اليوم.. أقرّرُ البوحَ أمامَ الجميع، بلا استثناء، وكأنّ شيئًا لم يكن، وكأنّ كلّ

شيءٍ كانَ، وسيطويهِ النسيان؛ لتبدأَ الأشياء الجديدة الأجمل بالتـــدفّق والجريان... فليظنّ الناس بـــي ما شاؤوا، وحدي أنا أقرّرُ من أكون، وإلى من أنتمي..

أذانُ الفجرِ يلامسُ مسمعي بكلِّ سكونهِ وصـــفائه.. نســـائمهُ الحلوةُ الباردة تلمُّ خطايَ المبعثرة هنا وهناك من كثرةِ التأمّل والتفكير، وتجمعُها في طاقةٍ مرتّبةٍ، عبقةٍ كالزهر، عطرُها لا يزولُ ولا يتراجع...

أنوي الوضوء، أهيّأ للصلاة، ثمّ أخرجُ للصلاة بعد دخول سعدٍ فيها، كما أفعلُ كلّ يوم.. ما عدتُ أقدرُ أن أبتعد، لقد صرتُ قريبةً جدًّا حدّ السعادة!.. لقد أمست صلاةُ الفجرِ لي عادة، أذوقُ فيها لذّةَ العبادة!!.. ها هو الفجرُ يشرعُ لي جناحيهِ الأبيضين الناصعين، يحملُني على أحدهما كلّ يومٍ إلى مكانٍ جديد لم أكن لأحسب أنّني سأحطّ فيه يومًا.. وها هو جناحُ الفجرِ ينطلق؛ ليغدوَ لي منفذًا تتفجّرُ منهُ كلّ طاقاتي وقدراتي على التحمّل والسير...

تنتهي الصلاة، وأعودُ لأحطّ على أرضِ الوقائعِ، محمّلةً بـــأنوارِ الهداية، والأحلامُ البرّاقة تغشّيني... لم أعد أخشى شيئًا، هكذا، وبرفّةِ عين، اختفى كلُّ القلق وتلاشى، وهمومي تطايرت إلى غيرِ رجعة... تمنّيتُ لو أنّي أستطيعُ أن أقطفَ أحد الأحلام، أن أنـــزعَ غشـــاءها الدافئ المتلألئ عنّي ولو لحظة؛ لأدثّرَ بها كلّ الدنيا... تمنّيتُ لو أنّـــي أصيرُ أنا الغشاء، أنا الحلم.. لو أنّي أصيره ولو للحظة؛ لكـــي أمـــنحَ جميع الناس، طعمَهُ وروعتهُ ودفئه، روحهُ الرقراقةَ العذبة، وطفولتـــهُ الدائمةَ الباسمة...

لا ألتفتُ إلى الأمام، لا أجرؤ على أن أتطلّع.. لا أحد غـــيري وغيرهما، سعدٌ وأمجد.. لا رابع لنا، نحنُ الثلاثةُ الـــدائمون... لقـــد

صارت بيني وبين سعد لغةٌ غيرُ محكيّة.. وحدنا مـــن يفهمهـــا... لا أتقصّدُ أن أحاكيه، ولا يتقصّدُ أن يحاكيني؛ لكنّنا نتكلّمُ ببســـاطة.. نحكي دونَ أيّ توقّف، بغيرِ كـــلام ودون أدنى حاجـــةٍ للصـــوتِ والنطق.. أحدُنا يسمعُ الآخر، والثاني يردُّ عليـــه... كلانـــا يفهـــمُ ويبتسم، دون أن نتبادل النظرات، كلانا لا يرسلُها أصلاً.. نحكي لغةً بلا حروف، بلا إشاراتٍ حتّى... نتخاطرُ عبرَ الأثير، والإيمانُ صـــلةُ الوصل... لا أدري كُنه هذا الشعور،.. إنّما وبدون أيّ مغالاة أقـــدرُ أن أقول إن لبعض الأرواح عبقًا نســـتطيع أن نشـــتمّه عـــن بعـــد، وأريجًا...

أعودُ إلى خيمتي مسرعةً والسعادةُ تغمرُ خافقي، تضيئه بـــالنور العالق.. النشاطُ يدبّ فيَّ، ليوقظَ كلّ أنسجتي.. لا رغبةَ لي بالنوم... أفتحُ مصحفي وأقرأ: ﴿... **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾.. ولأوّلِ مرّةٍ، أرتّلُ القرآن بتدبّرٍ وخشوعٍ وخشية.. عيناي تقطران بلا توقّف، ما بـــينَ الآيةِ والأخرى، وأحيانًا بينَ الكلمات... لأوّل مرّةٍ على الإطـــلاق، أشعرُ أنّ القرآن يخاطبُني ويلمسُ خافقي بحنان... لأوّل مـــرّةٍ حقًّـــا، أعرفُ قيمةَ الإنسان، حينَ يقتربُ من الله، وأذوقُ القـــربَ منـــه... أتدبّرُ القرآنَ بقلبـــي، أفهمُ معنى العبادة..

أذوقُ وأعرفُ وأتّصف، أنالُ الشرفَ، ثمّ أُبصر!...

على شفيرِ الشهرِ الخامس

كنتُ أنوي أن أخبرها، و(إنّما الأعمالُ بالنيّات)؛ فما إن نويتُ على إخبارها حتّى تبخّرَ الحلمُ وانتهى، أو هكذا هُيّئ إليّ.. أستيقظُ بعد صلاةِ الضحى بساعة، حيثُ نمتُ بعد أن صلّيتهُ مباشرةً، بعدَ أن دعوتُ ودعوتُ دون توقّف بكلّ ما كان خاطري يرجوه، وبقدرِ ما منّ الله عليّ به وتكرّم.. أستيقظ لأجدَ نفسي غارقةً بدمائي، والآلامُ تكادُ تقتلعُ أنفاسي لشدّتها!.. لا أقوى على الحراك؛ لكنّي أدركُ أنّه لا بدّ لي أن أفعل أيّ شيءٍ.. أن أطلب المساعدة، من أيٍّ كان، وليسَ أيًّا كان على وجهِ التحديد..

أحاولُ القيام مرّاتٍ ومرّات، وعبثًا أحاول.. آلامٌ غريبةٌ تقطنُ أنفاسي، تنتزعُ الهواء منها قسرًا، تعيدهُ لثوانٍ معدودات، ومن ثمّ تعود مسرعةً لتخطفهُ مجدّدًا بشكلٍ أقوى وأقسى.. لا أعرفُ كيفَ أصفُها، تلك الآلام؛ كأنَّ روحي تُسحَبُ معها.. أجرّبُ التنفّس بعمقٍ ولا أقدر؛ فلا أجدُ مهربًا إلاّ بالدعاء والتوكّل على الله؛ فقد صُدّت بوجهي كلُّ الأبواب، ولم يبقَ لي إلاّ أن أقرع بابَ الرحيم..

وما إن ألهجُ بذكرِ اسمهِ (اللطيف)، حتّى أرى المعجزةَ أمامي قد تجسّدت.. لقد كانت هي، أمّي الجديدة الحنون، أمُّ الجميع هنا.. إلى هذه اللحظة لم أكن أعرف اسمها، لا حاجةَ لي بذلك، أكتفي بوجهها الملائكيّ المريح، الذي وما إن أطلّ عليّ من بابِ الخيمةِ حتّى تنفّستُ

الصعداء واطمأننت، وكيف لا أطمئنُّ وأنا أرى الـدفء يرتـعُ في عينيها؟!... كانت تحملُ كوبَ الشاي بإحدى يديها، وشالاً زهريّ اللونِ موشّحًا بالبياض باليدِ الأخرى...

- "أمّي..." أصرخُ بصعوبة، وصوتي يكادُ يتمزّقُ من الألم.
- "عيوني يا ماما؟ يا حبيبتي شو صايرلك.. لـيش صـوتك هيك؟؟".

تسرعُ إليّ، واضعةً كوبَ الشاي على طرف الفرشة، وكانـت تلك المرّة الأولى التي تدخلُ فيها خيمتي.. تلمحُ الدم الذي ملأ المكان، ودموعي التي تحكي الوجع بغير حروف.. تضمّني إلى صدرها بحنان.. لا تسأل عن السبب، فقط تقول: "لا تخافي، ستكونين بخـير بـإذن الله..".

تلفّني بشالها الزهريّ الجميل..

- "هذا الشال صـنعتهُ خصّيصًـى لـكِ.. سـيدفّئكِ الآن وستشعرين بالتحسّن..".
- "حبيبتي يا ماما..".
- "ما أحلاها مِن فيكِ تنفثينها كعبيرِ الزهر!..".
- "ما أروع كلماتكِ.. أشعرُ أنّي صرتُ أفضلَ حـالاً مـذ رأيتكِ..".
- "حماكِ الله يا ابنتي وأبعد عنكَ كلّ مكروه..".

تضعُ يدها على رأسي وتهمسُ ببعض الآيات القرآنيّـة، أشـعرُ معها بالارتياح والسكينة.. الألم الذي كان قبل قليلٍ يقلّـبني كمـا يُقلَّبُ الجمرُ في النار، صار ألمهُ أخفّ وطأة بكثير، وصرتُ تقريبًا أكادُ لا أشعرُ به...

- "لم تقولي لي اسمكِ حتّى الآن...".
- "اسمي حنان..".
- "يا سبحان الله!.. اسمٌ على مسمّى!!..".
- "حبيبتي!!!..".
- "ماما.. أنا حامل.. هل يعني هذا النزيف أنّ الطفل قد مات؟".

تصمت لثوانٍ.. لا تطرحُ عليّ أيّ سؤال، ولا حتّى في نفسها.. وبشيءٍ من القلق الذي تحاولُ أن تخفيه عنّي، وتفضحه عيناها البلّوريّتان الشفّافتان اللتان لا تعرفان أن تخبّئا شيئًا، تقولُ بلطف:

- "الأفضل أن نتّوجه للمستشفى، وهناك سنطمئنّ أكثر".
- "ومن سيقلّنا في مثل هذا البرد والعواصف؟.. أما من حلٍّ آخر؟".
- "انتظريني قليلاً.. لن أتأخّر عليكِ، سأعودُ بسرعة..".

حنانٌ وسعد

ذهبت حنان، وتركتني في بركةِ الدماء، ملتفّةً بشالِها الـــدافئ، وطيفُها ما زال يسري.. أنا ما شعرتُ حقًّا أنّها ذهبـــت؛ فروحُهـــا بقيت قربـــي تسلّيني وتخفّف عنّي هلعي والقلق الذي كان يحاصرُني وسط نوبة الألم المفزع.. أتنفّس الصعداء، أعرفُ أنّهـــا ســـتعود في الحال، لن تتأخّر كما وعدتني.. ترجعُ بعد برهة، وبين يديها الناعمتين البيضاوين كيسًا كبيرًا من النايلون، لا أدري من أين حصلت عليه.. وضعت الكيس على الأرض، مدّت يديها الدافئتين، وأرخت ظهرَها المتقوّس الذي هدّهُ ثقل الزمن؛ لتساعدَني على النهوض...

حاولتُ جهدي أن أرفعَ نفسي قبلَ أن أستهلكَ قواها.. نهضتُ كلّي مرّةً واحدة، بأطرافي الأربعة التي كانت مرخيّةً قبلَ قليل، وكأنّها قفزت جميعها واشرأبّت مرّةً واحدة لتجعلني أقومُ فحســـب، دون أن أضطرَّ حنان لحمل أحمالٍ جديدة فوق حملـــها الزائـــد.. تقـــولُ لي والبسمةُ الوضّاءةُ ترتسمُ على محيّاها بعفويّةٍ وارتجال:

– "هوّني عليكِ، أنا ما زلتُ صبيّة، لا تظنّي أنّي قد كبرت.. أستطيعُ حملكِ لو أردتِ..".

أضحك من كلّ قلبـــي، وأقول: "أنتِ امرأةٌ بقلـــبِ طفلـــة، وبروحِ طفلة...".

– "أسعدني كثيرًا هذا الوصف يا حلوتي!..".

- "وأنا أسعدني الموصوف..".

نبتسم، من قلبِ لحظات الألم.. وفيما يدُها الزاهـــرة تحـــاوطُ خاصرتي وتضمُّها بلهفة، تتوطّدُ أمومةٌ ورديّةٌ بيضـــاء؛ فيتبخّـــرُ الألمُ ويتلاشى شيئًا فشيئًا.. لا أسألُها إلى أين نذهب، كلّي ثقـــةٌ بأنّهـــا تقودُني إلى المكان الذي سيجعلني بأفضلِ حـــال... أرى ســـعدًا في الخارج، قريبًا هذه المرّة، أكثرَ من كلّ مرّة...

لم يكن ينظرُ إليّ، إلاّ أنّي شعرتُ بقلقه وحزنه.. قرأتُ هـــذا في نظرته الذابلةِ التي كانت تحاكي الأرضَ ولا ترتفعُ عنها لحظةً، وكأنّها تواسيها أو تتلقّى العزاءَ منها...

"أتراهُ سعدٌ من سيقلّنا؟" لا أجرؤ على طرحِ الســـؤال، أبتلـــعُ السؤال في جوفي ويرتجفُ الاثنان، جوفي والسؤال.. مَن غيره سيفعلُ ذلك؟.. وحده من يملكُ سيّارةً هنا، يملكُها ولا يملكُها.. تلكَ السيّارةُ البيضاء، قد صارت عاجيّةَ اللونِ بعد أن جعلها سعدٌ منذُ اليومِ الأوّلِ لمجيئه إلى هنا وقفًا للمخيّم وكلّ ساكنيه، أو المنفيّين فيـــه... ســـعدٌ يعرضُ الخدمات، يسأل حنان ولا يوجّه نظره أو سؤالهُ إليّ:

- "عايزين أيّا مساعدة يا حجّة؟".
- "يا حبيب قلبـــي يا ماما،.. الله يسعدك.. إنت بس وصّلنا ومنكون ممنونينك.. الله يرضى عليك".

أبقى صامتة، لا أنبس ببنت شفة.. ترى، هل عرف سعدٌ ما حلّ بـــي؟.. هل عرفَ أنّني حامل، أنّني على وشكِ أن أجهض، أو هكذا يهيّأ إليّ؟ يا إلهي.. ما هذا الموقف المحرج الذي وُضعتُ فيه؟!.. ندخل السيّارة، أحاولُ أن أستجمع نفسي وأنفاسي، بعدَ أن كانت وتـــيرة الألم قد هدأت واستكانت لفترة، وبعد أن افترشت حنـــان المقعـــد

الخلفيّ للسيّارة بكيس النايلون الكبير الذي كان مـــازال بحوزتهـــا، أجلسُ وأنا في قمّة الحرج، لا أجرؤ حتّى على التفكير بالموقف الذي أنا فيه!...

ينطلقُ سعدٌ بنا، بعد أن يتمتم باسم الله.. يهمـــسُ بهـــا بكـــلّ مشاعره وروحه، يندمجُ بها، وكأنّهُ يستجدي رحماتِ الله وتســـهيله بها.. عيونُ النسوة تلاحقنا من بعيد، ولا تنفكّ تصوّب نحونا ســـهام الأسئلة القاتلة.. من يعبأ بهنّ، أمام موقفٍ محرجٍ كهذا؟ من يعبأ بأسئلة النساء ومخيّلاتهنّ الواسعة؟... وهل ستهتمّ امرأةٌ خجولةٌ مثلـــي بعـــد اليوم لأقوال النساء وأنظارهنّ فيما هي جالســـةٌ في ســـيّارةِ رجـــلٍ غريب/قريب على كيسٍ من النايلون؛ لئلاّ تلطّخَ سيّارته بدمائها وهي تنزف.. هل بعدَ هذا الإحراج من إحراج؟

وأفكّر، أنا التي كنتُ أخفي عن أمّي حتّـــى أيّـــام فطـــري في رمضان؛ كي لا تعلمَ أنّي – أنا ابنتها – في موعدِ الدورةِ الشهريّة.. لم أكن لأخبرَها يومًا، مع أنّها كانت الروح الأقرب لروحي البعيـــدة.. وحتّى يوم بلوغي، الذي تأخّر كثيرًا ولم يحلل قبل أن أبلغ الخامســـة عشرة والنصف، أخفيته عنها ولم تعرفه إلاّ بعد ستّة أشهرٍ كاملـــة، كنتُ قد بدأتُ فيها أغسلُ ملابسي بنفسي بحجّةِ التخفيفِ عنها!...

أفكّرُ الآن.. كيف لي أن أواجه الموقف المحرج الذي لم أمرّ يومًا بمثله، كيفَ لي أن لا أجنّ؟.. وتنقذني حنان كعادتها، بحنانها وبسرعةِ بديهتها المعتادة؛ لتحُطَّ بـــي فوقَ شطّ الهربِ واللامبالاة.. تنقـــذني ببسماتها وكلماتها العذبةِ العفويّة، وبنكاتِها الحلوةِ المفرحة؛ فيضـــحكُ سعدٌ وأضحكُ أنا، وأنسى الموقف المحرج، إلى أجلٍ غير مسمّى...

وجهُ السعد

- "ها قد وصلنا.."، يقولُ سعد..

مترجّلاً من السيّارةِ، دونما انعطاف، يطلبُ منّا أن نبقى فيها مرتاحين ريثما يطلبُ سريرًا نقّالاً لي.. أصرُّ بأنّي لا أحتاجه، بعد أن شعرتُ بالتحسّن وبتوقّف النزيف منذ فترة..

- "ما من داعٍ لذلك، أستطيعُ السيرَ على قدميّ...".
- "هل أنتِ متأكّدة؟".
- "نعم، شكرًا لك".

يهزُّ سعدٌ رأسه مبتسمًا بلطفٍ، والحرج بادٍ على محيّاه.. لم يوجّه لي نظرةً واحدةً كاملة، أو شبهَ كاملة، ولو لمرّة! لم تتقابل عينانا ولو للحظة؛ فطيلةَ الوقت كان حديثه موجّهًا للهواء الذي يحيطُ بي، والذي كنتُ أتلقّفهُ منه بسرعةٍ وبلهفة، وكأنّني بانتظار غيثٍ قلّما يهطل... لا أدري ما سرّ هذه اللهفة ولا أعرفُ سبب هذا الانجذاب الغريب لشخصٍ لم يكلّمني سوى مرّة أو مرّتين، بجملةٍ أو جملتين، تتعلّقان بالعمل البحت ليس إلاّ..

نترجّلُ من السيّارة، تحاولُ حنان أن تساعدني لكنّني أطمئنها بأنّ كلِّ شيءٍ قد بات على ما يرام، وأنّ بوسعي الاعتماد على نفسي دون إتعابها معي.. أشعرُ أنّها لا تصدّقني، تظنّني أكابرُ وأكبتُ ألمي، وتصرُّ على إحاطتي من الخارج واحتضان خاصرتي بيديها، بعد أن

أحاطت داخلي واحتضنت روحي بخافقِها من الداخل...

- "أتعبتُكم معي..".
- "يا عيب الشوم شو هالحكي يا بنتي؟!!".
- "سلامات.. طهور إن شاء الله.."، يرسلُها سعدٌ لي عبرَ الأثير، وتصلُني كنسمة فأتنشّقها..

توجّه سعدٌ بنا نحو قاعة الاستقبال، تحدّث إلى الممرّضة بينما جلستُ أنا وحنان، ننتظر عودته..

- "أشكركِ من كلّ قلبي على الشال، سلمت يداكِ.. جاء في وقته، لولاه لكنّا انفضحنا..".

تضحكُ حنان وتغمرني بأدعيتِها وكلامِها العذبِ الرقيق، وطفولتها الرائعة، تملأُ روحي بالبريق..

عاد سعد، ولأوّل مرّة، لم يكن وجهه يوحي بالسعد... كان مكفهرًّا حانقًا، ضائقَ الصدر، وخُيّلَ إليّ أنّه يتمتم في نفسه بكلماتٍ مكتومة لم يشأ أن يرسلها لي عبرَ الأثير؛ لكي لا يثيرَ قلقي...

يقول بلطف، وابتسامةٌ طيّبةٌ ترتسم بعفويّةٍ على وجهه رغم ضيقهِ وعدم ارتياحه الظاهرَيْن:

- "تقولُ الممرّضة أنّه لا يمكننا إدخالها للطوارئ لأنّ حالتها لا تستدعي ذلك..".
- "وكيف عرفَت؟ هل قامت بفحصها؟"، تسأله حنان باستغراب!
- "بحسبِ قولِها، يجب أن تكون غير قادرة على السير حتّى تُعتبَر حالتها طارئة!".
- "سامحهم الله!!!".

- "لا داعي للقلق.. أنا بخير، لا تشغلا نفسيكما.."، أقولُها بخطفٍ كي أستدركَ الموقف وأخفّف من حدّة وقلق الاثنين الاستثنائيين وأنا أرى خوفهما ولهفتهما الظاهرة عليّ.
- "وما العملُ الآن يا بنيّ؟"، تسأله حنان..
- "تقول إنّه علينا الانتظار، حتّى يأتي دورنا.. وأنّهُ لا يمكُننا فعل أيّ شيءٍ قبل الحجز والدفع!.. ادفع وانتظر دورك، هكذا بكلّ بساطة!.. أرأيتِ؟.. هذه هي إنسانيّة المستشفيات الإسلاميّة ببلادنا في السلم يا خالتي؛ فلا تعجبي من الحال الذي وصلت إليه إنسانيّتنا في الحروب..".
- "لا حولَ ولا قوّةَ إلاّ بالله.."، تردّدُ حنان...

أبقى صامتة، لا أعرف ماذا أقول.. أملكُ المال؛ لكنّي لا أملكُ القدرةَ والشجاعةَ الكافيةَ لعرضه على سعد هكذا وبكلّ بساطة، وكأنّي أقولُ له: "ما المشكلة في ذلك؟ فلننتظر.. المال موجود.. ووقتُكَ واسع، وإنسانيّتُكَ أوسع"... لم يكن بوسعي حتّى أن أفكّرَ بشيءٍ من هذا القبيل، هو ليس مضطرًّا لذلك..

ويخطرُ ببالي خاطر، أقوله بكلّ حرج، والكلمات لا تسعفُني فأُتأتئُ وأتخبّط..

- "أرجوكِ يا خالتي.. أرجوكما.. أَ.. أنا أستطيعُ أن أتدبّر الأمر، لا تخافا، لقد تحسّنت... اذهبا أنتما ولا تتعبا نفسيكما، وأنا سأنتظرُ حتّى يأتي دوري، وأعودُ بعد ذلك بسيّارةِ أجرة".

- "ما هذا الكلام؟ صلِّ على النبي"، يقولُها سعد بشكلٍ حازم وقاطع، لم يترك لي معها مساحةً كافيةً لأزيد حرفًا واحـــدًا بعد ذلك!

وتزامنًا مع سعد، ترمقني حنان بنظرةِ الأمّ الوديعة، وتقول:

- "له يا بنتي.. كيف بدّك يانا نـــروح ونتركـــك وحـــدك؟ معقول؟..".
- "بارك الله فيكما"، أقولُها والذنبُ يملأ جعبتي..
- "هوّني عليكِ، لا داعي لتحملي همّ وزرِ أنتِ لم تقترفيـــه، الخطأ منهم وليس منكِ.. لن ننتظر طويلاً، سأتدبّرُ الأمـــر أعدكما..". يقولُها سعد، موجّهًا أنظارهُ نوعًا ما صوبـــي هذه المرّة، ولكن ليس تحديدًا..
- "ماذا ستفعلُ يا بنيّ؟".
- "سنجرّب فعل شيء.. وإن لم ينفع، لن نكون قد خســـرنا شيئًا.. في كلّ الأحوال الوقتُ واسع وليس وراءنا شـــيء.. نحاول تسريع الأمر لنطمئنّ على سلامتها ليس إلاّ؛ لكـــن، بالنسبةِ لنا، لا مشكلة في الانتظار...".

يعودُ سعدٌ إلى طمأنتي، بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر.. المهمّ أنّـــه يريدُ أن يخفّف عنّي ويزيح عنّي ثقلَ الموقف والألم الذي كان قد بدأ يعودُ إليّ من جديد، وأنا التي حسبتهُ ولّى وانتهى.. وكأنّـــهُ يشـــعرُ بـــي.. وكأنّه يحسّ بحرجي وأوجاعي..!

ريحُ الطفولة

توجّهُ سعدٌ ناحيةَ غرفةِ المحاسبة، وبقينا نحنُ بانتظاره، حنان وأنا، قربَ منصّةِ الاستقبال.. أشار إلينا بيدهِ فيما بعد لنأتي، ووجههُ يتهلّلُ فرحًا؛ فذهبنا مسرعتين.. من بعيد، يشيرُ سعدٌ إلينا بتخفيف السرعة، ضامًّا أصابعه بعضها على بعض؛ كما تضمُّ أوراقَها وردةٌ وُلدت للتوّ وتنتظرُ أن تتفتّح.. كان يخشى أن يصيبني أو يصيب حنان أيّ مكروه.. لم يكن أمجد مخطئًا بالانجذاب إلى سعدٍ بمثل هذه السرعة؛ فشخصٌ مثلهُ يملكُ مغناطيسًا سحريًّا ذاتيًّا وحضورًا ملفتًا لا يغيب، إلى جانب كونه يتحلّى بالأخلاق وبالسماحةِ والرفق، من الصعب أن لا يجتذبك وألاّ تحسَّ على الأقلّ بمشاعرِ الارتياحِ والاطمئنانِ في وجوده.. دخلنا غرفةَ المحاسبة، ندعو الله ونأمل التيسير؛ لنتمَّ المعاملة وندفع ما أملتهُ علينا تكاليف الحياة.. وما إن ألقى سعدٌ التحية على الموظّف اللطيف، وبدأ الموظف بتجهيز الأوراق، حتى اندلق كوب قهوته (النسكافيه) الساخن على المكتب، وهو الذي كان منذ ثوانٍ يتبسمُ فرحًا وهو ينقلهُ من جهة المكتب اليسرى إلى الجهة اليمنى.. وقبل أن تتغلغل القهوة في الفأرة الإلكترونيّة، أو تندسَّ في أزرار (الكيبورد)، أسرعتُ وأبعدتهما عن النهر الساخن الجاري، وشعرتُ بالحرج لأنّي أحسستُ بأنّي أنا التي تسبّبتُ بوقوع الكوب؛ كَوني داهمتُ صباحه الهادئ بمعاملتي؛ لأنهيَ بدايةَ يومه الرائع!..

استكمل الموظف عمليّة التنظيف مستهلكًا نصف علبة المناديل تقريبا!.. كانت علامات الحرج باديةً على وجهه، والحسرة مخفيّةً في جوفه على الكوب الضائع.. إنّهُ الكوبُ الوحيد الذي تقدّمه له المستشفى مجّانًا!...

استأذنتُ للخروج قليلاً من المكتب، فيما تابع سعدٌ إكمال المعاملة.. توجّهتُ نحو المقهى، وأحضرتُ كوب (كابوتشينو) – مُعتَبَر – كبدلٍ ضائعٍ للموظّف، وقبل أن أضعه على مكتبه، سألتُه: (أتحبُّ الكابوتشينو؟).. تبسّم الموظّف باستغراب وحرج، والصدمةُ باديةٌ على محيّاه، رافضًا عرضي في البداية؛ لكنّي أصرّيتُ على تقديم الكوب مبديةً اعتذاري وأسفي على الكوبِ الذي سبقهُ ولاقى حتفه.. وقبل أن أضع الكوبَ على المكتب، وسط دهشةِ سعدٍ وحنان، كرّرتُ السؤال: (أتحبُّ الكابوتشينو أم تفضّلُ شيئًا آخر؟)؛ فهزّ الموظّفُ رأسه موافقًا، وشكرني متبسّمًا بكلّ استحياء.. خرجتُ بعد ذلك من المكتب و لم أعد إليه ثانيةً، لم أجرؤ على ذلك؛ لئلاّ أُحرِجَ الموظّف وأحرجني... لحقت بي حنان، متبسّمةً فرحة، ثمّ جلسنا على أحد المقاعد بانتظار سعد...

في هذه اللحظة كانت آلامي قد بدأت تتأرجحُ ما بينَ العالي والعميق.. كنتُ أخشى أن يظهر عليّ شيءٌ من الألم، فيما أنا أكبتُ وأكتمُ.. طلبَ المحاسبُ ورقةَ هويّتي؛ فجاءَ سعدٌ ليأخذها..

لم يسل سعدٌ عن حجمِ المبلغ المطلوب، دفع بلا تردّد، ولّما عرضتُ عليه أخذ المال فيما بعد، رفضَ بكلِّ كبرياءٍ ووقار، وسألني: "لو كنتِ مكاني هل كنتِ ستقبلين؟".

ومجدّدًا يحرجُني سعدٌ بتواضعهِ وأخلاقه السمحة، ويستدرجُ صمتي فلا أعودُ قادرةً على قولِ أيّ كلمةٍ أو إضافةِ أيّ حرفٍ فوقَ كلامه الحازم اللطيفِ المحسوم!..".

- "لكن.. لديَّ المالُ الكافي لكي أدفع، أرجوكَ أن تقبل...".
- "باركَ اللَّهُ لكِ به، أنتِ متطوّعة ولا تتقاضين أجرًا على عملك.. ربّما تحتاجينه يومًا ما..".
- "وأنتَ أيضًا متطوّع!..".

يضحكُ سعدٌ ضحكةً خفيفةً وخجولةً، ثمّ يقول:

- "صحيح؛ لكنّي أعملُ عملاً آخر،... أتقاضى أجرًا عليه بفضلِ الله...".
- "الله يرزقك ويزيدك يا ابني ويبارك بهالطيّبة!..."، تدعو له حنان من قلبِ روحِها، وعيناها تلمعان فرحًا وطهرًا..

أمّا أنا، فتتبخّرُ الكلماتُ في جوفي.. لا أعرفُ ماذا أقول... فخيرُهما غمرني، وعطفهُما أسرني، ورقّتُهما غطّتني ودثّرتني من رأسي إلى أخمصِ قدميّ!.. هذان الاثنان الرائعان، هما هبة الرحمن لي دونَ أدنى شكّ، وهما ثمرةُ الدعواتِ المزهرات والدمعاتِ الغاليات التي زخرتُ بها هذا الصباح، ثمرةُ إكرامِ اللَّهِ وفضلِه... وتمرّ في بالي آية: **﴿... وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾**؛ فأبتسمُ بصمتٍ، شاكرةً الله على لذّةِ هذا الألم وخيراته، وهو الذي أيقظني وصحّاني وجعلني ألتقي بأطهر قلبين على الإطلاق؛ لأكونَ منهما قريبةً كلّ هذا القرب...

يأتي دوري بعدَ طولِ انتظار، تناديني الممرّضةُ باسمي فأتوجّه نحوها مباشرةً.. تأخذُ وزني وتسجّلُ بصمت.. وفيما كانت تقيس لي الضغط تسألني: "حامل؟!".

أهزُّ رأسي مبديةً لها صحّة افتراضيّتها؛ لكنّها تستغرب أكثر، ثمّ تخبرني بأنّ ضغطي منخفض قليلاً عن المعدّل الطبيعي.. لا آبهُ لذلك؛ فكلُّ شيءٍ يحدثُ ليَ اليوم لم يكن ضمن المعدّل الطبيعي، كان خارقًا للطبيعة أو متجاوزًا لها!... تقولُ لي الممرّضة: "ارتاحي، وانتظري سماع اسمكِ..".

تمرُّ ساعةٌ كاملة بعد الانتظارِ الأوّل، الذي كان قد استغرقَ أقلّ من الساعةِ بقليل، وحين أسمعُ اسمي من الممرّضة أنطلقُ مثل السهم لأقابل الطبيبة.. تطلبُ منّي الممرّضة أن أتريّث قليلاً ريثما تخرجُ المريضة التي قبلي وتنهي كلامها مع الدكتورة، ولا أفهمُ هذا العبث!

- "لِمَ ناديتني إذًا؟ ألستِ أنتِ التي ناديتني؟ أمرٌ عجيبٌ حقًّا!".
- "فعلاً، الطبيبة طلبت ذلك؛ لكنّ المريضةَ لا تزالُ تطرحُ عليها بعض الأسئلة، تستطيعين الدخول لو أردتِ..".
- "أفضّلُ الانتظار حتّى تصبح الطبيبة جاهزة لاستقبالي.. شكرًا لكِ".

وما هي إلاّ لحظات، حتّى تخرج المريضة، وتخرجُ معها الطبيبة أيضًا! اعتذرت منّي الممرّضة، وقبلَ أن أسألها أين ذهبت الدكتورة، قالت في الحال:

- "الدكتورة لديها حالة مستعجلة، عشر دقائق وتعودُ في الحال، استريحي".

كان سعدٌ في هذه الأثناء ينتظرُ في الخارج، في قسم الاستقبال العامّ؛ لأنّ صالةَ الانتظار عند الطبيبة كانت مزدحمة بالنساء الحوامل، اللواتي كانت كلّ واحدةٍ منهنّ تحتلّ مكانًا يكفي لشخصين، وتباعد ما بين رجليها كما يفعلُ الرجالُ لتمنع الأخرى من التفكير بالجلوس قربها.. كلٌّ واحدةٍ منهنّ كانت تفكّر بنفسها فحسب، و لم تكن تعبأُ بالأخرى أو بظروفها.. و لم يخلُ الأمرُ من رؤيةِ بعض مشاهد التدافع للجلوسِ على أحد الكراسي، أو من رؤية امرأةٍ حاملٍ تحشرُ نفسها ووليدها المنتظر في فسحة ضئيلةٍ من المقعد بين اثنتين، والمقعدُ أصلاً بالكاد يتسّعُ لهما! وكان الظفرُ بالكرسي للتي تسبق، اقتداءً بالمثل العامّ: (اللي سبق شمّ الحبق!).. لكن، ويا للأسف، لم تكن رائحةُ الحبق من نصيب أيٍّ منهنّ؛ فالرائحةُ التي كانت تعبقُ في المكان، والتي كانت من نصيب الجميع، لا تشبه الحبق ولا تمتُّ له بصلة لا من قريب ولا بعيد.. لذا، كانت الممرّضةُ تخرجُ كلّ قليل وترشّ بخّاخًا ملطّفًا للجو يقضي على الروائح الكريهة، ويا ليتها كانت تملكُ بخّاخًا يلطّفُ النفوسَ قبلَ الهواء؛ لأنّ العلاجَ ينبغي أن يبدأ من المصدر والمنبع!...

أنقّلُ نظراتي قليلاً بين النساء، لا أجدُ الراحةَ في أيّ وجهٍ من وجوههنّ.. الوجوهُ هنا لا توحي بالبشاشةِ والسماحةِ إطلاقًا!.. لعلّهُ الألمَ هو الذي غيّرَ تلكَ الملامح وبدّلها وأشربها كلّ هذه القسوةِ والجمود!..

لعلّها القسوةَ نفسها هي من أورثت الوجوه نظيرها فقست بالمقابل.. أبحثُ عن أيّ طوق للنجاة، عن نظرةِ طيب أو بسمة... لا أجد!.. وأحنُّ لأيّامٍ كنتُ أقرأُ في عيونِ الناسِ فيها أصدقَ بسمة...

أنظرُ إلى وجهِ حنان، وهي صامتةٌ تمامًا والسكينةُ تغشّيها، تقــرأُ في مصحفٍ صغير كنتُ قد لاحظتُ مؤخّرًا أنّه لا يفارقهــا أينمــا ذهبت؛ فتُشعُّ أكثر وتتلألأ نورًا فوقَ نور.. وحدهُ وجههــا كــان يعطيني الراحةَ والقدرةَ على التحمّل والصبر.. لم أكن أبدًا من النــوعِ الصبور؛ فأنا التي تعوّدتُ على العجلةِ في كلّ شيء، وها هو طفلــي المنتَظر لا يطيقُ الصبر مثلي كما يبدو؛ فإنّهُ لم يقدر أن ينتظــر عــدّة أشهر بعد، قبل أن يطلّ برأسه إلى هذا العالم المائل ويقع!.. أغرقُ في وجهِ حنان؛ فأشعرُ بالحنان، وأطمئنّ...

ثمّة أطفال هنا يلعبون بفرح، يصرخون بلا رقيــب، لا أحــد يمنعهم، لا أحد يوبّخهم، لا أحدَ يتبعهم ليكتم صــوتهم أو ليطلــب منهم الابتعاد أكثر... ربّما لأنّهــم ليســوا في الحســبان في هــذه اللحظات؛ فثمّةَ أطفالٌ أخَر، جُدَدٌ وبيض، تُهيّأُ لهم الأنسجة وتُنسَجُ لهم الأحلام الكبرى، لبعضِ الوقت، قبلَ أن يكبروا ويصبحوا مجــرّد ظلال.. قبلَ أن تُمحى ظلالهم بعد ذلك، وتُنفى إلى أبعدِ نقطةٍ مــن الظلّ والفراغ... فحينَ يولدون، وحين يولدون فقط، ستُكَمّ أفــواه الأطفال الذين سبقوهم، ليكبروا أسرع، وليودّعوا ريحَ الطفولةِ عــن بعد...

بسمةٌ مجّانيّة

كلُّ شيءٍ في هذا العالمِ الضيّقِ المتهالك، يأبى أن يضمّ الطفولةَ أو أن يحتضنَها.. كلُّ شيءٍ يودُّ لو يقتلعَها ويلوّث براءتَها لتموت!.. كنتُ أحسبُ فيما مضى أنّ الحروبَ فقط هي التي تقتلُ الطفولةَ وتشوّهها، وتهدّدها بالتفتّت والانقراض؛ لكنّني أخطأت... فكلُّ شيءٍ، كلُّ شيءٍ في هذا الوجود، يحكمُ على الطفولةِ والفطرةِ الجميلةِ بالمضيّ والاندثار...

الناسُ لا يريدونَ الطفولة، ولا ما يذكّرهم بها.. وكأنّ الطفولة في نظرهم دليلُ ضعفٍ وانهزام، كأنّها عكسُ القوّة، عكسُ القدرةِ والأحلام.. مع أنّها هي الأحلام، وهي التي تصوغُ المعنى!.. فمعنى القوّة هي التي تصوغه، ومعنى القدرة هي التي تصوغه أيضًا حين تكشفُ عن ساقيها بتجرّدٍ ولا تدّعي المثاليّة، بل تطلقُ نفسها للريح وتغرقُ فيما هي مقدمةٌ عليه حدّ المغامرة، وتعيدُ الكرّة مرّاتٍ ومرّات، ومهما فشلت، لا تخسرُ أبدًا ولا تيأس.. هي الطفولةُ وحدَها، القادرةُ على منحنا تلكَ القدرةَ على تخطّي الخوفِ والرهبة، الرهبة من تكرار التجارب رغم أنفِ الخسائرِ والسقطات!...

تتدافعُ الأفكار والخواطرُ في رأسي وقلبي، فيما أنا غارقة أرقبُ الأطفال حولي بشتّى أعمارهم، يركضون ويضحكون.. يتعثّرون، ويعودون من جديد للنهوض والجري، وكأنّ شيئًا لم

يكن!.. وكأنّ وقوعهم واصطدامهم كان هو القوّةَ التي تدفعهم للمضيّ مجدّدًا بطاقةٍ أقوى وأكبر، وبفرحةٍ لا انتهاءَ لها، وحبٍّ لا مثيلَ له، أقوى من القوّةِ بكثير!... أتمنّى لو أنّي مثلهم، أقعُ كلّ مرّةٍ وأقوم، وأعودُ لأقع من جديد، دون أن أبكي طويلاً، ودون الحاجةَ للكتمان.. أقعُ وأبكي ثمّ أضحك، وكأنّ البكاء والضحك يصيران صنوين، كلاهما مرتبطٌ بالفرحِ، بالبداياتِ الجديدةِ الحلوة، وبكلّ حلمٍ طائرٍ وشريد لا يهبطُ ولا ينتهي..

أغوصُ في المشهد، ويقطعُ عليّ المشهد قسوةُ مشهدٍ آخر.. أرى طفلاً لم يتجاوز الثالثةَ من العمر، واقفًا قربَ امرأةٍ ثلاثينيّة، يتبسّمُ لها بكلّ وجهه، بكلّ تفاصيله الصغيرةِ والبريئة؛ لكنّها لا تبادلُه الابتسام، بل تنظرُ إليه بشزر، لا يخلو من الحذر.. لعلّها حسبتهُ متسوّلاً أو شحّاذًا يشحذُ منها ابتسامة؛ فراحت تشحُّ وتبخل!.. وكأنّها ستدفعُ ثمنَ البسمةِ من جيبها!!!.. أتألّم، وتلوحُ في جوفي عبارة، أخطُّها بالألمِ العريض: **وطفلٌ يستجدي بسمةً من شفاهٍ جفّت.. متى يدركُ الناسَ أنّ البسمةَ مجّانيّة؟!!!**

متى يدركُ الناسُ ذلك؟ متى يدركون؟.. أحين تفقدُ الطفولةُ حقّها في أن تكون؟!!! ليتهم يدركون قبل ذلك، قبلهُ بكثير؛ لئلاّ يندموا بعد ذلك لأنّهم قتلوها وأزهقوا روحها بأيديهم، قبلَ أن تُزهقها أوجاعُ الحياةِ وآلامها المُرّةِ المتتابعة... ليتهم يدركون...

أخفضُ صمتي والعبارات التي تردّد صداها في عُرى الحرقةِ والقهر.. أحاولُ أن أتناسى، ولا أقدر.. لعلّ الله يرأفُ بهم هؤلاء الأطفال المساكين؛ فهُم ليسوا بأحسنِ حالٍ من أطفالِ الحروب، الذين تقتلُهم الحرب وتشوّههم كلّ يومٍ من الداخلِ والخارج تاركةً

ندبتها الخارجيّةَ على أجسادهم بكلّ وضوحٍ وبلا أيّ حاجةٍ لإخفاءِ الأثر... لكن هؤلاء المساكين، الذين يُقتَلون كلّ يومٍ من الـــداخل، دون أن نلحظ ذلكَ أو نعيه.. يُقتَلونَ على أيدينا نحنُ المسالمين/كمـــا ندّعي، في السلمِ لا في الحرب، في أفضل الظروف وليس أســـوئها، فقط لأنّنا لم نشأ أن نخضع لنزواتهم الطفوليّة الطائشةِ المبالَغِ فيهـــا، في حسباننا ليس إلاّ..

أخفضُ صمتي والأسى، وأعودُ إلى حنان، ووجهها البسّام.. ها هي البسمات تنحدرُ من فمها العذب البرّاق، ثمّ تعلو وتنتشرُ في كلّ الأرجاء، دونَ أن تستثنيَ أيّ شخص، صغيرًا كان أم كبيرًا، مبتســـمًا كانَ أم مقطّبًا... في محفظتها كالعادة حلوى، أو أيّ شيءٍ آخر، يسدّ الرمق ويهدّئ الروحَ والقلب.. كيف لا؟.. وهي التي تطعِمُ الجميـــعَ من قلبها وروحِها قبل يدِها!... يلتمُّ الأطفالُ حولَ حنان، يجـــدونَ البسمةَ والأمان، وقطعةً من الحلوى!...

انتظار

مضت ساعةٌ جديدةٌ على غيابِ الطبيبةِ وغرقِها في الحالةِ المستعجلة، تلكَ التي كانت تحتاجُ لعشر دقائق فقط بتقديرِ الممرّضة!.. وددتُ لو أنّي دخلتُ حين دعتني الممرّضة، لو أنّي حشرتُ أنفي ونفسي كما تفعلُ النساءُ هنا كلّ الوقت، كما يفعلنَ جميعًا في العادة.. لا أقدر.. من الصعبِ أن أفعلَ ذلك!... وعلى الرغمِ من كوني أكرهُ الانتظار ولا أطيقه، وعلى الرغمِ من كوني لا أتقنُ لغةَ الصبر ولا أقوى على تحمّل ناره؛ فإنّي كنتُ أفضّلُ أن أنتظر ساعاتٍ جديدةً أخرى، وأيّامًا إضافيّة، وأبقى منتظرة حتّى تزهقَ روحي وتموت، على أن أقفَ قربَ بابِ الطبيبةِ كالوحوش، لأدخل عنوةً إلى غرفتها ما أن يُفتحَ البابُ وأقحمَ نفسي بالقوّة في موقفٍ تصارعيٍّ عنيف، يخلو من الأدبِ والذوق، لا أرتضيهِ لها بالمرّة!!..

كان الألم/الوقت يدبُّ في خاصرتي كسكّين حادّ، ينغرس ثمّ ينسلخ، ويسلخ روحي معه..

أتت الطبيبة، ونادتني الممرّضة مباشرةً كي أدخل خلفَها، دون أيّ حاجةٍ لاعتذارٍ أو ما شابه؛ فالدقائق هنا والساعات سيان، لا فرق بين عشر دقائق أوَ عشر ساعات؛ فلِمَ الحاجةُ للاعتذار إذا كان الليل هنا يوازي النهار؟!!!

تبعتُ الطبيبةَ رغمًا عنّي، ولو أنّي كنتُ مخيّرة، لاخترتُ الانسحابَ من كلّ هذه الترّهات، والعودةَ إلى حياةِ المخيّم، حيثُ العراءُ يقدّرُ الوقت أكثر، ويقيّمه بتجرّدٍ خالصٍ، دونَ حاجتهُ لتعليقِ ساعاتِ الوهم على الحوائطِ المائلة.. باختصار، لم أكن أملكُ الخيار.. كنتُ بحاجةٍ لمعرفةِ ما الذي ألمّ بي، وبالطفلِ المتعبِ المسكين، الذي لم يتسنّ لهُ أن يستجمعَ أنفاسهُ بعد في داخلي، والذي لم أتمكّن بعد من الشعور بحركاته ورفرفاته الحلوةِ الشيّقة التي كنتُ أسمع النساء حولي دائمًا يتكلّمن عنها بشوقٍ وفرحٍ وسرور..

تدعوني الطبيبة للجلوس أخيرًا، بعد أن تخلع نظّارتها وعينيها سويّةً وتضعهم على الطاولةِ فوقَ أكوام الأوراق المتجمّعة.. ألقي التحيّةَ عليها مجدّدًا، بعدَ أن تاهت تحيّتي الأولى في الأثير و لم يعد لها أثر يُذكَر:

- "السلامُ عليكم..".
- "عليكم السلام.. تفضّلي..".
- "رهف.. قالوا لي أنّ حالتكِ طارئة، ما مشكلتكِ؟...".

أبتسم، أبتلعُ الضحكة الساخرةَ على مضض.. قالوا لها أنّ حالتي طارئة وتركتني خارج الغرفةِ كلّ هذا الوقت.. ماذا لو أنّهم لم يقولوا لها شيئًا؟ حمدًا لله أنّهم قالوا لكِ ذلك!... أحاكي نفسي، فيما أفكّرُ بالمسكينة حنان والمسكين سعد اللذين كانا لا يزالان ينتظرانني في الخارج، كلٌّ في جهةٍ مختلفة... أشعرُ بهما يحاوطانني بالدعاء من الجهتين ويمدّانني به، يظهرُ أثرُ ذلك عليَّ بيّنًا في ثباتي وقدرتي العجيبةِ الخارقة – التي نبتت فجأة – على ضبط الأعصاب وعدم الانجرافِ وراءَ التسرّعِ أو الانفعال!..

وأفكّر.. لِمَ كلّ هذه السلبيّة؟ لعلّ الطبيبةَ قد اضطرّت حقًّا للتأخّر، شيءٌ ما – رحمانيٌّ – يرتبط بالاثنين المنتظريْن في الخارج، يقنعني بذلك ويخفّف من وطأةِ تبرّمي وانزعاجي.. على الأقلّ، ذكرت اسمي.. على الأقلّ، نادتني بالشيءِ الوحيدِ الباقي الذي يجعلني أصدّق أنّها لا تزال تراني إنسانةً مثلها، لها اسم ووجود، وبقايا/قُصاصات أحلام... أردُّ على سؤالها بعد هنيهة، بعد أن لاحظت شرودي وكرّرت السؤال..

- "أنا حامل، استيقظتُ اليوم على نزيف، وألمٍ لا أعرف سببه..".
- "بأيّ شهرٍ أنتِ؟".
- "أنهيتُ الرابع للتوّ وبدأتُ بالخامس".
- "ممم.. متأكّدة؟"، تنظرُ إلى بطني، باحثةً عن هذا الشيء الذي صار عمره أربعة أشهر ويشارف على الخامس، ولا يزالُ انتفاخهُ في رحمي أصغرَ من كرشِ امرأةٍ عاديّةٍ تناولت عشاءها للتوّ ثمّ خلدت للنوم!...
- "نعم.. بالتأكيد".
- "طيّب.. لكن بطنكِ صغير جدًّا،.. ما علينا، هل نزفتِ كثيرًا؟..".
- "نوعًا ما.. هل هذا طبيعيّ؟".
- "طبعًا لا.. دعينا نرى على (السونار) ونطمئنّ...".

تفحصُ بطني، تبحثُ عن دليلٍ ماديٍّ ملموس يؤكّد لها صدق ما أتفوّه به وما أدّعيه.. وما هي إلاّ ثوانٍ حتّى نطقت بالخبر اليقين، وألقتهُ في وجهي فجأةً وبسرعة دون الحاجةِ للتنبيه أو أخذ الحيطة:

- "لا يوجدُ نبض!..".
- "أ.. أنتِ متأكّدة؟...". أقولُها وأنا شبهُ مصعوقة.. لا أدري لماذا، مع أنّي لم أكن بعدُ قد صدّقتُ الحلم، لم أكن بعدُ قد آمنتُ به ذلك الإيمان الذي كان يستحقّه عن جدارة...
- "نعم، بالتأكيد، لا نبض ولا حركة، انظري إليه كيف هو منكمشٌ بعضه على بعض، لا حياةَ فيه وهذا واضح.. وقياسُ الرأس يظهرُ لي أنّه ميّتٌ منذُ مدّة، ما يقاربُ الشهر على أقرب حدّ إذا لم أكن مخطئة".

هكذا، وبكلّ بساطة، ألقت عليّ الحقائق والصدمات كلّها دفعةً واحدة، ضربةً واحدةً لترديني بوقعةٍ واحدة ليس إلاّ وتوفّر عليّ وعلى نفسها أثرَ الوقوعِ مرّاتٍ إثر مرّات على امتدادِ الوقت، الذي لم يعد يتّسع... هكذا قالتها، دون الحاجةِ للرفقِ بي أو للشفقة، دون الحاجة للتخفيف عنّي أو للعطف عليّ وعلى أمومتي الملتاعة.. أمومتي التي وُلدت فجأةً بشكلها الكامل مرّةً واحدة، حين فقدتُها!...

ترى.. أيُعقَلُ أن يكونَ الحلمُ مجسّدًا في الفقدِ فحسب؟ أيُعقَل أن نكون في الحقيقة لا نستمدّ جمال أحلامنا وروعتها إلاّ عن طريقِ فقداننا لها وابتعادها عنّا وبحثنا الدائم عنها بلا جدوى أو وصول؟.. أيُعقَلُ أن تكونَ السعادةُ في تخيّلنا الدائم لها وهي بعيدةٌ تأبى الاقتراب؛ فإنّها إن تقتربْ تغتربْ، تذبلُ ثمّ تموت ولا تعودُ إلينا أبدًا؟!!!...

تقطعُ الطبيبةُ عليّ تساؤلاتي.. تنهمرُ من عيني دمعة، دمعةٌ واحدةٌ فقط ليس إلاّ، لكنّها طويلةٌ وعميقة، لا نهايةَ لها... تسيلُ على خدّي بلا انتهاء، وتتابعُ مسيرها نحوَ قلبي لتسكنَ فيه...

- "وحّدي الله، كلُّ شيءٍ مقدّرٌ ومكتوب، ألستِ مؤمنة؟ **﴿... وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾**.. عوّضكِ الله"..

أصمت، لا أعرفُ ماذا أقول؟.. دمعتي قالت كلّ شيء، وأنا لم أعد أفهم شيئًا.. لكن هذه الطبيبةُ لّما ذكرت الله، صارت لها ملامحُ أخرى ووجه آخرَ تقاطيعهُ أكثرَ انسجامًا وتناسقًا.. كلماتُها العذبة المريحة التي انسابت فجأةً من خافقِها ولأوّل مرّة منذُ أن رأيتُها، أشعرتني بقشعريرةٍ عذبةٍ حلوة، أثلجت صدري، وردّتني إلى صلاةِ الفجرِ ونسماتهِ الغائبات.. ردّها إليّ فعدتُ أللمُ منها ثباتي ورضاي..

- "شكرًا لكِ..".
- "لا شكرَ على واجب.. لا تحزني يا عزيزتي؛ فأنتِ ما زلتِ صغيرة، وبإمكانكِ أن تنجبي غيره.. احمدي الله أنّكِ لم تكوني عاقرًا! هناكَ نساءٌ يأتين إليّ في الشهر عشرات المرّات منتحباتٍ يائساتٍ فاقداتٍ للأمل، وعلى الرغم من هذا فإنّ الله يجبرُ خواطر أكثرهنّ ولو بعد حين.. أليس لديكِ أطفال؟".
- "لا..".
- "لا بأس.. ستحملين مرّةً أخرى بإذن الله".
- "بإذنِ الله...".
- "زوجكِ في الخارج؟".
- "لا..".
- "أهوَ مسافر؟...".
- "لا.. بل متوفّى..".

- "ياه.. سامحيني، آسفة لذلك...".
- "والدتكِ معكِ؟".
- "لا...".
- "أختكِ، صديقتكِ؟ ألا يوجد أحدٌ معكِ؟..".
- "بلى، يوجدُ.. هناك سيّدةٌ بمنزلة أمّي..".
- "إذًا أخبريها أنّكِ ستبقين في المستشفى هذه الليلة.. سنقومُ بإجراءِ عمليّة تحريضٍ صناعيٍّ لكِ لإنزال الجنين؛ لأنّهُ ليس من الصحّيّ أبدًا أن ننتظرَ أكثرَ من ذلك، فهناك خطرٌ أن يتسمّم دمكِ أو يحدث لكِ التهابٌ لا قدّر الله..".
- "ألا يمكنُ أن ينزلَ وحده؟..".
- "لا أظنُّ ذلك، وإن كان هناك احتمال؛ فإنّهُ من المخاطرةِ أن ننتظر أكثر لتنزفي دمًا أكثر وتتألّمي زيادة.. الليلة نعطيكِ طلقًا صناعيًّا، مع أنّنا ننتظرُ للصباح عادةً في مثل هذه الحالات؛ لكن، وبما أنّكِ قد بدأتِ تنزفين فلا بدّ من المباشرة بالموضوع بأقصى سرعة... ألديكِ أيّة أسئلة؟".
- "لا..".
- "الآلام شبيهة بآلام الولادة لكنّها أقلّ حدّةً..".

أردّ مبتسمةً: "لم أجرّبها..".

- "سيكونُ كلّ شيءٍ على ما يُرام.. لا تخافي".

تكتبُ لي الطبيبةُ إذنًا بالدخولِ إلى غرفةِ الاستعداد للولادة؛ لكي أستعدَّ للإجهاض! أخبرُ حنان بما حصل.. من بعيد، ألمحُ عيني سعدٍ تتابعنا، ينتظرُ ابتسامةً ترتسمُ على وجهِ حنان ليطمئنّ.. لا يحصلُ ذلك؛ فحنان لم تسعفها الابتسامةُ هذه المرّة، ومع أنّها جاهدت لكي

تخفي دمعتها، إلاّ أنّها لم تقدر.. فالدموع سالت وبلّلت صفحةَ وجهها الأبيض الملائكيّ؛ فغدت أكثرَ بريقًا وشفافية!...

أخبرتُها أنّني سأتوجّه إلى الغرفةِ كما أوعزت إليّ الطبيبة؛ فضمّتني بشدّة قبل أن أفارقها، ثمّ توجّهت ببطءٍ نحو سعد، وهي تجرّ قدميها جرًّا، وكأنّهُما صارتا أثقل من ذي قبل، وكأنّ جاذبيّةَ الأرض كلّها تجمّعت تحتهما!...

سقوط

دخلتُ غرفةَ الاستعدادِ للولادة/الموت، حيثُ استقبلتني موظّفةُ الاستقبال بوابلٍ من الأسئلةِ والاستفسارات، حتّى حسبتُها طبيبةً أخرى، أشدّ دقّةً من سابقتِها، ولعلّي خلتُها لوهلةٍ ضابطة تحقيق!! طلبت الموظّفةُ شيئًا ما يثبتُ هويّتي،.. أعطيتُها الورقة؛ فتأكّدت من وجودي! أمّا أنا، فبقيتُ حتّى هذه اللحظة أبحثُ عن شيءٍ ملموس بعيدٍ عن الأوراقِ والحبر لأثبت به هويّتي أو أثبّتُ به انتمائي وظهوري على وجهِ هذه البسيطة، عن شيءٍ يثبتُ فرضيّة أنّي أمرٌ واقعٌ حقًّا، إنسانةٌ لها أصلٌ ووجودٌ، وأرضٌ تحملُ رائحةَ ترابِها!

قالت الموظّفةُ بعد تأمّلٍ بسيط في ورقةِ هويّتي: "على زوجكِ التوجّه الآن نحو غرفةِ المحاسبة ليتمّ الدفع وتباشري ببقيّةِ التفاصيل.. أحضري ورقةَ إتمامِ الدفعِ ثمّ عودي إلى هنا..".

يا لروعةِ العبارةِ ودقّةِ التحديد، لم أجد أكثرَ من كلامها صدقًا!... لقد كانت صريحةً معي للغاية، أفهمتني كلّ شيءٍ على بساطٍ من بساطة، لم تكن أبدًا مدّعية ولا مجاملة، على العكس؛ فقد كانت واضحةً معي غايةَ الوضوح، حتّى حسبتُها الوحيدة التي تقولُ الصدقَ هنا بلا مجاملاتٍ ولا تحسيناتٍ، بلا أقنعةٍ تخفّفُ وطأةَ الحقائق المرّة!... وكأنّ لسانَ حالها يقول: "الأولويّةُ للدفعِ والمال، أمّا أنتِ

فمجرّد تفاصيلَ لا داعي لذكرِها الآن، ستمرُّ لاحقًا ويأتي وقتها مع تلاحق الأحداث وتتابعِها...".

أفهمُ الرسالةَ الأكثرَ وضوحًا، وأقدّرُها.. لطالما أحببتُ الوضوح، ولو كان مدجّجًا بالعتمة.. فعتمتهُ على الأقلّ لا ترتدي ضوءًا خادعًا ولا تطلُّ على سماءِ الآمالِ الفارغة أو الوعود الكاذبة.. على الأقلّ، هي عتمةٌ لا تستحي أن تكشف عن نفسها وكينونتِها لتقولُ: "ها أنا ذي، العتمةُ الساطعةُ التي لا تخفي نفسها، ولا تختفي خلفَ الإنارةِ والضياءِ الزائف.. أنا العتمةُ الأشدُّ وضوحًا والكذبةُ الأكثر صدقًا!".

يا لتلك الترّهات!.. بتُّ أحبُّ العتمةَ وأهواها، في زمانٍ صار فيه الضوءُ زينةً، زينةً ليس إلاّ...

أخرجُ من الغرفة، لا أدري ماذا أفعل، ولا كيف أوصلُ الرسالةَ لسعد؟ هل أطلبُ منهُ مباشرةً أن يتمّ الدفع لتتمّ بعد ذلك باقي التفاصيل التي لا أهمّيةَ لها، أم أخبر حنان لكي تخبره هي بنفسها وأتجنّب أنا الإحراجَ والحيرةَ والارتباك؟!! ولا ألبثُ أن أفكّرَ بالسؤال، حتّى تفاجئني حنان، بكلِّ حنانها المعتاد، وهي واقفةً خلف الباب، وتطلبُ منّي بطاقةَ الهويّة لإعطائها لسعد.

- "حبيبتي، أتيتِ في الوقتِ المناسب.. سعدٌ يقول إنّ موظّف المحاسبة يريدُ بطاقةَ هويّتكِ وإخراج قيدٍ عائليّ..".
- "من قالَ لهُ أن يدفع؟".
- "لا أدري، أظنّهُ ذهبَ بنفسه ليستفسر فقالوا لهُ ذلك".

لم أعرف ماذا أقول، خانني لساني، وخانتني كلُّ عباراتِ الشكر والامتنان.. خانتني مشاعري؛ فلم أعرف حينَها إذا كان من الأفضلِ أن أبكي أو أن أضحك، أن أبقى صامتةً أو أن أصيحَ بأعلى صوتي

وأقول: "ما زالَ في هذي الحياةِ وضوحٌ يطفئُ العتمـــة.. مـــا زالَ في هذي الحياةِ أنوارٌ بهيّةٌ حقيقيّة!".

ولحسن الحظّ أنّي كنتُ دائمًا أبقي كلّ أوراقـــي الرسميّـــة في المحفظة.. أعطيتُ الهويّة وإخراج القيدِ العائليّ لحنان، الـــتي أعطتـــهُ بدورها لسعدٍ دون أدنى شكّ.. لم أره حينها و لم ألمحهُ من بعيدٍ حتّى، كنتُ أتجنّبُ أن أعيرَهُ طرفَ عيني، لكي لا أقعَ في دائرةِ الارتبـــاك أو المواجهةِ الصعبة.. لم أكن لأواجههُ قطّ في موقفٍ مثلَ هذا الموقـــف، ولا في أيّ موقفٍ آخر... جلّ ما كان بإمكاني فعله هو الجلوسُ قربَ باب الغرفةِ التي تنتظرُني، لا تنتظرُني أنا بالتحديد بل تنتظرُ ما سيجيئُ عن طريقي من أولويّات، وليس عن طريقي أنا تحديدًا!... في ســـرعةٍ عادت حنان، لا انتظارَ ولا مشاكل، لا عوائقَ ولا تشابكات، كلُّ ما في الأمر أنّ سعدًا أتمّ الدفع وانتهت القصّة، لم يبـــقَ إلاّ قليـــل مـــن التفاصيل.. سنزيلُها حتمًا بعدَ قليل!...

- "خذي يا حبيبتي هذه الورقة، يقول سعد أنّه عليكِ أن تريها للموظّفة في الداخل لكي يعطوكِ السرير".
- "شكرًا لكِ يا أمّي، لا أعرفُ كيف أشـــكركِ ولا كيـــف أشكر سعد.. لا أعرفُ ماذا أقول.. أكتفي بالدعاء لكمـــا من كلّ قلبي".
- "حبيبةَ قلبـــي، هيّا توكّلي على الله، متى احتجـــتِ إلينـــا، فنحنُ هنا بانتظارك.. سألتهم إن كان بإمكـــاني الـــدخول معكِ فقالوا لا، كنتُ أتمنّى أن أكون قربكِ؛ لكن لا تخافي فاللّهُ قربكِ، وأنا وسعد سنقرأ لكِ سورةِ يس علـــى نيّـــةِ التيسير والتسهيل".

تضمّني حنان، وتقبّلُ وجنتيّ وهي تبكي، كنتُ لأخالها أمّي حقًّا لولا أنّ أمّي ما كانت لتبكي أمامي بمثلِ هذه البساطةِ، ما كانت لتفعلَ ذلك.. ولكم تمنّيتُ لو أنّها فعلت ذلك ولو لمرّة؛ لكي تخفّفَ عن نفسِها شيئًا من الحملِ الذي كانت تحملُه وحدها، وتأبى أن تشركني به.. هي ما كانت لتبكي إلاّ أمامَ الله وحده، إلاّ أمامَ الله...

أودّعُ حنان، وأوصيها بالدعاء، وبإيصال شكري وامتناني لسعد.. لم تسلني حنان عن تفاصيل ورقةِ القيد.. لم تسلني عن زواجي السابق، عن أحمد الذي لم أتكلّم عنهُ مرّةً أمامَها أو أمامَ أيٍّ من النساء.. عن حملي ووحامي المتعب الصعب، عن الغثيانِ المهلكِ الذي كنتُ أخفيه وتتبعُني بإثرهِ قوافلُ التحليلاتِ والظنون.. لم تسلني عن سبب إخفاءِ كلّ هذه التفاصيل المهمّة التي تختبئُ في ورقةٍ ميتة وقلبٍ في الصمتِ يُحتَضر، لعلّه لم يعد كذلك!...

أدخلُ الغرفةَ، برفقتي جنينٌ ميت، وورقةُ نجاة... تستقبلُني الموظّفة بترحيبٍ أكثر من سابقه، وتدعوني الممرّضةُ للدخولِ بعد أن ترى ورقتي وتكلّم الطبيبةَ في الداخل.. تسألني الطبيبة الأسئلة نفسها التي سألتني إيّاها الطبيبة الأولى، بالإضافةِ إلى عدّة أسئلةٍ أخرى تخصُّ تاريخَ العائلةِ المرضيّ، وما يتعلّقُ بذلك.. هي تسألُ وتكتب دون أن تنظر إليّ، لا حاجةَ لذلك، وأنا أجيب:

- "هل لديكِ أطفال؟".
- "لا..".
- "هل سبق وأجهضتِ؟".
- "لا".

- "هل هناك أيّةَ أمراض في تاريخ العائلة؟ سكّري، ضغط، غدّة درقيّة، إلخ...".

أبتسم.. لا أعرفُ بماذا أجيب.. هل أقولُ لها أنّنا عائلةٌ لها إرثٌ قديم وباغٌ طويل في مرض الموت مثلاً؟ هل أخبرُها بأنّنا عائلةٌ لا تنتظرُ المرض لكي تموت؛ فالموتُ يأتيها واضحًا، كاملاً، مختَصَرًا، بكلِّ أبعاده، سابقًا كلّ أسبابه.. بل وحاملاً لها أيضًا! هل أخبرُها؟... بأنّ مرضنا هذا ليس فقط متعلّقًا بالعائلةِ أو الوراثة، بل هو إرثٌ متجذّرٌ فينا، مطبوعٌ على جبينِ كلّ طفلٍ فلسطينيّ، منذُ أن ولدتهُ أمّه!!!...

تكرّرُ الطبيبةُ سؤالها فيما أنا سارحةٌ في الإجاباتِ المحتمَلةِ الساخرة؛ فأجيبُها بالنفي؛ لأختصرَ التفاصيل المملّة التي ما عادت تهمّ أحدًا منّا على ما كانَ يبدو...

تنتهي الطبيبةُ من الأسئلة، ثمّ تطلبُ منّي أن أجلسَ في سريري المحدّد - مشيرةً إليه - في انتظارِ دوري... لم أسلها ماذا سيحدثُ لاحقًا، هي لم تتعب نفسها أصلاً بإخباري، كلُّها تفاصيل لا حاجةَ لذكرِها، فالأهمّ قد تمّ!...

كان المكانُ مليئًا بالأسرّة، وكلّ سريرٍ حوله ستارةٌ زرقاء فاتحةُ اللون مريحةٌ للنظر، بعكس كلّ شيءٍ آخر موجود في الغرفة... لا حيطانَ بين الأسرّة، وهذا أجملُ ما في الموضوع، مجرّد ستائر ليس إلاّ.. من يدري، لعلّهم حسبوا أنّنا نحن النساء سنكونُ الحوائط، وأنّنا نحنُ من ستُعلّقُ علينا كلُّ الأماني والدقائقُ والساعات..

يمرُّ الوقت، ولا ساعةَ إلاّ خلفَ الستارة في وسطِ الغرفة، أفتحها تارةً وأغلقها تارةً أخرى؛ لأقرأَ الوقت الذي لم يعد لهُ أيّ معنى،

وأنتظر الطبيبةَ أو الممرّضةَ عساها تطلُّ برأسها.. تطلُّ الممرّضةُ أخيرًا لتغرسَ في يدي أنبوبةً صغيرةً بلاستيكيّة، تصلُها بإبرةٍ؛ لتنقلَ عبرها الأدوية وباقي التفاصيلِ الأخرى إلى دمي... تخبرُني الممرّضة أنّهُ لا يوجدُ دم!

- "ها ها ها"،.. أضحك...

كلُّ شيءٍ ممكن، أيُعقَل أنّني قد صرتُ بلا دم لكثرةِ ما نزفت؟!!... لِمَ لا؟!... فكلُّ شيءٍ ممكن...

تعودُ الممرّضةُ وتنزعُ الأنبوبة؛ لتغرسَ إبرتَها من جديد في الجهةِ الأخرى المقابلة، ويا للغرابة، فقد تدفّق الدم كلّه مرّةً واحدة!.. وأتساءل: "أكانت الإبرةُ حقًّا في يدي أم أنّها كانت قد ضلّت طريقها لثوانٍ فتجوّلت تحتَ جلدي لتحدثَ فيه هذا الزُّراقَ المعتمَ يا ترى؟".

تذهبُ ممرّضة، وتعودُ أخرى غيرها.. تمرُّ الكثيرُ من التفاصيل التي لا تهمّ.. كلُّ شيءٍ لم يعد مهمًّا، حتّى الطبيبةُ لم يعد حضورها مهمًّا أو ضروريّا.. الممرّضة أعطتني جرعةً من الطلقِ الصناعي، أعطتني جرعتين،... أعطتني ثلاثًا... وها أنا أنتظرُ الفرج.. أنتظرُ النزيفَ القويّ كما أخبرتني؛ لكي أستدعيَها... الألم لم يعد يؤلمُني، لم أعد أحسُّ به... لمّا تكاثرَ صارَ بنجًا، صارَ أشبهَ بالمهدّئ الذي لا يهدأ!...

لا أحد يقترب، لا ممرّضة ولا طبيبة، النساءُ المتألّماتُ بأصواتهنّ الذائبة وصرخاتهنّ المدوّية يخترقنَ حدّ الاقتراب، والستائرُ الزرقاء المريحة للنظر صارت منافذ للعبورِ نحو آلامِ الآخرين عبرَ الصوتِ والذاكرةِ الحيّة... أبقى أنا وحدي، أتألّمُ دونَ أدنى صوت، لا يحقُّ لي

أن أصرخ، الصرخةُ لا تجدي نفعًا، لا تجدي شيئًا، وصراخي لا معنى له، فلماذا أصرخُ أو أستنجد؟

أشعرُ بجنيني يسقطُ، قبلَ أن يأتي النزيف!.. لعلّهُ سبقَ النزيف وحطّم معتقداتِ الطبّ.. لعلّهُ مرضُ الموت، الإرثُ الأبديّ المباغت!...

قسوة

لم أعد أحسُّ بشيء، لم يعد يؤلمني شيء.. منذُ أن رأيتُ الطفلَ مضمومًا على نفسه في ذاك الكيس – وقد حُقَّ لهُ في عالمٍ مثل هذا – مخفيًّا بكلِّ تفاصيله، قلتُ في نفسي كلُّ شيءٍ سيصيرُ عاديًّا.. لا شكلَ لهُ لكي يحزنني، لا ملامحَ ولا أعضاء.. حاولتُ أن أقنعَ نفسي بكلّ هذه الترّهات... لكنّي لم أنجح... ثمّة ملامح واضحة وبريئة للطفلِ ترتسمُ في داخلي، تخترقُ الكيس وتتخطّاه لتدخلَ في صلبِ أعضائه.. تسحبُ من دمي قطرةً قطرة، وتجتثُّ من قلبي نبضات...

أنادي الممرّضةَ أخيرًا بعد أن هدأت نفسي قليلاً، ودون أن أبكي.. تأتي الممرّضةُ بعد ربعِ ساعةٍ، ولربّما أكثرَ بقليل، من يهتمّ؟!...

– "هل نزفتِ؟".

– "نزلَ الجنين".

– "حقًّا؟.. جيّدٌ أنّكِ لم تحتاجي للعمليّة..".

أبتسم لها.. تدخلُ الممرّضة وتتبعُها الطبيبةُ بعد قليل، وكانت المرّةُ الأولى التي تدخلُ فيها الطبيبةُ غرفتي/زاويتي؛ لتحملقَ بالكيس بقرفٍ واشمئزاز.. ومع شهادتها الطبّيّةِ، ومهنتها الإنسانيّة، وبكاملِ قفّازاتها، وغطاء رأسها الذي يُفترضُ أن يجعلها أكثرَ لطفًا، وأشدّ

رحمةً ورفقًا، كانت ترمقُ الكيس وتطلبُ من الممرّضة أن تقصّهُ بعيدًا عنها،.. تطلبُ منها الاحتراس وتوخّي الحذر لكي لا يتلطّخَ رداؤها الأبيض الذي لم يكن مُعَدًّا أبدًا لتفاصيل مقرفةٍ كهذه!..

- "هييه.. انتبهي.. إنّهُ ميتٌ منذ مدّة.."، تصرخُ الطبيبة بالممرّضة...

يخرجُ الطفلُ من الكيس، بكاملِ جسدهِ وبتفاصيلهِ العائمةِ الواضحة، الأوضحِ من حقارةِ الطبيبةِ ومن قسوتِها... تمسكُ الطبيبةُ طفلي بطرفِ الملقط، حتّى الملقط كانت تمسكهُ بطرفِ أناملِها، بأطرافِ قلبِها المتحجّر، أو أبعدَ عنهُ بأميالٍ عديدة... لم يكن وجهها يدلُّ إلاّ علىَ شعورٍ واحدٍ لا لُبسَ فيه، شعورُ "الاشمئزاز"!..

- "هل تشعرين بالألم.."، تسألُني..

ولأنّها هي وحدها كانت تمثّلُ لي الألمَ الأعمقَ والأكبر، لم أجبها..

نظرتُ إلى الممرّضة، وقلتُ لها: "أريدُ طبيبتي"..

لا تبالي الطبيبةُ بكلامي أو بمشاعري العجيبةِ المستَهجنة.. لا يهزُّها مشهدُ الدمعِ المغرورقِ في عينيّ عند رؤيتي للجنين السابح بلا حراك في عالمه المائيّ المائعِ الذي لم يكفهِ ليظلّ حيّا... كلُّ ما عناها هو أنّها أنهت مهمّتها، التي لم تبذل فيها شيئًا ما خلا الأسئلةَ الروتينيّة، وأتمّت باقي التفاصيل، ولم يبقَ إلاّ أن ترسمَ نقطةَ النهاية...

- "ولِمَ هذا التأثّر والبكاء؟ على الأقلّ لم يأتِ مشوّهًا.. ماذا كنتِ ستفعلين لو جاءكِ طفلٌ مشوّهٌ مليءٌ بالأمراضِ والعاهات؟ أكنتِ ستفرحين مثلاً؟..".

لا أعرف ماذا أجيب، كلّ ما استطعتُ فعله هو أنّي استدرتُ بوجهي صوب الناحيةِ الأخرى، حيث طفلي، حيثُ الطفولةُ لا زالت تنبضُ بالحياةِ رغمًا عنها، ورغمًا عن أنفِ القسوة... ولّما رأت الطبيبةُ أنّي لا أتجاوبُ معها، خرجت حانقةً غاضبة، وهي تتمتم وتتفوّه بكلماتٍ لم أعد أسمعها، كانت قد تلاشت مثلما تلاشت هي الأخرى في غياهبِ التجاهلِ والنكران..

لم أعد أسمعُ إلاّ بكاء الحوامل، اللواتي كانت أصواتهنّ وصرخاتهنّ تتدرّجُ علوًّا شيئًا فشيئًا، إلى أن تصل إلى قمّةِ الوجع؛ فتلفظ الصرخةَ الأخيرةَ والمدوّية، التي تُسمَعُ على أعقابها صرخةُ الطفلِ الأروعِ والأجمل.. كنتُ أسمعُ الصرخةَ تلو الأخرى بدقّاتِ قلبي؛ فتلفحُني كلَّ هنيهة بنفحاتِ الأمومة، ثمّ لا تلبثُ أن تتركَني مرميّةً على جسدِ الطفولةِ الساكن بلا حراك؛ لأحضنَهُ بدمعي وأموميّ التي لم يتسنَّ لها أن تكون..

جاءت طبيبتي بعد ساعات انتظار، كنتُ أثناءها قد بكيتُ كثيرًا حتّى ارتويت.. بكيتُ بحرقة، ليس اعتراضًا؛ فهذا قدَري وهذا حكمُ الله، وليس ألمًا؛ فقد تخطّيتُ الألم واجتزتُ كلّ مراحله...

كنتُ أبكي مرارةً من قسوةِ هذا العالم، من شحّهِ وانعدامِ عاطفته، من بخلهِ ومقتهِ لكلِّ ما يرتبطُ بالفطرة أو ما يذكّرُ بها...

سُبات

طبيبتي تأتي، بكاملِ بسمتِها المتأنّقة، التي لم أكن لألحظها إلاّ في نهايةِ المقابلةِ الأولى معها...

تأتي وتهاليلُ البِشر على محيّاها واضحة..

- "حمدًا لله على السلامة..".
- "سلّمكِ الله..".
- "حمدًا لله أنّكِ لم تحتاجي لأيّ عمليّةٍ أخرى، و لم تحدث أيّةُ مضاعفاتٍ.. تستطيعين الخروج؛ لكن بعدَ أن نجري لكِ صورةً لنطمئنَّ عليكِ..".
- "دكتورة، ماذا سيحلُّ بالجنين؟..".
- "تستطيعين أخذهُ معكِ لدفنهِ لو أردتِ؛ لكن بعدَ إتمامِ المعاملات طبعًا".
- "شكرًا لكِ..".

اطمأنّ قلبي؛ فالممرّضةُ كانت تقولُ قبل قليل، أنّ الطفلَ ليس بحاجةٍ للدفن؛ لأنّهُ وبحسب رأي الطبيبةِ القاسية، ما دبَّت الروحُ فيه بعد... وكنتُ مؤمنةً كلّ الإيمانَ بأنّها وحدها هي التي كانت فاقدةً للحسِّ والروح!..

ذهبت الطبيبة الطيّبة، بعد أن اطمأنّت عليّ، وبعد أن ألقت عليّ بعضًا من كلماتِها المريحةِ العذبة ودعواتِها المطمئنة التي كنتُ بحاجةٍ

إليها.. وكانت قد أوصت الممرّضةَ وألحّت عليها بالاهتمام والعنايةِ الفائقةِ بي، وطلبت منّي التحضّر لأخذ الصورة ما فوقَ الصوتيّة.. وكأنّها كانت تشعرُ بحاجتي للعنايةِ الفائقة، التي تفوقُ حاجةَ باقي النساء حولي.. كأنّها كانت تفهمُ هذا الشعور المفعمَ بالفقد الذي يمتصُّ أعماقي دون حاجةٍ منها لسماع تفسيرٍ أو شكوى.. كانت تكتفي بسماعِ ما يقولُه قلبها وما تمليه عليهِ فطرتُها السويّة، وكان هذا كافيًا...

بعد قليل، تخبرني الممرّضةُ ببلاغِ الطبيبةِ أنّهم سينقلونني إلى غرفة التصوير، وتفاجئني بأنّ المتوفّر حاليًّا في الغرفة هو طبيب، وليست طبيبة.. أرفضُ القرار بشدّة؛ فتتعجّبُ الممرّضةُ من حدّتي وإصراري على الرفض، مع أنّ الموضوع لا يستدعي - بحدّ رأيها - كلّ هذا القلق والممانعة.. فالأمر ضروريٌّ وإجباريّ، وأنا لستُ محجّبةً لكي أرفض أمرًا كهذا بطبيعةِ الحال - مع أنّهُ ليس طبيعيًّا - فأصرُّ على موقفي أكثر..

عن أيّ خطورةٍ وأيّ ضرورةٍ تتحدّثون؟ أنا لا أرى أيّ ضرورةٍ تستدعي هذا، ولا أجد أيّ حاجةٍ للإسراع في أخذ الصورة.. وأنا التي كنتُ قد نزفتُ وتألّمت وأسقطتُ الطفلَ في منأًى عنكم وعن عنايتكم، لولا أن تلقّفتني يدُ الله وعنايتُهُ الغامرةُ..

طلبتُ من الممرّضة أن تصلني بالطبيبة؛ فجاءت الطبيبةُ شخصيًّا، وحاولت هي الأخرى أن تقنعني؛ لكنّي ازددتُ إصرارًا وإلحاحًا، بأنّي لن أقابلَ إلاّ طبيبةً وإلاّ فلن أتمّ الصورة..

- "يا رهف يا حبيبتي، أنتِ تعلمين أنّ هذا أمرٌ ضروريّ، وأنتِ لا خيار أمامكِ الآن..".

- "ألا يوجد طبيبة في قسم التصوير؟".
- "بلى يوجد، لكن حاليًّا كلّهنّ مشغولات..".
- "إذًا ننتظر.. ماذا وراءنا؟".
- "لكن هذه الحالة لا يمكنُ أن تنتظر...".
- "يا دكتورة، لقد مرّ شهرٌ أو أكثر على وفاةِ الجنين برحمي، ومرّ يومٌ كاملٌ وأنا أنتظر هنا في المستشفى بعد أن حصل النزيف، فهل سيحدثُ الانتظارُ الآتي أيّ فرقٍ؟ لا أظنُّ ذلك..".
- "صدّقيني هناك نساءٌ محجّباتٌ تعرضن أنفسهنَّ على الطبيب النسائيّ بلا حاجةٍ أو ضرورة.. أنتِ تحمّلين الأمر أكثر ممّا يستحقّ".
- "بل أنا أضعُ الأمورَ في نصابها الأصحّ والأفضل.. إن لم أكن محجّبة؛ فأنا مقصّرة بالتأكيد.. فهل أزيدُ على تقصيري تقصيرًا أكبرَ منه؟ أنتِ يا دكتورة إنسانة مؤمنة وكلامكِ هو الذي أعطاني تلك الدفقةَ الإيمانيّةَ لكي أصبرَ وأتحمّلَ، وأنتِ الأَوْلى بأن تفهميني وتراعي طلبي..".
- "صدقتِ.. سأحاولُ أن أفعلَ شيئًا؛ لكن لا أعدُكِ..".

تذهبُ الطبيبة، ويمرّ الليل، وأنا دون طفلٍ، يدفئُ قلبي لأدفئه.. لم يعد يربطُني بالحياة شيءٌ، سوى شريطِ المصل، فلا ماء ولا طعام.. حتّى الشريط يُفصَلُ أحيانًا، وأُفصَل معه عن الحياةِ مرّاتٍ تلو مرّات دون أن أشعر أو أحسّ.. شيءٌ ما كان ينقصُني في تلك الأثناء، شيءٌ ما.. كنتُ قد غفلتُ عنه؛ لكنّهُ كان يحيطُ بروحي ويحاولُ أن يجتذبَها لكي تعود... كان الفجرُ قد بدأَ يشرفُ على القدوم، كنتُ

أشعرُ به دون الحاجةِ لرؤيةِ الساعة، وكأنّ دقّات قلبـــي صـــارت مبرمجةً على موعدِ الأذان المعهود!... لكن هذه المـــرّة لم أسمـــع أذانَ الفجر، فقط أحسستُ بنسماتهِ تداعبُ روحي وتوقظهـــا مـــن ذاكَ السُبات.. جاءَ الفجرُ وودّع قلبـــي غفلته..

صورةٌ داخليّة

طلعَ الصباح، وأنا لم أنم بعد.. ما عادت هناك نساءٌ غيري في الغرفة، كلّ الصراخِ ولّى، وكلُّ واحدةٍ ذهبت إلى بيتِها الدافئِ وعلى يدِها طفلٌ كالقمر، رأيتُهُ بأمِّ قلبي... غفت عيني لدقائق متقطّعة ومعدودة؛ لكنّ قلبي كان صاحٍ حتّى النهاية.. وكلّما كانت الممرّضة تطلُّ عليّ لتتفقّد المصل وتحقنني بمزيدٍ من أدويةِ الالتهاب، كنتُ أتطلّعُ فيها وأبتسم.. ورغمَ أنّه كانت قد مرّت عليّ خلال هذا اليوم أكثر من سبع ممرّضات، إلاّ أنّ هذهِ الممرّضة كانت أفضلهنّ، وأكثرهنّ رقّةً ورحمةً وطيبة.. كانت تبتسمُ لي كلّمنا رأتني مغمضة، وحين أفتحُ عيني لأرى ماذا تفعلُ، كانت تقولُ لي: "عودي إلى النوم، أنتِ منهكة"..

وظلّت على هذه الحال، وظللتُ أتابعُها حتّى طلوعِ الفجر.. وحين جاءت آخر مرّة، سألتُها: "ألا تنامين؟".

فابتسمت بمودّةٍ عارمةٍ كالأطفال، وكأنّها كانت تبدي لي امتنانها وفرحَها بالسؤالِ والاهتمام، ثمَّ قالت بصوتٍ ناعم رقيق: "تعوّدْتُ.. هذه مهنتي...".

ابتسمت لها، وشكرتُها، واعتذرتُ منها لأنّني أتعبتُها كثيرًا هذا اليوم..

ومع طلوع الصباح، تلقّت الممرّضةُ اتّصالاً هاتفيّا، عرفتُ أنّهُ

يتعلّقُ بـــي، وأنا الوحيدةُ الباقيةُ خلف الستارةِ المغلَقـــة.. فتحـــتُ الستارة، ونظرتُ إليها باحثةً عن جواب أو خـــبر يتعلّـــقُ بإمكانيّـــةِ خروجي. قالت الممرّضة أنّ الطبيبةَ تقولُ بأنّهُ عليَّ إجـــراء الصـــورةِ حالاً؛ فسألتُها: "هل جاءت طبيبةُ التصوير؟"؛ فأجابـــت بـــالنفي.. طلبتُ من الممرّضةِ أن تقولَ للطبيبة أنّني ما زلتُ مصرّةً على موقفي، وبأنّ شيئًا لم يتغيّر ما بين البارحة واليوم.. جاءت الطبيبة من جديـــد وبدأت تحاولُ إقناعي، وتغريني بإمكانيّة الخروج مباشرةً فيمـــا لـــو وافقتُ على أن يأخذ الصورة الشعاعيّة ذاك الطبيبُ المتوفّر دائمًا، ولا أدري لِمَ لَمْ يكن غيرهُ متوفّرًا، وكأنّهُ أُعجِبَ بالمهنة! وكأنّها مهنـــةٌ تليقُ بالرجال!!...

بقيتُ على موقفي و لم أتراجع، حـــتى اضـــطرّت الطبيبـــة إلى الاتصال مرّات عديدة بقسم الأشعّة، إلى أن وجدوا بعدَ دقائق طبيبةً متوفّرة، ولا أدري كيفَ وجدوها هكذا فجأةً وبمثلِ هذه الســـرعة، بعد أن أكّدوا لي مرارًا أنّه من غير الممكن إيجادُ طبيبةٍ في مثلِ ذلـــك الوقت المبكر!...

لم أبالِ بالتفاصيل، ما يهمّ هو أنّني لم أرضخ لهـــم، وقاومـــتُ هواهم واستسلامهم للشواذ وكأنّهُ غدا مسلَّماتٍ أو ضـــروريّاتٍ لا غُبارَ عليها..

توجّهتُ إلى الخلاء لكي أبدّل أخيرًا ملابس المستشـــفى، الـــتي كانت تزيدُني بردًا بدلاً من أن تدفّئني.. لحقـــت بـــي الممرّضـــةُ العطوف، وأصرّت أن ترافقني إلى الخلاء تحسّبًا مـــن أن أقـــع أو أن يصيبني الدوران؛ لأنّي نزفتُ بشدّة حسب قول الطبيبة، مع أنّـــي لم ألحظ ذلك!.. لكنّني رفضتُ عرضَها بلطفٍ، وأَخبرتُها أنّي بخير، وأنّ

باستطاعتي أن أتدبّر أمري دون مساعدتِها..

وحين لاحظت عنادي، طلبت الممرّضةُ منّي ألاّ أقفلَ البابَ؛ لأنّها ستقفُ في الخارجِ لتسعفَني إذا ما أصابني مكروه.. هززتُ برأسي، وما إن رأيتُها تتنحّى جانبًا وتقف على بابِ الحمّام، حتّى أقفلتُ البابَ بسرعةٍ من الداخل خشيةً من أيّ اقتحامٍ غيرِ مبرَّر!...

حضّرتُ نفسي خارجيًّا للصورة، مع أنّها صورةٌ داخليّة!.. وكيف يمكنُ لأحدٍ أن يصوّر داخلي؟ كيفَ يمكنُ لأحدٍ أن يعبرَ جوفي ويستخرجَ ما بهِ من أسرارٍ وعِبَر؟ أبإمكانِ أحدٍ أن يحيطَ بأبعادي العميقةِ الأخرى التي لا أقوى أنا نفسي على الإحاطةِ بها؟!!! وقفتُ أفكّرُ وأنا أنظرُ إلى نفسي في المرآة، ولا أدركُ ما أرى! هل أرى امرأةً راشدةً، قد تخطّت سنّ الرشدِ أم أرى طفلةً صغيرةً لم تفارق بعد أرضَ الحلم؟ وكأنّني بدأتُ أهذي.. وكأنّ حلمًا في داخلي قد عادَ يتفتّحْ!... وترتسمُ الإجابةُ في جوفي دونَ الحاجةِ لأن أكتبَها...

الفصلُ الثالث

حلمٌ تفتّح

(طفولةٌ تزهو بالدفء)..

عودة

كان كلُّ شيءٍ على ما يُرام.. وعلى الرغم من كلِّ تلـــك الآلامِ المتجدّدةِ المتفتّحة فيَّ، والألم الجديد الأخير، كنتُ في داخلي أشـــعرُ بطمأنينةٍ عجيبة!... كان كلُّ ما في جوفي ساكنًا مستريحًا، وكنتُ أنا نفسي أعجبُ لهذا الشعورِ الحلوِ المختلط الذي كان يعتريني!... مـــن أين لي بكلِّ هذه المشاعرِ الجميلة؟ ومن أين هبطت عليَّ كلّها فجأة، مرّةً واحدة، ودونَ سابقِ عادة؟!!...

في الخارج، كان الاثنان اللطيفان ينتظرانني، والتعبُ بادٍ علـــى محيَّيْهِما.. سعدٌ كان قد عادَ في الليلةِ الماضية إلى المخيّم برفقةِ حنـــان، ورجع في الصباحِ معها ليقلّني إلى البيت/المخيّم، بحسبِ مـــا كـــان مُتوَقّعًا، وبحسب ما قالتهُ لهُ الممرّضة وهي تريهِ الطفل الذي كان قـــد سقط للتوّ.. حسبت الممرّضةُ أنّ سعدًا زوجي؛ لأنّهُ كان يقفُ على بابِ الغرفةِ مع حنان، متمتمًا بالأدعية، ويستوقفُ كـــلّ ممرّضـــةٍ أو طبيبةٍ تخرجُ من الغرفة ليطمئنَّ عليّ ويطمئنَ حنان.. أخبرَتْهُ الممرّضـــةُ أيضًا أنّي عنيدةٌ جدًّا كوني قد رفضتُ أن أقابلَ الطبيب وأصـــررت على موقفي...

ما إن خرجْتُ من الغرفة ورآني الاثنان، حتّى تهللّ وجهاهمـــا، وصارت البسمةُ طافية.. شعرتُ بلمحةِ حزنٍ في أعينهما، مع أنّهمـــا جاهدا كثيرًا ليخفيا ذلك عنّي..

- "سامحاني،.. أتعبتكما معي".
- "حمدًا لله على السلامة يا حبيبتي، عن أيّ تعبٍ تتحدّثين؟.. كيف حالكِ الآن؟ هل تشعرين بأيّ ألم؟".
- "السلامُ عليكم، حمدًا لله على السلامة"، قالها سعدٌ بصوتٍ خفيضٍ خجول، وهو يطأطئُ رأسهُ ويبتسمُ ابتسامةً يكسوها الارتياح..
- "سلّمكما الله..".
- "ننطلق؟" قال سعد، موجّهًا أنظارَهُ نحو حنان..
- "إذا أحببتم..."، أجبته وأنا أنظرُ بدوري إلى حنان التي صارت وسيطًا بيننا، ومستقّرًا جامعًا لكلماتنا المُرسَلة ونظراتِنا السارحةِ التي لا تتلاقى..

تبتسمُ حنان، ولا تقولُ شيئًا.. تحيطُ يدها بخاصرتي برفقٍ وحنان، وتبدأُ رحلةُ العودةِ إلى أرضِ المنفى...

في الطريق لم يقل سعدٌ شيئًا، كان صامتًا للغاية.. أمّا حنان فقد كانت تسردُ لي التفاصيل التي حدثت في غيابي..

- "أين نمتما؟".
- "عدنا إلى المخيّم، ورجعنا إلى المستشفى من بعدِ صلاةِ الفجر مباشرةً..".

قال سعدٌ حينها مبتسمًا دون أن يلتفتَ إلينا، ودون أن يسرق نظرةً من المرآةِ خلسةً: "صلاةُ الفجرِ افتقدتكِ"..

ابتسمت ابتسامةً عريضة.. حنان قالت لي إنّها أخذت مكاني في غيابي.. كانت حنان تصلّي الفجرَ حاضرًا داخلَ الخيمةِ كلّ يوم؛ لأنّ البردَ كان شديدًا جدًّا في الخارج؛ لكنّها قرّرت

بعد أن جرّبت دفء الجماعةِ وبهاءَها ألاّ تتركها أبدًا بعد ذلك اليوم...

المنفى البعيدُ يقترب.. نصلُ إليه، لم أعد أحسبُهُ كذلك.. كلُّ شيءٍ في المنفى صارَ أحلى، وأقربَ إلى القلب.. حتّى النساء ونظراتهنّ المتطفّلة، وتساؤلاتهنّ الملحّة التي كانت تقفز من رؤوسهنّ وأخيلتهنّ إلى دواخلنا نحن الثلاثة، سعد وحنان، وأنا؛ لتستقرِئَ منها جوابًا شافيًا أو مُمرِضًا!...

نقتربُ منهم، ألقي التحيّة أنا وحنان على جمهور النساء المتجمّع في ساحة الصلاة، ليس للصلاة هذه المرّة..

- "خير إن شاء الله؟ طمئنينا عنكِ، ماذا جرى لكِ؟".
- "الحمدُ لله صرتُ أفضل حالاً الآن..".

"ماذا حصل؟"، تسأل سيّدةٌ أخرى على يدِها رضيعٌ يئنُّ من الجوع ويشدُّ ملابسها علّها تلتفتُ إليه..

تردُّ حنان ردًّا يضع حدًّا لباقي التساؤلات المنهمرة، ويُخرسُ ظنونَ السوء، والنظراتِ المهاجمة المشوبةِ بالشكّ والريبة: "رهف كانت حاملاً وفقدت جنينها بسبب البرد والتعب.. هل ارتحتم؟.. دعوها الآن لترتاح".

وبرغمِ الجواب المسكت والشافي لمن يعرفُ التفاصيل، إلاّ أنّ النساء تلقّفنه بمزيدٍ من الفضول والأسئلةِ التي لا حصر لها؛ لأنّهنّ ببساطة، لا يعرفنَ من التفاصيلِ شيئًا!..

"ياه!.. معقول؟..." تقولها إحدى المتجمهرات، قبل أن تتذكّر أخيرًا أن تقول: "حمدًا لله على سلامتك"..

اقتراب

أكتفي بالصمت والابتسامة، وأعود إلى خيمتي لآخـــذ نفسًـــا عميقًا، مريحًا هذه المرّة.. كيف لا، وقد ارتحـــتُ الآن؟.. فحنـــان حسمت الأمر، واختصرت عليّ طريق التساؤلات الطويـــل- ربّمـــا ليس كلّه - ووفّرت عليّ كثيرًا من الجهد والعناءِ والقلـــق.. داخـــلَ الخيمة، أستلقي على فرشتي، أسمعُ دندنة النساء في الخارج، لا آبهُ لمـــا يقولونه كالعادة، مع أنّني كنتُ على ثقةٍ بأنّ الكلام كلّه كان يـــدورُ حولي.. كنتُ أشعرُ في هذه اللحظة أنّ مخيّلات النساء، تطوفُ حول خيمتي وتسترق السمعَ والنظر.. أعرفُ هذا الأمرَ وأشعرُ به، ومـــع ذلكَ لا أبالي، ولا يزعجني الأمرُ بتاتًا.. كنتُ شديدةَ التقبّل للأمـــر، غير مبالية.. وكأنّ النساءَ كلّهنّ في لحظةٍ واحدةٍ قد صرنَ أطفـــالاً، تقبّلتهنّ دفعةً واحدة، وتقبّلتُ فضولهنّ، على أنّهُ فضولُ أطفـــال... أجل، هو فضولُ أطفالٍ ليس إلاّ، والطفلُ لا يُعتَبُ عليه..

وللحظةٍ، خطر ببالي أن أخرج إليهنّ وأجلـــس معهـــنّ أدردشُ وأحتسي كوبًا من الشاي، لولا أنّ التعب والنعاس منعاني وأجـــبراني على البقاء مستلقيةً في فرشتي إلى أن غربت شمس اليوم.. لم أصـــدّق أنّني نمتُ كلّ هذه الساعات!.. أيُعقلُ أن يكون النوم قد تصالحَ معي بعد كلّ هذا الجفاء؟ خرجتُ من الخيمةِ نشيطةً إلى حدٍّ ما، نسبةً لمـــا كنتُ قد مررتُ به من آلام ومعاناة... تلقّفتني عيون النساء بلطـــفٍ

وبهجة، نظراتهنّ كانت هذه المرّة تحتضنني بدلاً من أن تحاكمني وتستنطقني!.. انهالت عليَّ النساءُ من كلِّ حدب وصوب، وسقطتُ بينهنّ بكلّ رضًا ورحابةِ صدر.. جلستُ بينهنَّ مباشرةً، دون أيّ حائل! ولأوّل مرّةٍ لم أكن غائبةً عنهنّ، منفصلةً كما أكون في كلِّ مرّة.. كنتُ قريبةً إلى أبعدِ حدّ، وكنتُ ألمسُ الجانبَ الأجمل فيهنّ..

الوجوهُ هنا صارت متبسّمةً مستنيرة، والقلوبُ صارت تدفئ بعضها بعضًا على شفيرِ ألمٍ قد توحّد واجتمع.. النساءُ اليوم صرن يعتبرنَني واحدةً منهنّ؛ لأنّني ببساطة جرّبتُ الألم مثلهنّ وخبرته.. لأنّني سقطتُ من برجي العاجيِّ الذي كنّ يرسمنه لي في مخيّلاتهنّ، ووقعتُ مباشرةً تحتَ ركامِ القهرِ والوجعِ والفقدِ المبرِح!... وعرفتُ في حينها أنّ حنان كانت هي التي أخبرت النساءَ بكوني أرملة جاءت إلى هذا المكان لتخفّف عن النساء والأطفال وطأةَ الألم والوجع، وبعض الذي كانت تعانيه شخصيًّا دون أن تبوحَ به لأحد.. لأنّها ببساطة لا تريدُ أن تثقل على أيّ أحد أو أن يحمل همّها أيّ مخلوقٍ كان.. هكذا أخبرتني زهرة، إحدى الأرامل التي كانت قد نالت نصيبها من الألم والحسرة في الحرب الأخيرةِ الإباديّة، التي أذبلتها وأذبلت أنوثتها وصباها، وما تركت لها من الزهر شيئًا سوى اسمه!

- "في أيّ شهرٍ كنتِ حين تُوفّي المرحوم؟"، تسألني زهرة..
- "في الشهر الأوّل..".
- "لا حول ولا قوّةَ إلاّ بالله.. رحمهُ الله.." تجيبُ أكثر من واحدةٍ في الوقتِ نفسه..

أصمت.. أبتسم، ثمّ أطلبُ من إحداهنّ أن تصبّ لي كوبًا جديدًا من الشاي.. اليومَ فقط أريدُ أن أكون يقظة، لا أريدُ أن

أغيب.. أودّ أن أكون بينهنّ بكاملِ وجودي وأبعادي، بـــرغمِ كـــلّ الاختلاف، وانعدامه.. اليومَ فقط، ولأوّل مرّة، أدركُ أنّ كلّ أنثى من هؤلاء النساء لها حكايةٌ وقصّةٌ موجعة، جعلتها تكبرُ بهـــذه الســـرعةِ القياسيّة، وتفارقُ أرضَ الطفولة، وأحلامها.. بـــل وتمقـــتُ هـــذه الأحلام، وكلّ من يحاولُ استعادتها... اليومَ فقط، واليومَ بالـــذات، أرى خيوطًا شفّافةً طفوليّةً تختبئُ خلف قسوةِ كلِّ امرأة، خلفَ كـــلِّ سوارٍ، ذهبيٍّ أو غيرِ ذهبيّ، خلفَ كلّ ابتسامةٍ جافّةٍ مُتعَبَـــةٍ وكـــلِّ قميصٍ ملطّخٍ بالوحلِ والأسى!... تحتَ كلّ هذه الحواجز وغيرها – وما أكثرها – أرى طفولةً مسحوقةً تحتاجُ لمن ينتشـــلها لـــيس إلاّ.. تحتاجُ لمن يشتمّ عبق النسيمِ الحلو فيها، الذي أصابهُ السباتُ الأبـــديُّ الطويل، فنام وما عاد يعرفُ كيف يستيقظُ من جديد!... مات ميتتهُ الصغرى؛ لكنّه لم يمت بعد؛ فميتتُهُ الكبرى ما زالت تنتظر، تنتظرُ أيّ فرصةٍ لتشرئبّ وتقتلع الحلمَ من جذوره، وتدفنَهُ في غياهبِ الفقـــدِ والقهر، والألمِ والعذاب، والتلاشي...

أدخلُ خيمتي بعدَ كلّ هذا القرب، بعد كلِّ هـــذا التمـــاهي في الحضور والعودةِ من الغياب.. أكتبُ عن الموت، وللمرّةِ الأولى أكتبُ عنه وأنا في غايةِ السعادةِ والاطمئنان، بعيدًا عن كلّ أسى وخوف:

كلٌّ منّا حالةُ موتٍ مؤقّتة، ميتةٌ صغرى متواصـــلة، تطـــولُ وتقصرُ مع الزمن، بحسب الظروف والأحداث.. ونحنُ فقط، مـــن يحدّد انقطاعَها أو اتّصالَها!...

عَصفٌ وقيْد

حينما اشتدّ الظلام، خرجتُ من الخيمة؛ لأرى أمجد.. كنتُ قد افتقدته كثيرًا لليلةٍ كاملة.. وكيف لا أفتقده، وهو الوحيد الذي يعرفُ عنّي كلّ شيء حتّى قبل أن أقوله؟!... وهو الذي أشعرُ حين أكلّمهُ أنّني أكلّمُ نفسي وأحاكيها، وأفضفضُ لها بصوتٍ عالٍ؛ لتردَّ عليّ بكلّ حكمةٍ وتملأ خافقي بالسكون!... أمجد كان حزينًا إلى حدٍّ ما؛ لأنّهُ عرفَ من سعد أنّني كنتُ أتألّمُ بصمتٍ مُفعَم..

- "كنتَ لتعرف هذا وحدك.. كنتَ لتحسَّ بهِ..".
- "بالتأكيد..".
- "لكن، هو، كيف عرفَ ذلك؟ لم يكن ينظرُ إليّ، ولم أكن أبدي شيئًا!..".
- "قال إنّه يعرفُ ما كنتِ تعانينه جيّدًا،.. فزوجته تُوفّيت وهي تلدُ ولادةً باكرة، وتوفّيَ الجنينُ أيضًا..".
- "لا إله إلاّ الله!.. مسكين..".
- "على العكس.. فقد قال لي سعد أنّ فجيعتهُ بزوجته وطفله كانت هي المحنةُ التي منحتهُ كلّ هذا الإيمان واليقين بالله، وأنّ الله حين منع عنه العطاء لفترةٍ وجيزة، أعطاهُ بالمقابل عطاءً وفيرًا متجدّدًا غير مقطوعٍ ولا ممنوع، ولا زال عطاؤه مستمرًّا ودائما حتّى اليوم..".

- "مثل ماذا؟.. ماذا أعطاه الله؟ هل أعطاكَ أمثلة؟..".
- "ليس كثيرًا.. لكن ما فهمته منه أنّه لم يُقبل على دراسة الشريعة والتعمّق في الدين إلاّ بعد تلك المحنة التي مرّ بها، ومنذ ذلك الحين صار إيمانه أشدّ وأعمق، وصار أقرب إلى الله سبحانه وتعالى".
- "سبحان الله، إنّه مؤمنٌ بحقّ!.. ليتني أحظى بإيمانٍ يشبهُ إيمانه..".
- "تستطيعين..".
- "حقًّا؟!.. كيف؟!!!...".
- "توكّلي على الله..".
- "هو قال ذلك؟..".
- "فهمتُ هذا بنفسي ولمستهُ فيه".
- "لديّ بعض الأسئلة..".
- "لسعد؟..".
- "ومن غيرك يفهمني؟".
- "حسنًا، ما هي؟.. قوليها لكي أسأله وأجلبَ لك الإجابات..".
- "ليس الآن.. فهي كثيرة، ولا أستطيعُ الإحاطةَ بها كلّها مرّةً واحد.. أحتاجُ لأن أفكّرَ فيها جيّدًا؛ لكن سأحاول أن أكتبها وأجمعها لك على ورقةٍ في أقرب فرصة..".
- "حسنًا.. كما تشائين".
- "لكن.. لي طلبٌ صغير...".
- "لا تريدينه أن يعرف أنّكِ صاحبةُ الأسئلة..".

- "بالضبط.. كم أنتَ رائع!".
- "تلميذكِ..".

عدتُ إلى خيمتي، وعصفُ الأسئلةِ وتداخلها في رأسي يقتلعُ منّي القدرةَ على التركيز في سؤالٍ واحدٍ كاملٍ؛ لأُقيِّدَهُ قبلَ أن يفرّ منّي ويطير..

أستقرُّ في النهاية، على سؤالين اثنين ليس إلاّ:

"ما حدودك؟".

"إذا كان كلُّ شيءٍ ماضٍ في المستقبل؛ فلِمَ كلُّ هذا العناء في الحاضر؟".

أقيّدُ السؤالين في قلبي قبلَ الورق، ثمّ أكتبهما أخيرًا قبل أن يتفلّتا، وأغفو على صدى ارتياحٍ مبهرٍ أخّاذ كان قد بدأ يظهرُ ويلوحُ في أرجاءِ نفسي والأفق...

فجرُ أمّي

هذا الفجرُ الذي أحارُ في وصفه، كان رائعًا ككلّ مرّة، وفي كلِّ مرّةٍ يصبحُ أروع! صلاةُ الفجرِ تحييني كلَّ يومٍ مرّةً أخرى، وتعطيني دفقًا جديدًا من الروحِ والنبضات الحيّة التي كنتُ أفتقدُها لسنوات... أمّي كانت حيّة، كانت تعرفُ ما أحتاجُ إليه بالتحديد؛ لكنّها لم تكن لتوقظني بمثلِ هذه السهولة.. وكيفَ لحيٍّ أن يوقظ ميتًا؟!.. كان لا بدّ لها أن تموت حتّى توقظني في المنام، في الرؤيا التي غيّرت كلّ شيء، أو مهّدت للتغيير..

أنا حين قرّرتُ المجيء، قرّرتُه على إثرِ صيحةٍ في الحلم.. صيحتين ودمعة، ليس إلاّ!.. لم أكن لأحزمَ حقيبتي، هكذا وبكلّ بساطة، وأتوجّه كضيفةِ شرفٍ إلى المكان الذي يلائمُني أكثر كنزيلةٍ، وليس كضيفة!.. لم أكن لأملك كلّ هذه الشجاعة، ولا جزءًا من هذا الأمل!.. لولا أنّ العنايةَ الإلهيّةَ تلقّفتني، وأرسلت لي رسالةً ما زلتُ حتّى الآن أفكّرُ في فحواها،.. أحلّلُها، ولا أفهم.. أظنّني قد بدأتُ اليومَ أفهم...

هذا الفجر، ازداد عدد المصلّين، صرنا قرابةَ العشرة!.. لا أدري كيف حصل ذلك، ولا الخلفيّات التي سبقت حصوله، إلاّ أنّ الأهمّ والأروع من ذلك كلّه هو أنّ حنان انضمّت إلينا أيضًا، كما كانت قد وعدتني، وكما كانت قد قطعت على نفسها عهدًا بألاّ تفارق

جماعةَ الفجرِ أبدًا...

انتهت الصلاةُ وكأنّ كلَّ شيءٍ بانتهائها صار في بدايةٍ مستمرّةٍ لا نهائيّة.. كلّ شيءٍ بعدَ صلاةِ الفجر، في وقتها ومع الجماعة، يصبحُ أجملَ وأحلى وأكثرَ بريقًا وشفافية، تمامًا كالوليد حين تلدهُ أمّه، مفطورًا على البراءة والجمالِ والخير والطهر غير المنقطع.. كطفولةٍ تفتّحت ذات فرحة، وما عادت لتذبلَ أبدًا رغم أحزانِ السنين... كلُّ الوجوهِ هنا صارت أكثر إشراقًا ورونقا، النساءُ والرجالُ، حتّى تفاصيلُ الأيّام... الأطفالُ البعيدون صاروا أكثرَ قربًا، والفجرُ ألقى دثارهُ الطفوليَّ على الجميع؛ ليدفِئَ القلوبَ كلَّها مرّةً واحدة، وليوقظ الأحلامَ من سُباتِها الشتويِّ الباردِ الطويل...

حين حزمتُ الحقيبة، كنتُ لا أزال في شهري الأوّل من الحمل، وكان الحلم في دائرتي لم يصر بعد حلمًا، بل مجرّد أضغاث أحلام... حديث نفس، وليست نفسي بالتأكيد، بل نَفسُ أحمد!

وأنا التي كنتُ قد جزمتُ بعد رحيله أن لا مجالَ للعودةِ إلى أرض الحلم بعد اليوم، لا مجال للعودة،.. بعد كلّ هذه الخيبات والطعنات المتتالية.. قد أشبعتني الحياةُ غربةً ولهيبا، قلتُ يكفيني ألمًا ودورانا يشبهُ دوران الثور حول الساقية الضيّقة، يكفيني غباءً وهباء!...

قلتُ سأغيبُ من جديد، غيابًا دائمًا هذه المرّة، سأوقفُ دائرتي عن الدوران، بأمرٍ منّي هذه المرّة.. سأوقفها قبلَ أن توقفَ نفسها رغمًا عنّي، وتباغتني.. سأباغتها قبل ذلك!.. قلتُ لا عودةَ للوراء، لا رجعةَ إلى المجهول الذي لم يعد مجهولاً في ناموسي، فكلّه غدا خيبةً وموتًا وانتهاءً... انتهاءً أبديًّا، يدورُ يدورُ ولا ينتهي، حتّى ينهينا...

فلننهِ قبل أن ينهينا!... وكنتُ قد عاهدتُ نفسي، بعد أن أشبعتني اكتفاءً ونفورًا من هذا العالم المؤقّتِ الضيّق، الذي يموتُ كلّ يومٍ باستمرار، دون أدنى جدوى.. كنتُ قد عاهدتها على الاختباء/الاختفاء، على الغياب الذي ليس بوسع أحدهم أن ينتشلني منه، كائنًا من كان...

لم يكن ليخطر ببالي ولو لوهلة أنّه كان من المحتمل أن تكوني أنتِ هذا الكائن يا أمّاه.. عزّت عليّ نفسكِ، وكينونتكِ، برغمِ انتهائها العابرِ المؤقّت الذي كنتُ أحسبه انتهاءها الدائم النهائي.. لم أشأ أن أخذلكِ في الحلم كما خذلتكِ في اليقظة.. حملتُ أمتعتي، وحملتكِ معي، وبجعبتي صفرٌ من الآمال والطموحات.. بجعبتي صفرٌ ليس إلاّ.. حملتُ الصفرَ وسافرتُ معه، على أقربِ رحلةٍ تنقلني نحو أرض المنفى، أرض الطفولةِ المغتصبة، والأحلام الباردةِ المرتجفة... تأمّلتُ الأحلامَ الصغيرةَ عن بعد، تأمّلتُها عن قرب، كلٌّ واحدٍ على حدة.. ينتفضُ كعصفور، يرتجفُ من البرد والخوف.. من الألمِ والوجع... من الفقدِ واللوعةِ والحنين... لم أجرّب شيئًا جديدًا، ولم آتِ بشيءٍ جديد، هكذا كنتُ أخال.. حتّى حين هيّأت لي الظروف أن أصير مراسلة لجمعيّة حقوق الإنسان، نزولاً عند طلب أحمد، لم أكن لأصدّق فكرة أنّي سأقدّمُ شيئًا ما جديدًا.. بأنّي سأنقذ الأحلام وأدثّرها عبر رسالةٍ ليس إلاّ، لن تقدّمَ أو تؤخّر، بل ستكتفي بنقل الصوت والصورة إلى قلوبٍ ميتةٍ غافلة لا تسمعُ ولا ترى!...

لم أكن لأحسبَ ولو للحظة أنّ الرسالة تلك ستكونُ هي الطريق الصحيح الذي أسيرُ عليه لأصلَ أنا قبل أن أوصل الباقين معي، وخلفي، وأحيانًا أمامي!... لم أكن لأدركَ أنّني سأقابلُ أمجد، وحنان

وسعدا.. لم أكن لأدركَ أنّني سأقابل الباقين كلّهم عن قرب، الأطفالَ والنساء.. أنّني سأبصرُ أحلامهم جميعًا، وألمسُ نور الطفولةِ المخبّـــأةِ فيهم بعينِ قلبـــي، بعد انطفاء نجمها الذابلِ في عينيّ...

مسوّدة

يقولُ لي أمجد أنّي أنا سبب هذا التزايد المستمرّ في عدد المنضمّين لصلاة الفجر؛ فصوتُ بكائي أثّرَ فيهم.. أقولُ له إنّ هذا الكلام غير صحيح، بل إنّ سعدًا هو المسبّبُ الأوّل والأخير، فينبّهني قائلاً:

"اللَّهُ هو المسبّب، والله قد يسخّرُ عبدًا من عباده ليكون سببًا من أسبابه!".

- "صدقت.. كلّ يومٍ تعلّمني شيئًا جديدًا ومفيدًا أيّها الحكيمُ الصغير!..".
- "هذا ليس كلامي، إنّهُ كلامُ سعد..".
- "جميل...".
- "هل انتهيتِ من كتابةِ الأسئلة؟".
- "نوعًا ما.. إليكَ المسوّدة، أحتاجُ لتبييضها ليس إلاّ...".

ينظرُ أمجد إلى الورقةِ؛ فينتبهُ أوّلاً إلى الجملةِ المكتوبةِ في الخلف، منذُ يومين أو أكثر..

يقرؤها بصوتٍ عال:

"كلّ منّا حالةُ موتٍ مؤقّتة، ميتةٌ صغرى متواصلة، تطولُ وتقصرُ مع الزمن، بحسب الظروف والأحداث.. ونحنُ فقط، من يحدّد انقطاعَها أو اتّصالَها!...".

- "هل أعجبتك؟".

- "أقول، ربّما من الأفضل أن نعطي سعدًا هذه المسوّدة فالخطُّ واضحٌ والأسئلةُ جاهزة.. ما رأيكِ؟...".
- "ممم.. ماذا عن الخربشةِ الفاضحة على الوجهِ وفي الخلف؟".
- "من يبالي؟.. المهمّ أنّ الرسالةَ ستصل، والأهمّ أن يردكِ الجواب على الأسئلة..".
- "والأهمّ من ذلك كلّه أن لا يعرف سعدٌ من السائل..".
- "آه.. طبعًا.. طبعًا.. بالضبط،.. اتّفقنا...".
- "أشكُّ فيك..".
- "هههه إذًا أنا دبّوس..".
- "هههههه بل أنتَ بحر".

يبتسمُ أمجد، ثمّ يمضي متوجّهًا نحو خيمته بعد أن يلقي عليَّ تحيّةَ السلام.. منذُ أن تعرّفَ إلى سعد وهو لا يلهجُ بتحيّةٍ غيرها، ولعلّ هذا كان سبب كلّ هذا السلام الداخليِّ الذي حلَّ عليه فجأةً وبسرعة.. الوقتُ تأخّر وكلانا بحاجةٍ للنومِ والراحة.. أنسحبُ من عتمةِ العالمِ الضيّق نحو خيمتي الوضّاءةِ واسعة المدى..

هذه الليلةَ لا أريدُ أن أكتب.. لا أودُّ أن أفكّرَ بشيء، فقط أريدُ أن أخلدَ للنومِ، وأنتظر الفجر ليطلع.. الليلُ أمسى مخدعي الهادئ، والفجرُ بات دثاريَ الحنون، أمّا النهار، المغشّى بمعاني القسوةِ والقهرِ والفقدِ والزيف؛ فسيكونُ لهُ معنًى آخر، قريبًا دونَ أدنى شكّ...

روحٌ وطيب

تطلُّ عليَّ ككلّ فجر، من خيمةِ قلبِها الواسع، مع بسمةٍ عريضةٍ أوسع، لا يسعُها كلُّ المخيّم.. صارت حنان رفيقتي الدائمةِ بصلاةِ الفجر، وانضمّت إلينا رفيقتان رقيقتان: زهرة ورغد.. حنان كانت قد دعتهما عدّة مرّاتٍ شفويًّا، أمّا أنا فدعوتُهما قلبيًّا متمنّيةً لو تجيئا، وجاءتا بالفعل، دونَ أن أبذلَ أيَّ جهد!.. زهرة، الأرملةُ التي لم تمت بعد، ورغد، أمّ الأطفال الخمسة كما يسمّيها الجميع!

حنان، لا تنفكُّ تدفقُ عليهما بالحنان ليل نهار، تمامًا كما تفعلُ مع أيٍّ كان.. أمّا أنا الغريبةُ التي كنتُ بالأمس أحاكمُ جفاءهما، فقد أزحتُ ستارةَ القسوة التي كانتا تحجّبان كامل عطفِهما ورقّتهما خلفها، ورأيتُ ما لا يُرى بالعينِ المجرّدة،.. ما يحتاجُ لقلبٍ ونورٍ ساطعٍ حتّى يُرى...

رغد قالت لي بالأمس أنّي تغيّرت، منذ أن بدأتُ أصلّي صلاةَ الجماعة.. أنّي صرتُ أقربَ منها ومن النساء الباقيات.. قالت لي أنّها كانت تراني فظّةً، أو لا تدري ما هي تلك الصفةُ التي كانت تلائمني بالتحديد.. لعلّها كانت تراني متكبّرة، غير اجتماعيّة، أو غيرَ مؤهّلة للمهنةِ التي أؤدّيها...

قلتُ لها: "لا شيء يبقى على حاله.. كلُّ شيءٍ يتغيّر..".

قالت: "لكنّ الأشياء تسوءُ في العادة.. أنتِ تغيّرتِ للأفضل، وهذا أثرُ صلاةِ الفجر على الأغلب..".

- "ربّما...".
- "بل بالتأكيد!".

ابتسمتُ، وتذكّرتُ كلامَ أمجد.. تمنّيتُ لو أنّي أجرؤ على دعوتِها لصلاةِ الفجرِ علنًا، لو أنّي أملكُ التأثيرَ فيها حقًّا وجذبها معي إلى عالمِ الفجر كمغناطيس.. لو أنّي أستطيعُ أن أجعلها تغرفُ معي من هذه السعادةِ الحقيقيّةِ التي لم أتذوّق مثلها في حياتي!... حنان قالتها بالفم الملآن: "عرفتِ فالزمي.. إن كنتِ تعلمين أنّ الفجر هو من غيّر رهف وجعل منها إنسانةً أفضل، لِمَ لا تحذين حذوها وتفعلين مثلها؟..".

- "والأولاد؟ ماذا أفعلُ بهم؟..".
- "إن كانوا مستيقظين فأحضريهم معكِ، وإن ناموا فوكّلي أمركِ لله..".
- "أنا لا أستطيع الاستيقاظ باكرًا فالأولادُ لا يدعونني أنام طوالَ الليل..".
- "إذا نويتِ فستقدرين، صدّقيني يا ابنتي".
- "سأحاول".

هكذا، وبكلِّ بساطة، استيقظت رغد وأيقظت معها زهرة كما وعدتها؛ فزهرة كانت قد سمعت حديثنا بالأمس وقالت أنّها أيضًا تتمنّى أن تصلّي الفجرَ لكنّها تجدُ صعوبةً في الاستيقاظ.. حدثَ هذا كلّه وأنا ما زلتُ لا أصدّقُ أنّه قد حدث.. لكنّي صدّقتهُ في النهاية؛ لأنّهُ صارَ أمرًا واقعًا، وصرنا أربع نساءٍ مرّةً واحدة، فيا لروعةِ

الوصال! بعد انتهاء الصلاة، احتضنت كلٌّ منّا الأخرى، ودار بيننا حديثٌ خفيفٌ وقصيرٌ لكنّهُ ليس كأيّ حديثٍ سابق.. كانت أرواحُنا هي التي تتكلّمُ والأجسادُ تصغي إليها بكلِّ قناعةٍ واستسلام.. تفرّقنا بعد ذلك، وعادت كلٌّ منّا إلى خيمتها.. عدنا ظاهريًّا، إنّما في الباطن كنّا متلاصقاتٍ تمامًا، كأعضاءِ الجسدِ الواحد، وهكذا ظللنا، كلُّ واحدةٍ منّا تخفّفُ عن الأخرى آلامها ومصابَها وتضمُّها بالجسدِ والروح...

صارت أرواحنا تتقارب أكثر يومًا بعد يوم، فجرًا بعد فجر، وغدت صلتنا أكثر عمقًا وشفافية.. بتنا كالأخوات، أو أكثرَ بقليل، و لم يعد من حدودٍ تفصلُ بيننا... لكنّ حنان، وعلى الرغمِ من تلاشي فارق السنّ الذي بيننا بفعل تلاقي الأرواحِ وائتلافِها، كانت لا تزال تصرُّ على بسطِ أمومتها أمامنا وحولنا كالمعتاد، لتضمّنا بلطفِها ومحبّتها وبروحِها الممتلئةِ أمومةً لاهائيّة!... وبذلك صرنا أخواتٍ غير يتيمات، لا ينقصُنا أيّ شيء، وإن احتجنا لشيء وجدناه في الفجرِ حاضرًا متجلّيًا بكاملِ رونقهِ وبهائه..

ولّما غدا الفجرُ زماننا المشرق الذي يفصلُ بيننا وبين الواقع/المأساة، صرنا لا نطيقُ البعدَ عنه، ورحنا نحوطهُ بحضورِنا المزهرِ المزدان حين نلتقي بعد الصلاةِ للذكر والدعاء وتلاوةِ القرآن، ونبقى هكذا إلى أن يطلعَ ضوءُ النهار فنصلّي معًا صلاةَ الضحى، ثمّ تتّجهُ كلٌّ منّا نحو خيمتها لتريحَ الجسد بعد أن استراحت روحُها وتشبّعت طيبًا ونورًا..

وبقينا على هذه الحال أيّامًا متتالية، في كلِّ فجرٍ تنضمُّ إلينا روحٌ جديدة، تنضحُ بالطيب، والنورُ تلألأ رقراقًا كالماء العذب، يدفقُ منّا

دفقةً تلو الأخرى... الرجالُ أيضًا زادوا بالعدد؛ لكنّهم زادوا بالمعنى أكثر، وصارت لهم ملامحُ سعد، وكأنّهُ انعكسَ عليهم كلّهم.. بنظراته الرزينةِ والخجولة، وبصوته العذبِ المنساب.. كلّهم صاروا سعدًا بطريقةٍ أو بأخرى... ربّما لأنّهُ صارَ يجتمعُ بهم أكثر، بالصبيةِ والشباب، بالرجال وبالكهول.. كان سعدٌ يجلسُ بين الجميع، والنساءُ ملتمّات، في الخلف أو حول الحلقة، قرب الخيام مستمعاتٍ، مجتمعاتٍ أو متفرّقات.. المهمّ أن ينال سمعهنّ شيئًا من مواعظ سعدٍ وحكمته.. شيئًا من روعةِ عباراتِهِ الحلوةِ القصيرةِ المقتضبة، التي تقولُ الكثير وتفعلُ أيضًا!.. كلُّ حرفٍ كان ينطقُ به سعدٌ كان يتجلّى أمامنا مجسّدا.. كلّ كلماته كانت أفعالاً على أرضِ الواقع، لا منقطعةً ولا منفصلة، تخرجُ من ضميرٍ حيّ؛ لتحيي ضمائرَ الجميع!...

هكذا، وبكلِّ بساطة، صار المخيّمُ كلّهُ يذكرُ سعدًا، ويحتذي به.. فقلَّ أن تجد صبيًّا/صبيّة، مراهقًا/مراهقةً أو حتّى رضيعًا/رضيعة، لا يحبُّ سعدًا أو لا يهوى القربَ منه واللعبَ معه.. وقلّما تجدُ شابًّا أو شابّةً، أو كهلاً أو مسنّةً لا يدعو لسعدٍ أو لا يذكرُهُ في جلساتهِ ذكرًا يقطرُ بالمودّةِ والرحمة..

ولا أدري ما سببُ اقتران اسم سعدٍ بي، وكأنّ الناس صارت حين تذكرُ اسمه تذكرني، أو هكذا تهيّأ لي!.. كان هذا الأمرُ يثيرُ حرجي، ويشعرُني ببالغِ الارتباك.. ربّما لأنّهُ كانَ السببَ في انضمامي إلى عالمِ السكينةِ والراحة، ربّما لكوني كنتُ سببًا من الأسبابِ التي أثّرت بالنساءِ كما قال أمجد.. ولعلَّ السبب الأقوى، حسبما قدّرت، وحسبما أخبرتني النساءُ المتطفّلات – اللواتي لم أعد أراهنّ كذلك– هو كونه أوصلني إلى المستشفى مع حنان، وعاد ممتقعَ اللونِ حزينًا

قلقًا.. من يومِها حسبَ الجميعُ أنّ سعدًا يرتبطُ بـــــي بشـــكلٍ أو بآخر، قلبيًّا على الأقلّ، لكنّ أحدًا منّا لا يعبّرُ عن ذلكَ ولا يتكلّمُ... هكذا ظنَّ الجميع، أو لعلّهم تمنّوا ذلك.. ولعلّي أنا فقط من كنـــتُ أرى هذا! ربّما...

ظَفَر

أيّامٌ عديدةٌ مرّت، و لم يأتِ أمجد بالإجابة.. قال لي أنّه أعطى الورقةَ لسعد؛ لكنّ سعدًا لم يعدها إليه.. وعدهُ أن يجيبَ على أسئلته – كما افترض – حالما يجدُ الوقتَ الكافي لذلك.. لا ألومُه؛ فوقتُهُ ممتلئ وأعمالُهُ لا تنتهي.. سعدٌ دائمُ العمل، لا يهدأُ لهُ بالٌ أبدًا حتّى ينهي كلَّ ما عليهِ من أحمالٍ وأثقالٍ لم يكن ليحمّله إيّاها أحد، تطوّعَ لها تطوّعًا، جاءَ للتعبِ برجليه.. سعدٌ من مواليد بيروت، العام 1983.. هكذا قالَ لي أمجد.. يكبرُني إذًا بسبعِ سنواتٍ ليس إلاّ، وبأحلامٍ لا حصرَ لها ولا نهاية.. أحلامُ سعدٍ ليست من النوعِ الذي يدورُ ثُمّ يقع وينتهي الأمر، إنّها ذاتُ قانونٍ نسبيٍّ خاصّ، يخصّهُ ويخصُّ عالَمَهُ الرحبَ الفسيح، المشعَّ بالنور والمسوّرَ بالسلام.. سعدٌ لا يحبُّ أن يبقى في عالمِهِ وحيدًا، بلا رفقةٍ أو أخوّة، تواسيهِ ويواسيها.. إنّهُ يملكُ تلك القدرةَ النادرةَ على تحمّل كلّ الشخصيّات، وتقبّل كامل الأرواح.. وكأنّهُ خُلقَ ليعطي، خُلقَ ليهبَ السلامَ والسكينة.. وكأنّ لروحهِ مغناطيسًا من نوعٍ خاصّ، يجذبُ المعادنَ كلّها، والناسُ معادن!... قال لي أمجد أنّ سعدًا تكلّم عنّي هذا الصباح.. لم أشأ أن أسأله كي لا يضبطَ اهتمامي متلبّسًا، مع أنّي كدتُ أجنُّ لأعرفَ ما الذي قالهُ لهُ سعدٌ عنّي.. لا أدري ما السبب الذي دعاهُ ليذكرني، هو لا يسألُ إلاّ عن الأطفالِ والعائلاتِ

بشكلٍ عام، وإن حدثَ أن اهتمَّ بأمرِ إحدى النساء، يكون هذا بلا شكّ لأمرٍ يتعلّقُ بتخليص معاملةٍ أو إتمام خدمةٍ يعتبرها واجبًا عليه، حتّى ولو كانت هذه الخدمة ستكلّفه الكثير، من وقته ونومه ومالِهِ وصحّته... إنّما أن يتحدّثَ عنّي سعدٌ حديثًا شخصيًّا فهذا أمرٌ لا يحصلُ في العادة، وإن حصل فلا بدَّ أن يكونَ الأمرُ متعلّقًا بالعملِ ليس إلاّ!...

يعرفُني أمجد جيّدًا، هو يستطيعُ أن يقرأ داخلي مهما حاولتُ أن أغلّفهُ بألف تمويهٍ وتمويه.. يعرفُ أمجد أنّ سعدًا لم يعد بالنسبة إليّ مجرّد غريبٍ عابرٍ، ولا ذلك الشخصَ اللطيفَ الخيِّرَ الذي يحبُّهُ الجميع ويحترمونه لأنّهُ صاحبُ اليد البيضاء التي ترفرف حول الكلِّ كحمامة سلام... هو يعرفُ أنّ ما يربطُني بسعدٍ شيءٌ أكبر وأعمق، لا يملكُ أحدٌ أن يفسّره، إلاّ إن كان يملكُ أحد الشرطين، أو كلاهما معًا: أن يكونَ قد مرَّ برابطةٍ روحيّةٍ عميقةٍ وراقيةٍ كهذه الرابطةِ بالذات، أو أن يكونَ شخصًا مثلي يملكُ التركيبة المعقّدةَ ذاتها، وذلك العمقَ الفريد الذي خبرَ الغياب إلى أن صارَ له أبعاد أخرى غيرُ مرئيّة، لا يراها إلاّ نظيرُه... وحدهُ أمجد يملكُ هذين الشرطين، ووحدهُ أيضًا القادرُ على تفعيلِهما متى شاء، أو على الأقلّ كلّما سنحت لهُ الفرصة!...

- "فيمَ أنتِ سارحة؟".
- "ممم.. ليس في شيءٍ محدّد...".
- "ربّما في شخصٍ ما...".
- "ماذا تقصد؟".
- "لا أقصدُ شيئًا محدّدًا...".

- "يا لكَ من شقيٍّ صغير.. ما الذي يحدثُ معك الليلة؟ أشمُّ رائحةَ خططٍ في الأجواء.. علامَ تنوي؟..".
- "هههههه أنوي على الخير.. قصدي شريف".
- "هههههههههههه حسنًا أنا موافقة".
- "هل من الممكن أن تفكّري بالزواج ثانيةً؟".
- "لماذا خطر ببالك هذا السؤال الآن؟".
- "فقط أجيبي..".
- "ممم.. لا أدري، اللَّهُ أعلم.. على الأرجح لا".
- "لماذا؟.. أما زالت نظرتكِ للحياةِ سوداويّة؟ حسبتُ أنّكِ تغيّرتِ؟..".
- "لستَ مخطئًا، لقد تغيّرتُ بالفعل، صرتُ أكثرَ تفاؤلاً وتقبّلاً للمحنِ والأحزان.. لكنّ هذا لا يعني أنّني صرتُ قابلة لأن أعيد تجربةَ شيءٍ جرّبتُهُ وأخذتُ نصيبي منه واكتفيت..".
- "هل اكتفيتِ حقًّا؟..".
- "ما فائدةُ هذه الأسئلة الآن؟".
- "سأخبركِ.. لكن أجيبيني قبلَ ذلك.. فقط أجيبي عن أسئلتي وستصلين إلى إجاباتكِ كلّها بعد ذلكَ مباشرةً، أعدكِ بذلك..".
- "لقد شوّقتني لأعرف..".
- "إذًا أجيبي..".
- "وما السؤال؟".

- "هل حقًّا اكتفيتِ من الزواج؟ هل تشعرين حقًّا أنّكِ قد أخذتِ الفرصةَ الكاملة في حياتكِ من الزواج وانتهى الأمر؟".
- "أظنُّ ذلك.. على الأقلّ جرّبتهُ وعرفتُ ماذا يعني أن أكون امرأةً متزوّجة.. ماذا يعني أن أكونَ حاملاً.. وماذا يعني أن ينتهي الأمرُ كلّهُ عاجلاً أم آجلاً...".
- "لكنّهُ انتهى بسرعةٍ جدًّا.. لا أظنّكِ قد أخذتِ فرصتكِ التي تستحقّين..".
- "الحمدُ لله، يكفي أنّني صرتُ راضية بقدرِ الله.. يكفي أنّ الله رزقني القناعة والرضا وهذا أفضلُ شيءٍ حصلَ لي...".
- "الحمدُ لله...".
- "حسنًا... ها قد أجبتُ على سؤالك.. هيّا أخبرني الآن ماذا يدورُ في رأسكَ الشرّير أيّها العبقريُّ الصغير؟..".
- "ليس بعد.. قليلٌ من الأسئلةِ الإضافيّة، وسنصلُ إلى الإجابةِ معًا...".
- "ممم... مستعدّة".
- "هل تؤمنين بالحبِّ عن بعد؟".
- "ممم... أنا..".

يقاطعُني: "لحظة، انتظري، لا أقصدُ فقط بعد المسافة، فربّما تكونُ المسافةُ شبهُ منعدمة، إنّما ما أقصدُهُ بالبعد انعدام التواصل اللغوي أو قلّته، وفقدان عاملَي التخاطبِ والتناظر، الداعيين الأكبر للمحبّة..".

- "ممم. ربّما.. لا أدري... أظنُّ أنّ هناك ما يُدعى بالتخاطرِ الروحيّ..".
- "بالضبط.. هل جرّبتِه؟".
- "لستُ متأكّدة..".
- "مع أحمد؟".
- "لا أظنّ.. لأنّ أحمد لم يمنحني الفرصةَ لذلك.. لقد كان رحمهُ الله يقتنصُ الأحداث والأسباب، ويختلقُ الفرص اختلاقًا.. لم يكن ليتركَ لي تلكَ المسافةَ الخاليةَ من التواصلِ والإشارات المباشرةِ الممتلئة بالسببيّة والمادّة.. أحمد ما كان يهوى التجرّد، بل كان يهوى الأشياء الملموسة عن قرب.. حتّى أحلامه، كان يصيغُها بشكلِ ماديّاتٍ وصورٍ مرسومةٍ متجسّدة؛ ليحيلَها حقائقَ على أرض الواقع.. لم يكن ليتركَ كلامهُ ليضيع في الصدى والضباب، لم يكن ليخاطرَ ويتخاطر!...".
- "حسبتُ ذلكَ أيضًا..".
- "حسنًا.. لندخل في صلبِ الموضوع الآن... ما الهدفُ من كلّ هذه الأسئلة..".
- "سأخبركِ.. لكن أرجو أن تفكّري مليًّا قبل أن تقولي أيّ كلمة.. ولا تتسرّعي...".
- "حسنًا..".
- "عديني بذلك...".
- "أعدُك...".
- "أخبرتكِ قبل قليل أنّ سعدًا تحدّث عنكِ اليوم.. هو يعلمُ

تمامًا أنّني صديقُكِ الأقرب، وأنّ ما يربطُنا هو رباطٌ أشدُّ من رباط الأخوّة أو البنوّة..".

- "وكيف علمَ ذلك؟".
- "أعتقدُ أنّ الكلّ يعلم.. فنحن الاثنان متشابهان من ناحيةِ الانطوائية، والغموض، وعدم تقبّل أيٍّ كان.. وأن يركنَ أحدنا إلى الآخر، برغمِ فارق السنّ الذي بيننا، هذا يعني أنّ أرواحنا تفاهمت وأنّنا بتنا ننتمي إلى عالمٍ واحد...".
- "لكنّنا ما عدنا كذلك.. ألم نتغيّر؟..".
- "ربّما.. لكن مازلنا في العمق نهوى الوحدة، نهوى الركونَ إلى خلوتِنا بعد نهارٍ طويلٍ من القربِ والانسلاخِ من الغياب.. ألستِ تشعرين الآن حين تنفردين بنفسكِ، أنّ العزلةَ صار لها معنًى آخر، أجملَ وأثمن؟ أم أنّكِ ما عدتِ تطيقينها؟...".
- "صدقت.. ما زالت العزلةُ تستهويني.. مهما حاولتُ أن أبدي عكس ذلك، ومهما قدرتُ بالفعل أن أتخطّاها وأخرجَ عن حدودِها، بكاملِ رضايَ والفرح... ما زال شيءٌ في داخلي يهوى الخلوةَ ويقدّسُها؛ ففيها أجدُ نفسي، أجدُ قلبي الذي كنتُ قد أضعتهُ في دهاليزِ الحياةِ وجدرانها المتشابكة المتداخلة التي انهارت كلّها عليَّ دفعةً واحدة، و لم تمهلني لآخذ نفسًا.. لأتمالكَ نفسي وأنقذَ الطرفَ الأخير، الخيط الذي تبقّى منها، الحلم الأخير... في العزلةِ فقط وجدتُ ذلك الخيط، في الكتابةِ والتأمّلِ من

جوفِ الخلوة... لكنّني ما وجدتُهُ إلاّ تائهًا أبدًا، سابحًا في فضاءات التخيّلِ والغياب... أنا ما لمستُ الحلمَ يومًا ولا تذوّقتُ لذّته ولا ظفرتُ بنعيمه، إلاّ يومَ ملكتُ قلبي ورأيتُ روحي تكتسي منهُ نورًا جديدًا كلّ يومٍ، كلّ فجر؛ لأولَدَ به طفلةً تزهرُ الأحلامَ من جديد!...

حدسٌ متكامل

حسنًا أيّها العبقريُّ الصغير.. ها قد مضى جذعُ الليلِ وأنتَ تبتدعُ الأسئلةَ وتفرّعُ منها أغصانًا وأوراقا.. إلى متى ستظلُّ تسألُ أسئلةً ضبابيّةً تلمسُ الغمامَ؛ لترتدَّ وتعودَ نحوكَ محمّلةً بالخفايا والأسرار؟!.. إلى متى ستظلُّ تخفي عنّي ما تخطّطُ له وما أنتَ بصددِ أن تجلّيه؟!... أتوقُ لمعرفةِ ما يدورُ في رأسك الصغير/الكبير هذا، الذي ما عاد يحيّرُني، بقدرِ ما صارَ يتعبُني ويدهشُني كلَّ يومٍ أكثرَ وأكثر...

معك أنتَ، أنا لا أفقد الدهشة.. فأنتَ ذو الحكمةِ المتجدّدةِ دومًا، بكافّةِ الأشكالِ والوسائلِ، حتّى ولو جاءت بشكلِ أسئلة!.. مخطئٌ من قال إنّ الحكمةَ تكونُ فقط في الصمت، أو في الإجابةِ الوضّاءةِ نفسِها فحسب؟.. فقد تكونُ الحكمةُ راتعةً في قلبِ السؤالِ الذي يُلقى علينا فجأةً ولبرهة؛ ليلقي علينا منهُ آلافًا من الأنوارِ والأسرارِ التي ما كنّا لنراها لولا أنّنا أطللنا عليها هنيهةً من نافذته... مخطئٌ من قالَ أنّ الحكمةَ منوطةٌ بالتقدّمِ في السنّ؛ فما السنُّ إلاّ أعدادٌ رمزيّةٌ لا قيمة ماديّةً لها ولا معنى.. وحدَها الحكمةُ هي التي تعطي للمرءِ القيمةَ المعنويّةَ القصوى، التي لا تَفنى ولا تترهّل!...".

- "أنعستِ أم تستطيعين البقاء قليلاً بعد؟".
- "بالطبعِ أستطيع، وهل تظنُّ أنّ بإمكاني أن أنام الآن قبل أن أسمع ما وعدتني به؟".

- "ستسمعين، لكن أجيبيني قبل ذلك عن سؤالين اثنين..".
- "ما هو السؤال الأوّل؟".
- "س: كيفَ يُعرَفُ الطيّبون؟".

أبتسمُ ابتسامةً من العمق، تغمرُني الفرحةُ الورديّة.. أقــولُ دون أن أفكّر:

- "ج: من عيونهم".
- "جميل.. السؤال الثاني: وماذا لو لم يكن بوسعنا التطلّع إلى عيونهم؟".
- "نراهم حينها بعينِ القلب..".
- "رائع.. سأكونُ الآن مباشرًا معكِ... بلا مقدّمات، وبغــير لفٍّ أو دوران.. أنا شبهُ متأكّد أنّكِ في قلبِ سعد.. ســعدٌ يحبّكِ".
- "ما هذا الكلامُ الذي تقولُه.. أنتَ تسيئ لي ولــه بقولــكَ هذا!" قلتُ هذا، وكان الارتباكُ باديًا عليَّ بشكلٍ فاضح..
- "يحبّكِ في الله.. وهل هذا الحبُّ جرم؟".
- "لا بالتأكيد.. لكن أنت تعرف وأنا أعــرف أنّ للحــبِّ حدودًا لا يجب أن يتخطّاها.. ومن يتجاوز الحدود يســيئ لنفسه قبلَ غيره.. نحنُ بالفطرةِ السليمة نفهم الخيرَ من الشرّ، دون حاجةٍ لمن يبيّنهما لنا أو يفرّقهما.. إنّنا نعجزُ عن إعلان ما تكنّه صدورنا من الحبّ أمام الناس أو أمام من نحبُّ ما لم يكن لهُ رابطٌ سببيٌّ وقويٌّ يربطه بنا أمام أنفسنا وأمام الناس، وقبل هذا كلّه أمام الله.. أخبرني، لماذا لم تعلن لغالية ببساطة عن حبّك فيما كنتما في سنّ لا تحاسبان فيها ولا تُعاتبــان؟

أجبني.. أم أجيبكَ أنا؟ لأنّك ببساطة تستحي! لأنّ الحياء شعورٌ فطريٌّ يولدُ فينا حين نفعلُ الشيء الخطأ، أو حتّى الشيء الصحيح بطريقةٍ خاطئة؛ فالحياء من الفطرة الجميلة والرائعة التي فُطرنا عليها، والتي ترينا بوضوح الأمر الصحيح من الأمر الخاطئ.. وحدهم الأطفال الذين ما زالوا يملكون طفولتهم، ويحافظون على هذه الفطرة، هم المصيبون والمبصرون دائمًا! مع الأسف، الوقتُ يسرقُ منّا هذه البصيرةِ الفطريّة، ويلوّثها.. نحن مع الوقت، وبكلّ أسف، نفقدُ الفطرةَ والصواب، كلّما ابتعدنا أكثر عن طفولتنا..".

- "أفهمُ ما تعنينه.. وهذا ما عنيتُهُ بأسئلتي.. سعدٌ وأنتِ لم تقدّما أيّ تنازل، وكلاكما لم تتجاوزا أيّ حدٍّ على الإطلاق؛ فلِمَ كلُّ هذا الخوف يا ترى؟ أم أنّ خوفكِ لهُ منطلَقٌ آخر؟ إمّا أنّكِ لا تستلطفينهُ كشريكٍ للحياة، وإما أنّكِ لا تستلطفين فكرةَ أن يكونَ لكِ شريكٌ في حياتكِ أصلاً!..".
- "وأنت ما الذي أوحى لكَ بهذا الهراء؟..".
- "عن أيِّ هُراءٍ تتكلّمين بالتحديد؟..".
- "عن تلك المشاعر الوهميّةِ التي تحدّثتَ عنها.. والتي لا مجالَ بالتأكيد لأن تكون حقيقة..".
- "هذا ليس هُراءً.. فأنا رجل، وأفهمُ جيّدًا كيف يتصرّفُ الرجلُ حين يحبّ..".
- "كيف يحبّني وهو البعيدُ عنّي وأنا البعيدةُ عنه كلّ هذا البعد؟ نحنُ لم نتحادث مرّة!".

- "أنتِ قلتِ.. يُعرَف الطيّبون من عيونهم، ربّما شعرَ بطيبتِك عن بعد فأحبّكِ".
- "لم ينظر إليّ مرّة!".
- "إذًا رآكِ بعين قلبه، أليس هذا قولكِ؟ أليس هذا ما قلتهِ قبل قليل أم أنّني مخطئ؟".
- "هههههه يا لكَ من ذكيّ! وأنت متى ستحبُّ وتتزوّجُ أيّها الرجلُ/الفيلسوفُ الصغير؟..".
- "قريبًا جدًّا، أعدكِ بذلك..."، يبتسمُ ابتسامةً واثقة مِلؤُها الذكاء..
- "حسنًا.. لكن.. هل من أدلّةٍ واقعيّةٍ ملموسة؟".
- "نعم، بالطبع.. ما كنتُ لأخاطرَ وأتكلّم معكِ بموضوعٍ حرجٍ كهذا لولا أنّ الأدلّةَ الملموسةَ قد وقعت بيدي، وبخطِّ اليد أيضًا.. لكن، الأهمّ من هذا كلّه، وقبلَ أن أطلعكِ على الأدلّة، أودُّ منكِ اعترافًا كاملاً وتصديقًا بالجانب الروحي قبلَ العمليّ.. فهلاّ تسلّمين معي بأنّ سعدًا يحبّكِ ويتمنّاكِ زوجةً لهُ قبلَ أن تسمعي ذلك بالصوتِ الخالص؟ هل تسمعينها بصوتِ قلبك؟ أم أنّكِ لاهيةٌ عن ذلك ولا تشعرين نحوهُ بأيِّ شيءٍ على الإطلاق؟".
- "لا أستطيع الإجابةَ عن هذا السؤال قبلَ رؤيةِ الدليل الماديّ.. قد أثقُ بالضباب وأهوى السيرَ فيه؛ لكنّي لم أفكّر مرّةً أن أُخرجَ بنفسي عمدًا ما يختبئُ خلفَ سحابه...".
- "إذًا.. أنتِ حدسيّةٌ ماديّة؟ وكيف تقولين أنّكِ لا تفضّلين السببيّة؟".

- "بل أنا حدسيّةٌ ماديّةٌ إيمانيّةٌ.. حدسيّةٌ متكاملة.. فلا أفضّلُ السببيّةَ إن كانت معلّقةً وحدها هكذا، مجرّدةً من العمقِ الأوسعِ والبعيد.. أمّا إن جاءت هي والخوارق الإيمانيّة في الآن عينه؛ فإنّها ستكونُ عندي بالتأكيد أفضل الحلول والخيارات..".
- "تقصدين أنّكِ إن شعرتِ ورأيتِ ستصدّقين وتؤمنين أكثر؟".
- "نوعًا ما...".
- "أي أنّكِ تشعرين؟..".
- "أي أنّني أحتاجُ أن أرى..".
- "هههه لا تريدين قولها.. حسنًا، لن أضغط عليكِ أكثر... اسمعي.. صباحًا قال لي سعد أنّه يودُّ أن أوصلَ لكِ رسالةً خاصّة، لا علاقةَ لها بالعمل؛ فاستغربتُ طلبَه الذي ما سبق له أن كان! وحين أعطاني ورقةَ الأسئلة التي تخصّكِ، وعليها الإجابات، فهمتُ كلّ شيء... هل فهمتِ؟".
- "كيف عرفَ أنّها أسئلتي؟!!!..".
- "حين سألتُه قال لي أنّه يعرفُ خطّكِ جيّدًا؛ فقد قرأَ مرّةً ورقةً بيد طفلٍ صغير، كنتِ قد كتبتِ لهُ فيها جملةً مبهرة على حدِّ قوله؛ فأعجبتهُ، وبقي سعدٌ محتفظًا بها، بعد أن أهداها لهُ الصغير الذي أخبرهُ أنّكِ أنتِ من كتبتِها.. وأنّهُ يفهمُ أيضًا طريقةَ تفكيرك، ويشعرُ أنّكِ أنتِ صاحبةُ هذه التساؤلات الرائعة والملفتة.. قال سعد أنّهُ معجبٌ بطريقةِ

كتابتك، وبأسئلتكِ الموجزة والمختصرة التي تنمُّ عن عمقٍ بالغٍ وروحٍ شفّافةٍ مستنيرة..".

- "يا إلهي!!!.. أيّ طفلٍ بالتحديد؟".
- "لا أدري، لم أسأله..".
- "ألم يقل لكَ ما هي الجملة؟".
- "أعطاني الورقة، وطلبَ منّي أن أرجعها إليه لو أذنتِ لهُ بذلك.. وأعطاني أيضًا ورقةَ أسئلتكِ ومعها الإجابات..".
- "ولماذا لم تخبرني من البداية؟ أين هي؟".
- "في الخيمة.. كنتُ أتروّى لنصلَ إلى نقطةٍ تلتقي معها السببيّةُ بالإيمان والخوارق المعجزة..". يبتسم..
- "وهل وصلنا؟".
- "أظنُّ ذلك.. ألا تظنّين؟".
- "لا أخفيكَ سرًّا.. هذا الموضوع أثارَ فيَّ مشاعرَ غريبة، لا أقدرُ أن أصفها لكَ الآن.. أرجوك أحضر الورقتين الآن إن كنتَ تقدر..".
- "بالتأكيد.. في الحال...".

ذهبَ أمجد ليحضرَ الأسباب؛ لأضمَّ المادّةَ في كفّي إلى الإيمانِ الذي يسكنُ صدري، ويشكّلا أجملَ باقة!.. في غيابه، شعرتُ بقلبي يكادُ يقفزُ من مكانٍ شاهقٍ ولا يدري أيحطُّ أم يطير!.. لا أدري ما هذه المشاعرُ التي انتابتني!.. أهي مشاعرُ خوفٍ أم مشاعرُ ارتياحٍ وطمأنينة؟ أهي مشاعرُ فرحٍ أم مشاعرُ ارتباكٍ وتوتّر؟ لم أكن أدري بالتحديد بماذا كنتُ أشعر.. الشيءُ الوحيد الذي كنتُ واثقةً منه، والشعور الأوضحُ الذي كنتُ منهُ متيقّنة، هو أنّي فقدتُ صبري

تمامًا.. لم أعد أطيقُ الانتظار أكثر للاطلاع على ما جاء في الـــورق؛ ليسكنَ في قلبِ الورق، قبلَ قلبـــي!.. كان حدســـي ينبـــئني بـــأنّ الورقتين الآتيتين ستحملان في طيّاتهما صفحاتٍ جديدةٍ مزهرة، لحياةٍ جديدةٍ مقبلة، لم أكن لأتوقّعها ولا حتّى في أحلامي...

بشارةُ سعد

وجئتَ يا أمجد، حاملاً بيدكَ السعدَ كلّه، والبشـــارة.. جئـــتَ وبيدكَ القصيدة.. تلكَ القصيدة التائهة، التي كنتُ أبحثُ عنها منـــذُ زمن، منذُ ولادة!... التي لم أكتبها أنا هذه المرّة، بل كتبَها سعدٌ بلونِ السعدِ وبرائحةِ الياسمين.. جئتَ يا أمجد، وأحضـــرتَ معـــكَ كـــلّ التكاملِ والتآلفِ والوضوح؛ فغدا الحلمُ واقعًا، وتوقّفت الـــدنيا عـــن الدورانِ في عيني وعن السقوط، وصار كلُّ شيءٍ طائرًا بلا أثقـــال.. بلا أحمالٍ أو منغّصات، وصرتُ أنا نفسي طيرًا آخر!...

~ **(رأيتُ الصبحَ الذي.. في سمائي يومًا،.. أزهرَ الأطفـــالَ ثمّ أشرق!...)** ~

كانت تلك هي العبارة التي خطّتها يدي، إلى جانبِ رسمـــةٍ طفوليّةٍ مبسّطة لزهرٍ وأطفالٍ وسماء، وشمسٍ حلوةٍ ناعمة، تدفئُ ولا تُحرق!.. تذكّرتُها.. يااه.. إنّها قديمةٌ جدًّا!! منذُ الشـــهر الأوّل لقدوم سعدٍ إلى هنا!.. أمنذُ ذلك الحين كان يحـــتفظ بهـــا؟!.. لا أصدّقُ ما أراه! يغلبُ الإيمانُ السبب، أصدّقُ حسّي أكثر!!!... لم يسلني أمجد إن كان بإمكانه أن يطّلع على العبارة، هو لم يتطفّل في غيابـــي على الورقتين و لم يقرأ ما جاء فيهما.. اكتفى فقط بنقـــلِ الرسالةِ الحلوةِ المزهرةِ إليّ، التي أدمعت مقلتيَّ وسقت منهما نخلـــةَ قلبـــي!... ودّعتُ أمجد، ثمّ رحتُ لأختلي بالأوراق في خـــيمتي،

أقرأ الإجابات التي كنتُ أنتظرُها على أحرٍّ من الجمر...

س: "ما حدودك؟".

ج: دمعتان، ودعوة..

س: "إذا كان كلُّ شيءٍ ماضٍ في المستقبل، فلِمَ كلّ هذا العناء في الحاضر؟".

ج: لأنّ الله شاءَ ذلك، ومتى يشاءُ الله، فكلُّ شيءٍ سيكونُ أجمل، وسننالُ الجنّتين، جنّةَ الدنيا وجنّةَ الآخرة.. يقولُ تعالى: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً...﴾** [النحل: 97].

هذه الحياةُ الطيّبة التي وعد اللَّهُ بها عبده المؤمن، الذي يعملُ الصالحات، هي بلا شكّ جنّةُ الدنيا.. فقط إن رضينا بمشيئةِ الله وقدره، فسنصنعُ لأنفسنا أجملَ الأقدار، هنا في الدنيا، وغدًا في الآخرة، وهي الحياة الحقيقيّة!

وتأمّلي قولَ الله الحكيم الرحيم سبحانه: **﴿... حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [يونس: 24-25].

إذًا، هذه الدنيا ليست بشيء، فإنّها، ومهما بلغت من الجمال والزخرف والزينة تنتهي بطرفةِ عين متى شاء الله لها ذلك! من هنا لا ينبغي للمؤمن أن يعلّق قلبه بها أبدًا، أو أن يأسى فيها طويلاً على ما مضى وأدبر، ولا أن يفرحَ طويلاً بما لاحَ وأقبل.. قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: (**عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ وليسَ**

ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ إنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانَتْ خَيرًا لهُ) [رواه مسلم].

والآن تفكّري معي مجدّدًا في الآية 25 من سورة يونس، وتدبّري قوله تعالى مباشرةً بعد ذكره لفناء الدنيا وسرعة زوالها: **﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**.

إنّهُ حقًّا لأَمرٌ رائعٌ ومطْمئِنٌ أنَ يبشّرنا اللَّهُ تعالى بأنّهُ سيأتي بعد كلّ هذا الخراب والدمار والوهم والفناء عالمٌ آخر لم نرَ مثله قطّ، عالم الكمال والجمال والسلام الدائم الحقيقيّ، الذي لا يفنى ولا يموت...

هذا كلّهُ لا يكون إلاّ لمن شاء اللَّهُ أن يهديه؛ لأنّهُ طلبَ الهداية، لأنّهُ سأل الله أن يشرح صدره لذلك النورِ ولتلكَ الهداية، أيّ باختصار، لأنّهُ افتقر إلى الله، وأفردهُ وحدهُ بالعبوديّة مستغنيًا عن كلّ من/ما سواه!.. وهذا كلُّه لا يحدثُ إلاّ بمشيئةِ الله وبرحمةٍ منهُ وحده.. **﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** [التكوير: 29].

ولكِ أن تتدبّري قوله عزَّ وجلّ: **﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾** [الفجر: 24].. أيّ يا ليتني قدّمتُ في الدنيا لهذه الحياة الآخرة، الحقيقيّة والدائمة.. وهكذا يندم المفرّطون المقصّرون في حقّ أنفسهم يوم القيامة، الذين لم يقدّموا الأعمال الصالحة التي تكسبهم النعيم الدائم المقيم وتضمنُ لهم رضوانَ الله تعالى. قال تعالى: **﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** [العنكبوت: 64].

حيوان: جمع حياة، أيّ الحياة الحقيقيّة الدائمة التي لا موتَ فيها.

هذا واللَّهُ تعالى أعلم.. وأختم بقول لبعض السلف: "مساكين أهل الدنيا؛ خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما

أطيب ما فيها، قال: ذكر الله. جعلنا اللَّهُ وإيّاكِ من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

هذا ما حوتهُ الورقة، على وجهها الأوّل فقط، وهكذا جاءت الإجابة.. كانت طويلةً نوعًا ما ومتفرّعة، لكنّها تلخّصُ كلّ شيء، وتوضحُ كلّ شيء.. كانت الكلماتُ مريحةً ومطمْئِنة، أشعرتني بشيءٍ من السكينةِ والسلام، وبشيءٍ من الأنس، زادني يقينًا وتمسّكًا بحبلِ اللهِ والدعاء، وعرفتُ أنّي على الطريقِ الصحيح...

على الجهة الخلفيّة للورقة، وفي نهاية العبارة المكتوبة بالخطِّ العريض، والمحاطةِ بالخربشاتِ من كلِّ حدبٍ وصوب: **"كلٌّ منّا حالةُ موتٍ مؤقّتة، ميتةٌ صغرى متواصلة، تطولُ وتقصرُ مع الزمن، بحسب الظروف والأحداث.. ونحنُ فقط، من يحدّد انقطاعَها أو اتّصالَها!..."**، كتبَ سعدٌ هذه الكلمات: إذا شاء اللَّهُ لنا ذلك، وإن وُفِّقنا. أُعجبتُ بالإضافة؛ لأنّها جعلت قولي كاملاً بعدَ أن أضفت عليهِ لمسةَ البعدِ الأخير، الأعمقِ والأهمّ على الإطلاق!...

أحتضنُ الورقتين، ثمّ أمسكُ قلمي لتكتبَ الكلماتُ نفسها قبل أن أنام..

وأحلمُ بالجنة، فأستريح.. وأنسى الدنيا بكل ما فيها من متناقضات، من جمال وقبح، من خير وشر، من متعة وأذى... بكلِّ ما فيها من منغّصات تهدم قمّة السعادة وتسقطُها عن خطِّ الكمال... وأقولُ: لا راحةَ إلاّ في الجنة، ولا سعادةَ إلاّ في دار الكمال، ولا وجودَ لحياةٍ حقيقيّة إلاّ بعد الموت..

في اليومِ التالي، أخرجُ من خيمتي ويُفاجأُ الجميع بغيابِ الوشاحِ المعتاد الذي ألِفَهُ كلّ يومٍ على كتفَيّ.. الوشاحُ صارَ على رأسي،

يعانق خصل الشعر الطويلة المتبعثرة، المتطايرةِ مع الـــريح.. يضـــمُّها بعطفٍ ومودّة، ليقيها عصفَ الرياح... تفرحُ حنان، تضمُّني وتقبّلني، وتحيكُ لي – من قلبها – معَ الأيّامِ وشاحًا تلـــوَ وشـــاح.. تزغـــردُ الفراشات، وتنثُرُ عليّ التهاني والقبل... يفرحُ أمجد، يهنئني في النـــهار أمامَ أعينِ الشمس.. يباركُ لي سعدٌ، معَ ابتسامةٍ مُقمِرة، ونظرةٍ غائبة، متخلّيةٍ عن حضورها، مع أنّها وبرغم هذا حاضرةٌ كلَّ الحضـــور!.. يمضي النهار، وأقرأُ على صفحاتِ الوجوهِ جميعها رسائلَ التبريكـــات والتهاني والرضا.. أعودُ إلى خيمتي مساءً؛ لأخـــطَّ لغـــدي قصـــيدةَ اليقين!...

صدى الرؤيا

كان أمجد لا يزالُ يحدّقُ إليّ وأنا أتفحّصُ الورقتين أمامهُ من جديد في الليلةِ التالية وأعيدُ قراءتهما عليه مرّاتٍ ومرّات، وأبتسم.. لم أستطع أن أخفي تلك الابتسامةَ الظاهرة التي قفزت على وجهي تلقائيًّا ما إن أعدتُ النظر في الورق..

- "تبدين مسرورة.."، يباغتُني أمجد، متبسّمًا.
- "آا..، نعم، بالطبع.. لقد أقنعتني الإجابات".
- "ممم.. هذا واضحٌ جدًّا وجليّ.. وماذا الآن؟".
- "ماذا؟".
- "هل ستسمحين لهُ بالاحتفاظ بالورقة؟".
- "لا أفهم، ماذا سيفعلُ بها..؟".
- "سيعرفُ بها الجواب..".
- "الجواب؟!!.. عن أيّ سؤال؟".
- "باختصار، وبغير مقدّمات، سعدٌ طلبَ يدكِ منّي..".
- "هاهاها.. هل تمزح؟".
- "بالطبع لا.. أنا أتكلّمُ بجدّيّة، أنتِ التي تتهرّبين من الإجابة بطريقتكِ البارعة في السخريةِ!".
- "لستُ أسخر؛ لكنّني حتّى الآن ما زلتُ مشدوهة! كيف استطاع أن يطلبَ منكَ طلبًا كهذا بمثلِ هذه

البساطة؟ أمرٌ غريب!".

- "وما الغرابةُ في ذلك؟.. هو لاحظ مقدار قربنا وتفاهمنا، وفي الوقت نفسه، لاحظ أنّني أستطيعُ فهمهُ حتّى قبل أن يقول شيئًا..".
- "حسنًا.. إن كان كلامكَ صحيحًا؛ فلماذا لم يفكّر بالمبادرة إلاّ بعدَ أن وصلتهُ الأسئلة؟".
- "وما أدراكِ؟ ربّما كان يفكّر، ومنذُ وقتٍ طويل.. أنسيتِ الورقةَ التي كان محتفظًا بها؟.. لعلّهُ كان ينتظرُ الفرصةَ لتسنح، وها هي الفرصةُ الأنسب قد جاءت إليه، أيردُّها خائبة؟..".
- "يا لكَ من محلّلٍ رهيب!.. هاتِ أتحفنا بالمزيد..".
- "أقول.. لو أنّكِ فقط تعطين نفسكِ فرصةً ثانية.. لا تتسرّعي بالردّ، خذي ما تشائين من الوقت ثمّ قولي لي بعدها إلى أيّ قرارٍ قد وصلتِ..".
- "لا أدري.. أنا...".

ويقاطعُني أمجد:

- "أنتِ تعلمين وأنا أعلم أنّ سعدًا ليس كغيره من الرجال.. ليس كغيرهِ من الناس بوجهٍ عام. أنتِ وأنا نعرفُ ونفهمُ جيّدًا هذا الأمر، وأنا على يقين بأنّكِ الآن من الداخلِ سعيدة وتكادين تحلّقين من الفرح..".
- "من قال هذا؟".
- "عيناكِ قالتا كلّ شيء... انظري إلى نفسكِ في المرآة، تعلمين ما أقصد...".

- "حسنًا تصبحُ على خيرٍ إذًا، أراكَ غدًا بإذنِ الله".
- "والورقة..؟".
- "ستبقى معي الآن.. أراكَ غدًا...".
- "في الصباح؟".
- "هاا؟.. على غير عادة!".
- "ما عادَ النهارُ يفزعُني...".
- "سعيدةٌ لأجلِك..".
- "وأنا سعيدٌ لأجلكما".
- "ماذا تقول؟.. لم يحدث شيءٌ بعد.. إيّاكَ أن تقحمني بقراراتٍ لم أتّخذها..".
- "هههه.. أمزح".
- "تصبحُ على خير..".
- "وأنتِ من أهلِ الخير".

ألجأُ إلى خيمتي، تنحدرُ من عيني دمعة، لا أدري مصدرها على وجهِ التحديد.. أهي آتيةٌ عن فرحةٍ أم عن حزن؟ أتذكّرُ أحمد، أتأمّلُ صورته بين يديّ.. ترى؟ هل بإمكاني أن أخون ذكراهُ بهذه السرعة؟ وأنا التي لم أفِ لهُ بأيّام العدّةِ حتّى! أنا التي تخطّيتُ الحدود، وتناسيتُ أيّام عدّتي لأنّها كانت ستطول على حدّ ظنّي، وتستمرّ إلى أن أضع حملي.. لم أكن لأعلمَ أنّ أيّام حملي ستكون هي الأخرى قصيرة، تمامًا ككلِّ شيءٍ يمرُّ في حياتي،.. تمامًا ككلّ شخص.. ولم أكن لأتوقّع ولو لمرّة، أنّني سأقابلُ اليوم سعدًا بمثلِ هذه السرعة القصوى؛ ليطلبَ يدي، بعد أن تلاشت أسبابُ العدّة، وانقضى زمنُها قبل أن تُقضى!..

أنا لم أخن ذكراكَ يا أحمد؛ لكنّي فضّلتُ أن أعبرَ مثلما عبرَ الباقون، إلى مكانٍ أنسى فيه ما لا يمكن أن يُنسى.. أنسى فيه أنّني لن أقدرَ يومًا على النسيان... فضّلتُ أن أعبرَ وبسرعة، أن أجتازَ الدربَ قبل أن تغادرَني الدروب كلّها..

حملتُ حقيبتي وجئتُ إلى سهلِ البقاع، حيثُ المخيّمُ أرض منفى... لأنّهم قالوا لي أنّهُ ثمّةَ أطفالٌ يرتعون هناك، يحملون الألم على كفٍّ وعلى كفّهم الأخرى حلمَ الطفولةِ البارد... ومع أنّي أعرفُ أنّ في بلدي ملايين من أحلام الطفولةِ الملتاعةِ والباردة، كلَّ يومٍ تسحق وتُقتل دون أدنى اعتراض، إلاّ أنّني فضّلتُ أن أغادره إلى مكانٍ أستطيعُ فيه أن أستعيد توازني، وأنسى الخلل، وأنسى كلّ شيءٍ بعد... أنسى أبي، وأمّي.. وأنساك.. أنسى غزّة، وأرضها التي لا تنفكّ عن التفكّكِ والترجرجِ تحتَ أقدامي ودمي، تحتَ جلدي وذاكرتي بدمٍ ساخن!... أرضي التي ما أرادوا لها يومًا أن تكون أرضًا للسلام، صارت، كلّما اغتالوا فيها طفلاً، تعبقُ رغمًا عنهم بشذا الطفولةِ والأحلام،.. وعلى الدنيا السلام!...

أبإمكاني يا أحمد، أنا التي فضّلتُ أن أتخلّى عن كلِّ ما يربطني بك؛ لأنّكَ الشيء الوحيد المتبقّي الذي كان يربطني بالحياة، ولأنّكَ حين ذهبتَ غادرت معك كلّ ثقتي بالحياة... أبإمكاني أن أنساك أنتَ وأعودَ دونكَ إلى الحياة؟ أبوسعي أن أكملَ الحياة؟ أن أعيش سعادةً مع رجلٍ آخر غيرك، لم يبذل أيَّ سببٍ مادّيٍّ طيلة هذه المدّة؛ ليجعلني أخاطرُ وأقبلَ.. أأصدّقُ حدسيَ المعنويَّ أم أصدّق ذكراك التي تنبضُ بالأسباب؟ أأكذّبُ المعنى المتصاعد، وأحفرُ أنفاقًا تنبشُ في الأرضِ لتعبرَ عبرها أسبابك؟!! امنحني يا أحمد بعضًا من أسبابك

لأوافق؛ لأقولَ نعم وأنا مطمئنّة، دون أن أشعرَ بأدنى ذنب.. بأدنى ندمٍ أو تقصيرٍ تجاهك وتجاه ذكراك!.. امنحني يا ربّ هذه القدرةَ على رؤيةِ أسبابِ أحمد.. أرني وجهه في المنام ولو لمرّة؛ لأقولَ له: "فلتسامحني وتمضي يا حبيبي، كنتَ سببًا يوم كنتُ أفتقدُ المعاني والسبب.. ما ذنبكَ أنت؟ ها أنا اليوم قد ملكتُ الاثنين معًا، وفقدتكَ أنت!! فلتسامحني".

يطلعُ الفجر، أستيقظ على وقع كلماتكَ ترنُّ في أذني، وتنعشُ روحي بالصفاءِ والراحةِ والسعادةِ التي لم أكن لأنعم بمثلها يومًا... أستيقظ على وقعِ كلماتك أنتَ يا سعد، وأنا التي كنتُ أنتظرُ سماع أحمد في منامي!... تطلعُ أنتَ في الأحلامِ وفي الحقيقة، في الاثنين معًا، مُفعَمًا بالصوتِ والصورة، بالصدى والاختفاء! فهنا تكبّرُ بالأذان، وهناكَ تذكرُ أنّ ذكرَ الله هو السعادة الحقيقيّة والطيبُ الذي لا طيبَ بعده،.. وتردّدُ الآيةَ في صدى رؤيايَ قائلاً: ﴿... **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**...﴾...

أصحو على ذكرِ الله، ولا أتوقّفُ عنهُ أبدًا!...

فجرٌ جديد

صلاةُ الفجرِ اقتربت.. ارتفعَ صوتُ المنادي: "الصلاةُ خيرٌ من النوم".. يا باغيَ الخيرَ أقبل!

قم توضّأ لركعتين، هما خيرٌ من الدنيا وما فيها!.. لا أجرؤ على الخروج، حيائي يمنعُني. اليوم أشعرُ أنّ سعدًا سيراني، وبرغمِ كلّ الحاضرين الذين تكاثروا حولنا وتوسّعوا، سيلحظُ تواجدي الذي لطالما أشبعتُهُ في السابق غيابًا إلى أن تلاشى.. أعرفُ أنّ سعدًا لن يتطلّع إليَّ أبدًا، وبرغمِ هذا سيراني بعينِ قلبه، تمامًا كما أراه!..

حنان تبتسمُ كالعادة، كنسمةِ عطرٍ تهبُّ على الروحِ لتمنحَها نبضَ الفرح.. النساءُ حولها يتجمّعنَ كفراشات، حمامات سلام بيضاء ترفرف حول روحي وتنعشُها.. الأطفالُ أيضًا مستيقظون! الكلُّ هنا دون استثناء، ما عدا قليلاً من الرضّعِ المتعبين، الذين أحيوا أوّل الليلِ بالبكاءِ والصراخ المتقطّع الرنّان ففاتتهم صلاة الفجر!.. البردُ قارسٌ، والأطفالُ حولي يرتجفون؛ لكنّ أرواحهم دافئة، يدفّئها نورُ الفجر... الورقةُ بين يديّ، لم أقدر أن أنتظرَ أكثر لأعطيها لأمجد.. قلتُ أناولهُ إيّاها حين ينهي صلاةَ الفجر. الصلاةُ قامت، والنورُ حلّ و لم يرتحل... الورقةُ كانت هنا قربي، يدُ الريح اجتذبتها، وأخذتها ناحيةَ الأمام، ثمّ ناحية الوراء.. تقاسمتها أيادي

الريح حتّى خلتُ أنّها تمزّقت وانتهت.. لوهلةٍ، خلتُها تلاشت...

كنتُ أصلّي حين طارت، لم أفكّر أين حلّت، قلتُ ذهبت مع الريح، لعلّ الله أرسلَ سببًا كي يثنيني عن تسرّعي وعن عزمي المتهوّر على القبول.. حمدتُ اللَّهَ في سرّي، وقلتُ ها هي الورقةُ اختفت، ما عادَ لها أثرٌ يُذكَر.. سلّمنا السلام الأخير، وفيما النساء يحتضنُ بعضهنّ بعضًا، إذا بي ألمحُ الورقةَ بأمِّ عيني تحلّق ناحية الأمام، نحو أقصى البدايات، نحو الجزءِ المزهرِ من الأرض القابعِ فيه أمجد وسعد، وبعض الرجال الآخرين.. عقلي لم يستوعب ذلك، الورقةُ حطّت فوق رأسه، تلقّفها بكلِّ يسرٍ وسهولة... وكأنّها تعرفُ العنوان!... سعدٌ تناول الورقة، وأنا كدتُ أذوب، من حرقةِ الخجلِ ونار الارتباك!!! ألمحُ سعدًا يفتحُ الورقة، يبتسم، يطويها ثمّ يضعُها في جيبه.. يأتي أمجد ويكلّمه، يتصافحُ الاثنان بمزاحٍ ويبتسمان، ثمّ يعودُ كلٌّ إلى خيمته... اليوم عاد الكلُّ مسرعين إلى خيامهم؛ فالبردُ كاد يطحنُ عظامهم، لولا أنّ الروحَ دفّأتهم ودثّرت أعضاءهم بدثارها العذبِ الدافئ!... عادوا جميعًا هادئينَ باسمين، ورجعتُ وحدي أرتجف، خجلى لا أعرفُ ماذا أفعل! لحقت بي حنان بعد قليل، كانت تبتسمُ بغزارة، وتحملُ الورقةَ بيدِها...

- "هذه لك؟".
- "مَ.. ما هذه؟".
- "يقولُ أمجد إنّها طارت منك"..
- "آاا.. نعم إنّها لي..".

أسرعُ وأحاولُ إخفاءها.. تلاحظُ حنان ارتباكي،.. تفهم، وتبتسمُ... يبدو أنّهم جميعًا يعرفون، كلّهم يعرفون ويفهمون، إلاّ أنا!

لا أعرفُ ماذا أقول ولا أفهم لِمَ أتصرّفُ هكذا، ولماذا أنا مرتبكةٌ إلى هذا الحدّ!

- "هوّني عليكِ.. اللَّهُ يرسلُ لنا دومًا إشاراتٍ كي لا نتيه.. لا تتيهي عن الإشارة".

تبتسم حنان ثمّ تديرُ ظهرها وتغادر.. وكأنّها كانت تعرف! لكن، من أخبرها؟!.. أيُعقلُ أن يكون أمجد؟ لا، غير ممكن، لا يفعلُها، مستحيل! ولِمَ لا يكون سعد هو الذي طلب منها أن تكون الوسيطَ الجديد.. يا إلهي، لعلّهُ اعتقد أنّي قصدتُ أن أرمي الورقةَ صوبه، يا لهذا الموقف المحرج! يا لسوء حظّي!... لكن.. لعلّها تكونُ إشارة كما قالت حنان.. لِمَ لا تكون هذه إحدى الإشارات؟

أخلدُ للنوم، وتغفو الورقةُ بين يديّ..

في الليلةِ التالية، أعطيها لأمجد؛ فيرسلُها إلى سعدٍ ويعيدُها إليّ في الليلة التي تليها.. يعيدُها أمجد إليّ لتدورَ دورتها الأخيرةَ بعد ذلك، ثمّ تحطُّ في أرض القرار والاستقرار.. يعيدُها إليّ كي أجيبَ عن السؤالِ الأوضحِ والأخيرِ بثلاث نقاطٍ ليس إلاّ...

تقفُ الورقةُ عند سعد ولا تدورُ ثانيةً.. ربّما لم يفهم جوابي، ربّما لم يتأكّد تمامًا ممّا أخبرهُ به قلبه.. عند ظهرِ اليوم التالي، تحدّثني حنان عن سعدٍ وتقول إنّه الشاب الأمثل الذي تحلمُ به أيّ صبيّة.. أقولُ لها: "أهذه من المقدّمات اللازمة؟".

تضحك حنان، ثمّ تقولُها بالفم الملآن بعد أن فهمت أنّي بتُّ أعرف كلَّ شيء..

- "يعني موافقة؟".

أبتسم،.. لا أقولُ شيئًا.. تضمُّني حنان بحنانها الأموميِّ المعهود، تقبّل وجنتي، ثمّ تركضُ مسرعةً نحو سعد؛ لتخبرَهُ الخبرَ اليقين.. وما هي إلاّ ثوانٍ حتّى يرفعُ سعدٌ أذان الظهر.. الرجالُ يكبّرون، والفراشاتُ تزغرد!... أمّا الأطفال، فظلّوا كما كانوا يلعبونَ، لكن هذه المرّة، أقربَ من كلِّ مرّة!!...

انتهت

~ ما زلتُ أحلم...
وحدها الأحلامُ لا يمكنُ أن تنتهي ~

ذو الحجّة 1436/صفر 1437
سبتمبر 2015/نوفمبر 2015